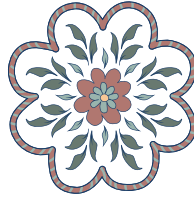




جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

السيرة النبوية

تأليف مجموعة باحثين



كِتَابُ
السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ



جامعة محمد بن زايد
للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

1445 هـ - 2024 م

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبياً بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الناشر

www.mbzuh.ac.ae

  mbzuh



MBZ university for humanities



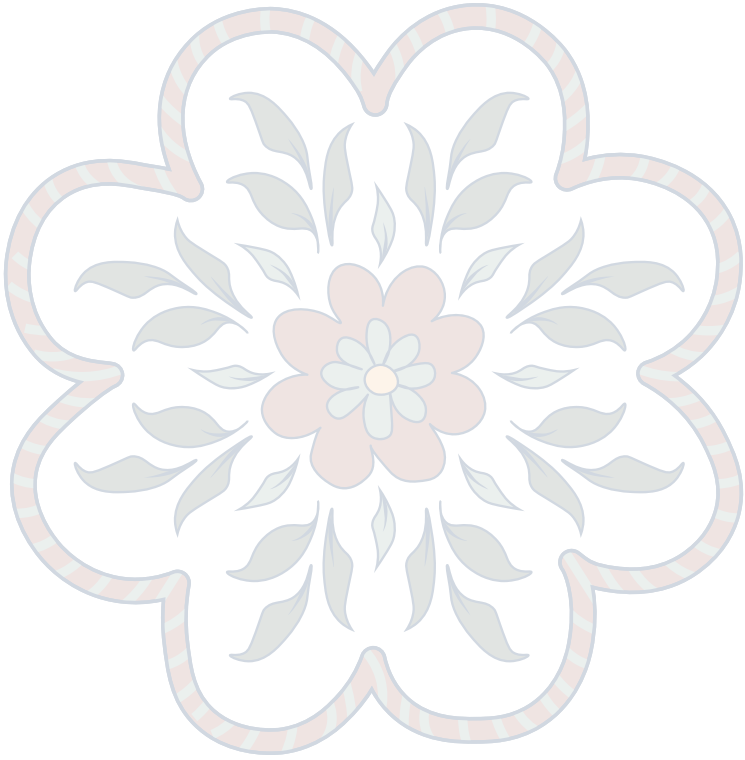
mbzuh.ac.ae

الكتب العلمية

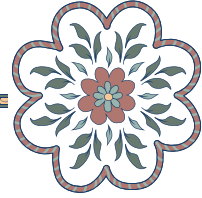
كتاب

السيرة النبوية

تأليف
مجموعة باحثين



تصدير :



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث
رحمة للعالمين، وعلى سائر إخوانه المرسلين، وعلى آل كل وصحب كل
أجمعين.

وبعد،

في هذا الكتاب قراءة جديدة للسيرة النبوية العطرة، تُلقي أضواءً
كاشفةً على جوانب من حياة النبي الكريم محمد ﷺ، تُمثل بحق جوهر
الرسالة الخاتمة، التي شاء الله لها أن تكون سُلماً ترتقي به البشرية
إلى ذرى السموّ والكمال.

منها: الرحمة، والرّفق، والمحبة، والوفاء، والتسامح، والعفو،
والسلام.

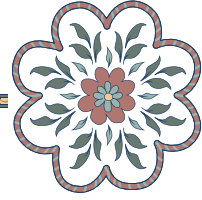
إنّها جوانب لا تدركها بصائر المتدبرين إلا ازدادت إيماناً بهذا
الرسول الكريم ﷺ، ومحبةً له، وحرصاً على اتباع هديه القويم.

فهي إذا قراءةً تقويمةً لمسار كتابة السيرة وتفهمها، تتخذ من كليات المعاني الخلقية والقيمية التي نص عليها القرآن الكريم أساسها ومنطلقها، جامعةً إلى ذلك إبراز ما كانت تتسم به البيئة العربية التي وُجد فيها النبي الخاتم ﷺ من تمسكٍ بتلك المعاني والقيم، التي توارثتها أجيال العرب من لدن إبراهيم أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

في ضوء ذلك تناول الكتاب أهم مراحل حياة محمد عليه الصلاة والسلام، معتنيًا بإبراز ما يُستفاد منها من بليغ المعاني ونفيس الحكم؛ ليجد فيه القرأة من مجالي الإبداع والتميز ما يُشبع نهمهم المعرفي، ويقف بهم على معالم منهج قويم في التعامل مع السيرة العطرة، يجمع بين الأصالة في المصادر، والجدّة في طريقة تناول الأحداث والمواقف عرضًا وتحليلًا.

إنّ هذا العمل إذ نقدّمه للقراء، نأمل أن يكون بيانًا لشخصية النبي الكريم، كما تجلّيها مبادئ دعوته السّمحة الخالدة، التي جمعت مقاصدّها في قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾.

(1) - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، رقم: 207.



وحدة الأصل البشريّ

لم يزل موضوع الكائن البشريّ ميداناً فسيحاً لنظريّاتٍ علميّةٍ عديدةٍ، وآراءٍ معرفيّةٍ متعدّدةٍ؛ تحاولُ تفسيره من حيثُ ظهوره ونشأته، فمراحلُ تطوّره، ثمّ خريطةُ انتشاره في أرجاء المعمورة.

وعلى تباينٍ ما للعلماء من آراء في ما يرتبطُ بذلك من مسائل وقضايا، فإنّ ما يميّزُ به هذا الكائنُ في أحواله الظاهرة من الخصائص يبقى من الحقائق الثّابتة التي لا سبيلَ إلى الجدلِ فيها أو إنكارها بحالٍ.

ومن تلك الخصائص: قدرته على التّأقلم مع الطّروف المختلفة، وتطويره لأنظمة حياته الاجتماعيّة (الأُسرة، العمل..)، وتطويعه عناصر الطّبيعة (الهواء-الماء-التّار...) للاستفادة منها في تدبير معاشه، وتنميته للحسّ الدّينيّ الذي تجلّى في ممارسة طقوس التّعامل مع الأزمات، ودفن الموتى ونحو ذلك.

إن هذه النظرة الوجودية إلى هذا الكائن تتجاوز أسئلة المنشأ والتطور والانتشار، ولا تكاد تختلف عن منحى التصوص القرآنية التي لم تهتم بالإجابة عن هذه الأسئلة اهتمامها بسؤال الوظيفة والغاية من وجود الإنسان.

يحسم التص القرآني مسألة الأصل بمبدأ (الخلق)؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

ويُصرِّح بتنسُّل البشرية من آدم، مضمناً كثيراً من نداءاته إشاراتٍ تذكيريةً إلى هذا الأصل؛ كما في آيات الخطاب ب: (يا بني آدم).

ولم يزد في وصف ما قبل (خلق) آدم على الإشارة إلى (الطين) و(صلصالٍ كالفخار)، صارفاً أعظم أوجه الاهتمام إلى (الاستخلاف)، الذي جعله مجلَى الحكمة في الخلق؛ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30)

وهو تأكيد قرآني على وحدة الأصل البشري، فالتاس أمة واحدة،
خُلِقُوا من ذكرٍ وأنثى.

أخرج الإمام البيهقي في الشُّعَبِ عن جابر بن عبد الله - رضي
الله عنهما - قال: خطبنا رسول الله - ﷺ - في وسط أيام التشريق
خُطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم
واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا
لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند
الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فليبلغ
الشاهد الغائب» (1).

فكلُّ التاس في الإنسانيّة متساوون، لا فضل لعربي على عجمي،
ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى.

لقد خلق الله الإنسان وأكرمه بحُسنِ التَّقويم، وجمالِ هيئته
التَّصوير؛ قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾
(التين: 4)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾
(الانفطار:-: 86)

(1) - البيهقي، شُعَبُ الْإِيمَانِ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2000،
ابواب حفظ اللسان، رقم: 5137.

وقد عرف العرب مختلف الحضارات التي شادتھا البشريّة في تاريخها، فأحسنوا التّفاعّل معها، والاستفادة منها، فبنوا حضارتهم وطوّروها بما عاد عليهم وعلى الإنسانيّة جمعاء بالنّفع والخير العامّ.

وقد نظموا الأشعار البديعة فجعلوها سجلاً تاريخهم، وترجمان أفكارهم، وعنوان مفاخرهم، ولواء عظمتهم، وفهرس حضارتهم، ومجمّع حكمتهم، وديوان ما كانوا يؤمنون به من المبادئ والقيم.

وإلى ذلك الإشارة بقول عمر بن الخطّاب رضي الله عنه - فيما كتب أبي موسى الأشعريّ -: "مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بِتَعَلُّمِ الشَّعْرِ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ".⁽¹⁾

وكان ابن عباس يقول: "الشَّعْرُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ".⁽²⁾

ووعياً بذلك حرص الأدباء على جمع أشعار العرب، فألّفوا في ذلك دواوين موسوعيّة، ضمّنها عيون القصائد ونفائس الأشعار.

ويعدّ كتاب المُفَصَّلِيَّاتِ لِلْمُقَضَّلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْلَى بْنِ سَالِمِ الضُّبَيْتِ 168هـ، أقدم مجموعة صنعت في اختيار الشعر العربيّ، أراد

(1) - القيروانيّ، ابن رشيّق، العمدة في محاسن الشعر وأدابه، تحقيق النّبويّ عبد الواحد شعبان، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط 1، 2000، ص 24.

(2) - القيروانيّ، العمدة، 27.

مؤلفه أن يكون مرجعاً لتأديب المهديّ ابن الخليفة المنصور، فضمنه أفضل القصائد العربيّة لشعراء متعدّدي الأديان، مسلمين ونصارى وغيرهم، وكان منهجه تقديم الأقدَر والأجدَر في الفصاحة والبيان.⁽¹⁾

وقد استطاعت القصائدُ المحفوظةُ في هذا الكتاب وأمثاله من الدواوينِ الشعريّة أن تحتفظ بتفاصيل حياة المجتمع العربيّ القديم، في أحوال السلم والحرب، والأمن والخوف، والخصب والجذب، فقدّمت لنا صورةً واضحةً المعالم عن الإنسان العربيّ، ونمط عيشه، وطريقة تفكيره، وما كان يؤمن به من مبادئٍ وقيَمٍ، ويدين به من طقوسٍ وشعائر، وما كان يسعى إلى تحقيقه من آمال!



(1) - انظر: النديم، محمّد بن إسحاق بن محمّد، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د ط، د ت، ص 111.

مَن العرب؟

في كتابات اللغويين ومؤرخي الإسلام غلبَ سلطانُ الرواية على تحديد مفهوم (العرب) كما غلبَ على التأريخ للمجتمعات الإنسانية وتطورها.

ولمَّا كان للسمع في بحوث اللغويين مركزُ الصدارة، فكانَ فيها مقدّمًا على القياس، وجدت الرواية الشفهيّة طريقها للاعتماد في تحديد الجماعة البشريّة التي أُطلق عليها هذا الاسم فصارَ علمًا عليها بالاشتهار.

ويلاحظُ أنّ علماء اللّغة ومفسري القرآن الكريم، قد بادروا إلى توظيف الدلالة اللغويّة لمادّة (عرب) في تحديد معنى ومنشأ هذه التسمية، متجاوزين ما سواها ممّا يمكن أن يساعد في ذلك.

فالعربُ - حسبَ هذا الرّأي - هم الأُمّة التي امتازت من بين الأمم بخصيصة البيان، بلاغة قولٍ وفصاحة منطِقٍ.

وأصل ذلك معنى الإبانة والإيضاح، ومنه قولهم: أعرب الرجل عما في ضميره: إذا أبان عنه،⁽¹⁾ وقول النبي ﷺ: «الثيبُ تُعربُ عن

(1) - انظر: ابن فارس، مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ب ت، مادة (عرب)، 4/304.

نَفْسَهَا»؛⁽¹⁾ قال ابن فارس: "فأما الأمة التي تُسمّى العرب، فليس ببعيد أن يكون سميت عرباً من هذا القياس؛ لأنّ لسانها من أعرب الألسنة، وبيانها من أجود البيان".⁽²⁾

لكنّ اللغويين لم يهتموا بضبط مبتدأ هذا الإطلاق من حيث الزمن، ولا يبحث ما إذا كان مصدر هذه التسمية ذاتياً أم خارجياً، وإن كانوا قد خاضوا في أول من تكلم بالعربية، وهل هو آدم أم جبريل أم يعرب بن قحطان؟⁽³⁾

ولا شك أنّ هذا الإطلاق قديم، يعود إلى ما قبل الإسلام بزمنٍ غير يسير، لكنّ إثبات مُبتدئه على وجه الدقة متعذّر.

بيد أنّ رسوماً صخريةً آشوريةً تعودُ إلى القرن الثامن قبل الميلاد وثقت مظاهر حياة من تسموا بالعرب؛ إذ صورتهم وهم يقودون جمالهم، وذلك من أقدم ما عُثر عليه من الدلائل الماديّة التي يمكن الاعتماد عليها في التّاريخ لهم ولنمط حياتهم، فارتبطت صورة العربي قديماً بسوق الإبل والتّنقل والتّرحال بين مواقع القطر والكلاب.

(1) -أخرجه ابن ماجه في سننه؛ كتاب النكاح، باب استنمار البكر والثيب، رقم : 1872 .

(2) -ابن منظور، لسان العرب، مادة (عرب).

(3) - ابن عبد البر، القصد والأهم، 11-17.

أمّا موطنهم الأصليّ فهو الجزيرة العربية، بها نشؤوا، ثمّ فاضوا شمالاً وشرقاً في اتجاه الشام والعراق، ثمّ جنوباً نحو بلاد اليمن خلال القرن الأوّل قبل الميلاد.

وعندما ظهر الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي، كانت لهم مملكتان: الغساسنة، حلفاء الإمبراطورية البيزنطية، والمناذرة حلفاء كسرى ملك بلاد فارس.

وقد جعل النسابون العربَ أقساماً ثلاثة: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة.⁽¹⁾

وجعلوا العرب المستعربة قسمين: قحطانيين (هم عرب الجنوب) وعدنانيين (هم عرب الشمال)، لكنّ القسمين امتزجا معاً بسبب الهجرة من الجنوب إلى الشمال، نتيجة تغير الظروف المناخية، والاضطرابات القبليّة.

أمّا أصول اللغة العربية فتعود إلى فترات تاريخية قديمة جداً، لكنّ الكتابة العربية لم تبدأ بالتميز إلاّ خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد.

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 14/1.

ولمّا جاء الإسلام مطلع القرن السابع الميلادي، كانت العربية قد صارت ملء السمع والبصر؛ بل صارت هي الهوية واللسان؛ وفي القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (سورة النحل: 103)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (سورة فصلت: 44).

وخلاصة القول في هذا أنّ استعمال كلمة (عرب)، يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ثم بدأ في الاتّساع والامتداد حتى صار علماً على سكان الجزيرة؛ ليلبغ أوج امتداده واشتهاره بعد ظهور الإسلام؛ إذ أصبحت الكلمة ذات حمولة ثقافيّة وحضاريّة.



جذور العربية

إننا إذ نطلق لفظة "العرب" على سكان البلاد العربية؛ فإنما نطلقها إطلاقاً عاماً على البدو وعلى الحضرة.

فالعرب جيل من الناس ما زالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق، حتى سُموا بهذا الاسم، وهم أمة قديمة جدا - كما تقدم-، فقد كانوا بعد الطوفان في عصر نوح عليه السلام، وكانوا في عاد⁽¹⁾ الأولى، وثمود⁽²⁾، والعمالة، وطسم⁽³⁾، وجديس⁽⁴⁾.

وتفيد هذه الكلمة في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي، وفي شعر عصر الرسول ﷺ معنى اللسان الذي نزل به القرآن الكريم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: 103)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَلَّا نَعْلَمَ وَعَرَبِيٌّ قُلٌ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(1) - وهم من العرب البائدة.

(2) - كانت قراهم بين الحجاز والشام.

(3) - كانت ديارهم اليمامة.

(4) - وكانوا مجاورين لطسم في اليمامة.

فِي آذَانِهِمْ وَقَرَّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾
(فصلت: 44)

وقد اتفق الرواة وأهل الأخبار على تقسيم العرب من حيث
الْقِدْمُ إلى طبقات: عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة؛ أو
عرب عاربة، وعرب متعربة، وعرب مستعربة؛ أو عرب عاربة، وعرباء
وهم الخُلص، والمتعربة.

• أما العرب البائدة فهم الأوائل الذين لم يبقَ منهم أحد، ماتوا جميعا.
• وأما العرب العاربة فسُموا بذلك لرسوخهم في العروبة، كما يقال:
لَيْلٌ أَلِيلٌ.

• وأما العرب المستعربة فهم من بني حَمِير بن سبأ، وسُموا بهذا الاسم
لأن السّمات والشّعائر العربيّة لما انتقلت إليهم ممن قبلهم اعتُبرت
فيها الصّيرورة، بمعنى أنهم صاروا إلى حالٍ لم يكن عليها أهلُ
نسبهم، وهي اللّغة العربيّة التي تكلموا بها.

وكاد المؤرخون يتفقون -أيضا- على تقسيم العرب من حيث

النسبُ إلى قسمين: قحطانية، منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية
منازلهم الأولى في الحجاز.⁽¹⁾



(1) - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1/14.

جغرافية الجزيرة العربية قديماً

نجد في الأشعار العربية القديمة، وفي بعض الكتب اليونانية العتيقة ما يفيدنا في ضبط حدود بلاد العرب وتعيين أقسامها، ومنتهى ما انبسط عليه سلطانهم من الأرض.⁽¹⁾

وأقدم من عُزي إليه تقسيم أقاليم هذه البلاد هو ابن عباس رضي الله عنهما، فيما ذكره المؤرخون.⁽²⁾

• وفي الكتابات الحديثة تفصيلاً لكل ذلك على نحوٍ دقيقٍ.

تبلغ مساحة جزيرة العرب أكثر من مليون ميل مربع بقليل، ومن ثم فهي تعدُّ أكبر شبه جزيرة في العالم، وهي من أشدّ بقاع العالم جفافاً وحرّاً؛ لوقوعها قرب خط الاستواء، ولوقوع معظمها في الإقليم المداري الحارّ، ولكونها بعيدةً عن المحيطات الواسعة التي تخفف درجات الحرارة، ولأن المسطحات المائية التي تقع إلى الشرق وإلى

(1) - مثل كتاب تاريخ هيرودوت الذي اهتم بتوثيق تاريخ العرب، ويبيّن أنّ أصل الفينيقيين من منطقة الخليج العربيّ، وأنهم انتقلوا إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ووصف في تاريخه الحد البحري لبلاد العرب، كما وصف أعمالهم ومهاراتهم ومعابدهم؛ ويبيّن أنهم كانوا يعلّمون الإغريق الأبجدية، كما وصف بلاد العرب وجغرافيتها وحدودها بين الخليج العربيّ والبحر الأحمر، كما تحدث عن ملك العرب، وأبدى إعجابه الشديد بالأخلاق العربية، ونوه بأن التاريخ لم يعرف مجتمعا يقدر العهود والمواثيق مثل العرب، وأن العرب هم الأمة الوحيدة التي لم ترضخ للفرس، بل عقدت معهم التحالفات على قدم المساواة، وقد وصل إعجابه بالعرب وبلادهم إلى درجة أنه يصرح بأن بلاد العرب كانت تفوح بعطر سماوي. تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، ص 9-10.

(2) - الحموي، ياقوت، معجم البلدان، 3/111.

الغرب منها- أي الخليج العربيّ والبحر الأحمر- أضيّق من أن تكفي لكسر حدة هذا الجفاف المستمر، ولهذا كان أثرهما في اعتدال الحرارة غير محسوس.⁽¹⁾

تحدّ البلاد العربيّة بادية الشام شمالاً، والخليج العربيّ وبحرّ عمان شرقاً، والمحيط الهندي جنوباً، والبحر الأحمر غرباً، فليماه تحيط بها من أطرافها الثلاثة.

لم تكن هذه الجزيرة مسكن العرب الوحيد، لكنّها أكثر مساكنهم وأهمّها، ومن ثمّ أضيفت إليهم؛ لأنّهم سكنوا العراق من ضفة الفرات الغربيّة حتى بلغوا أطراف الشام، كما سكنوا فلسطين وسيناء إلى ضفاف النيل الشرقيّة حتى أعلى الصعيد، فكّلها أرضون يرى الكتاب القدامى أنّها من مساكن العرب.⁽²⁾

لذلك أضيفت إليهم إضافة ملك واختصاص، ف قيل: "بلاد العرب"، ووُصفت ب: "العربيّة".

قال المقدسيّ: "وهذه صورة جزيرة العرب وقد جعلناها أربع

(1) - علي، جواد، المفضّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1/ 140-145.

(2) - انظر لمزيد من التفصيل لوصف بلاد العرب: الألويسي، محمّد شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمّد بهجت الأثري، دار الكتاب العربي، ط. 2، ب ت، 1/ 184-226.

كُورِ جليلة وأربع نواح نفيسة، فالكور أولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر، والنواحي الأحقاف والأشجار واليمامة وقرح".⁽¹⁾

وقال أيضا: "فإنها تشتمل على حدود جليلة، وكور كبيرة، وأعمال نفيسة، ألا ترى أن الحجاز كلّها واليمن بأسرها وبلد سبأ والأحقاف واليمامة وهجر وعمان والطائف ونجران وحنين والمخلاف وحجر صالح وديار عاد وثمود والبئر المعظلة والقصر المشيد وموضع إرم ذات العماد وأصحاب الأخدود وحبس شداد وقبر هود وديار كندة وجبل طيء وبيوت الفارحين بالواد وجبل سينا ومدين شعيب وعيون موسى فيها؟

وهي أمد الأقاليم مساحةً وأفسحها ساحةً، وأفضلها تربةً وأعظمها حرمةً وأشرفها مدناً".⁽²⁾



(1) -المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003م، ص 68.

(2) -المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 67.

ديانات الجزيرة العربية قبل الإسلام

نشأ الدين عند العرب كما نشأ في مختلف المجتمعات الإنسانية، بغض النظر عما إذا كان أصله الوحي إلى رسول من البشر - كما هو حال الديانات السماوية - أو كان ظاهرة اجتماعية، أو شأنًا فرديًا ينشأ عن تقلبات أحوال النفس الإنسانية وتجربتها في التأمل أو الاعتراك الداخلي بين الأحاسيس والعواطف (الخوف والرجاء) وبين الإرادات والرغبات الجامحة.⁽¹⁾

وقد زخرت نصوص القرآن الكريم، خاصة السور المكية، بإشارات مهمة إلى جوانب ترسم لنا الملامح العامة للحالة الدينية للعرب قبيل ظهور الإسلام، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: 37)

فمنهم من دان باليهودية كالسموأل بن عادياء، أو بالتصرانية كورقة بن نوفل،⁽²⁾ ومنهم من دان بالمجوسية، ومنهم من كان من

(1) - السواح، فراس، دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دار علماء الدين، دمشق، ط. 4، 2002، ص 23-26، وانظر شرحاً لنشأة وتطور الاعتقاد الديني عند الإنسان من منظور مقارن بين علمي النفس والاجتماع في: لويون، غوستاف، مقدمة الحضارات الأولى، ص 48-56.

(2) - سليمان بن طرخان التيمي، سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق د. رضوان الحصري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1443هـ، ص 59.

الصابئة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 62).

ومنهم من توقّف، فلم يعتقد بشيء، ومنهم من كان دُهرياً لا يرى وجوداً لإله، ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكّم الآلهة في حياة الإنسان، ومن اعتقد بطلان كلّ شيء فأنكر كلّ ما بعد الموت؛ البعث والحساب والجزاء.

وذهب بعض الأخباريين إلى أنّ من العرب في مبتدأ أمرهم من كانوا على ملّة إبراهيم، مؤمنين بإله واحدٍ أحدٍ، اعتقدوا وجوده، وحجّوا إلى بيته، وعظّموا حرّمه، ثم تحوّل بعضهم إلى دين آخر بمحض إرادته وكامل رغبته دون أن يكرهه أحد على ذلك.⁽¹⁾

ولا شك أنّ لكلّ ما ظهر من الأديان عند العرب قبل الإسلام ما يفسّر ظهوره من عوامل وأسبابٍ مختلفة، يقفنا عليها تتبّع أشعارهم، التي حفلت بإشاراتٍ قويّةٍ إلى تلك العوامل والأسباب.

وفي تفاسير القرآن الكريم وشروح كتب الحديث تفصيلاً وشرح

(1) - انظر في وصف الحالة الدينيّة عند العرب قبل الإسلام: الأثوسي، محمّد شكري، بلوغ الأرب، 2/194-286.

لبعض تلك الإشارات.

كما أنّ في شروح الدواوين الشعريّة ما يفيدُ في معرفة تفاصيل الحالة الدينيّة للعرب في تاريخهم قبل الإسلام.

وفي كتب الأدب واللّغة والمعجمات، ما يوسّع معارفنا في هذا الموضوع.⁽¹⁾

غير أنّ العربيّ مهما اختلفت ديانته وعقيدته يظلّ متّصفاً بسماته الأصيلة، وأخلاقه النبيلة، وما السّمؤال اليهوديّ وحاتم التّصرايّ عنا ببعيد؛ إذ عُرف الأوّل بوفائه، والثاني بكرمه، ورأنتُهُما عربتُهُما فكانت لهما باعثاً رئيساً على التّمسك بهذه القيمِ التّبيلة التي جعلتهما شامتَيْن يتفاخر العربُ بهما إلى يومنا هذا.

ويضاف إلى ذلك ما ورد في كتب السّير والتّاريخ عن عبادات القوم قبل الوحي وفي أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنام والأوثان.

وذكرُ عبادة الأوثان عند العرب قبل الإسلام لا يعني أنّهم لم

(1) - يراجع في هذا الباب أطروحة دكتوراة بعنوان : المعتقدات والقيم في الشعر، إعداد محمد الشيخ محمود صيام، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربيّة، 1402م.

يدينوا بدينٍ غيره كما بيّنا سابقاً،⁽¹⁾ فقد كانت بعض قبائلهم الكبرى تدين بالديانات السماوية، كاليهودية، وممن دان بها بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، أما التصرائية فدان بها المناذرة وتثوخ وبنو إياد وغيرهم، فكان ثمة تنوعٌ في المعتقدات والأديان.

على أنّ بعض القبائل العربية كانت -بحكم التحالفات السياسية- قد تأثرت مجلفائها فاعتنقت أديانهم.⁽²⁾

وقد عرفت الجزيرة العربية العديد من الموحدّين الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً، أمثال زيد بن عمرو بن نفيل في ما قبل الإسلام، فقد كان على دين إبراهيم، لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة ولا الدّم، وقُسّ بن ساعدة الإيادي، الحكيم البليغ المشهور، الذي ذُكر أنّ النبي ﷺ لما أتاه وفدُ إياد بعد البعثة سألهم عنه، فقال: «مَا فَعَلَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ؟» قالوا: "مات".

قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ بِسُوقِ عُكَازٍ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقٌ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَهُ حَلَاوَةٌ، مَا أَجِدُنِي أَحْفَظُهُ».

(1) -يراجع في هذا الباب : ابن الكلبي، كتاب الأوصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، د.ت.

(2) -انظر: دي طرازي، فيليب، عصر السريان الذهبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 26-27، و المقرئزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، الباب الثاني القبائل العربية في مصر، كتاب الإسماعيلية والأنباط.

فَقَالَ رجل من القوم: "أنا أحفظه، سمعته يقول: أيها النَّاسُ، احفظوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ، ليلٌ داجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وبِحَارٌ تَزْخَرُ، ونُجُومٌ تُزْهَرُ، وضوءٌ وظلّامٌ، وبرٌ وآثامٌ، ومطعمٌ وملبسٌ، ومشربٌ ومركبٌ، ما لي أرى النَّاسَ يذهبون فلا يرجعون؟ أَرْضُوا بالمُقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا، وإلهٌ قُوسٌ ما على وجهِ الأرض دينٌ أفضلٌ من دينٍ قد أظلكم زمانه، وأدرركم أوانه، فطوبى لمن أدركه واتَّبعه، وويلٌ لمن خالفه..".

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرَحِمُ اللَّهُ قُوسًا، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَبْعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحِدَةً». (1)

وهذه الرواية ترشدنا إلى منهجه ﷺ في اتباع الحكمة والحِرص على تعلّمها، فهي كما قال عنها ﷺ: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَيْنَمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»، وفي رواية: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا يَأْخُذُهَا»، وفي رواية: «أَنَّى وَجَدَهَا أَخَذَ بِهَا».

وذلك لكونها معقد اتفاقٍ بين البشر أجمعين.

وقد أشاد بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها قول الله

(1) - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 300/2

تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: 269).

ومنها مواضع أثنى فيها على المتصنيفين بالحكمة، كقول الله سبحانه عن النبيِّ داود عليه السلام: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخُطَابِ﴾ (ص: 20)، وكقوله تعالى عن لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (لقمان: 12).

لقد كانت التعددية الدينية واقعا معيشيا في جزيرة العرب، فلم يكن أي من أهل الديانات يُكره على ترك معتقده أو اتباع معتقده سواه، يؤكد لنا ذلك ما وثقته المصادر من أن بلاد العرب كانت بها أديرة مشهورة يمارس فيها الرهبان شعائرهم، كبحيرى الراهب الذي لقيه النبي ﷺ في رحلته إلى الشام مع عمه حين كان صبيا.

وقد أكدت الكشوف الأثرية الحديثة ما تضمنته المصادر عن تلك الأديرة والكنائس، كما هو الحال في صيربني ياس، الذي كشفت أعمال التنقيب فيه عن آثار مجمع ديني قديم، يضم كنيسة وديرا وبعض المنازل.⁽¹⁾

<https://abudhabiculture.ae/ar/experience/historic-landmarks/sir-bani-yas-church-and-monastery-> (1)

ولذلك نستطيع أن نقول مثلاً: إنّ وثيقة المدينة التي أبرمها ﷺ بعد هجرته إلى المدينة مباشرة مع مجتمعتها، لم تكن غريبة على العرب في بنودها، وإنما جاءت مكّملة ومتمّمة لما كانوا يؤمنون به من المبادئ والقيم؛ فلذلك شملت جميع أفراد المجتمع وأوجبت عليهم احترام بعضهم بعضاً، وخُتمت بجملة من جوامع الكلم التي لم تستثن أحداً من ذلك المجتمع، هي: "وأن الله جار لمن برّ واتقى".⁽¹⁾



(1) - انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 3/276.

صفات العرب وأخلاقها

لم يكن للعرب أن يُخْصُوا بشرف بعث خاتم الأنبياء فيهم إلا لكون شيمهم حسنةً، وأخلاقهم عاليةً، وصفاتهم نبيلةً؛ فلذلك كان النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام من أنفسهم وأنفسهم، فولد ونشأ في أرضهم، وترعرع بين ظهرانيهم؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 128-129) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: 124)

ومن الطباع التي جُبلت عليها النفوس البشرية الفرح بما تتصف به من حميد الخصال؛ والمجتمعات والأمم في ذلك كآحاد النفوس، تفخر بما تكبره من معانٍ وبما تُعظمه من قيمٍ.

وكثير من هذه الصفات الحميدة قد حُفظ في قصائد أنشدت في المدح الذي يُعدُّ من جملة أغراض الشعر على الجملة،⁽¹⁾ كما تضمنت آيات من القرآن الكريم ونصوص من الحديث النبوي الشريف جُملاً منها.

(1) - حصرها قدامة ابن جعفر في سنة: المديح، والهجاء، والنسيب، والزئاء، والوصف والتشبيه، انظر: نقد الشعر، تحقيق محمد خفاجي عبد المنعم، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص 390، وانظر كذلك: الألويسي، محمد شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجت الأثري، دار الكتاب المصري، ب ت، 278/1-279.

ولا يلزم من هذا توهم أن أصول الفضائل لا تعرف إلا بتعاليم الأنبياء، فإن فلاسفة الإسلام وغيرهم ذكروا أنها مدارك فطرية تنميها عوامل الاكتساب التي تشحذ الأذهان، وتقوي ملكة الفهم والتمييز، وتحمل النفوس على سرعة قبولها والإقبال عليها.⁽¹⁾

وقد عكف فلاسفة الإسلام على دراسة الأخلاق وتبيانها -وعلى رأسهم ابن مسكويه- فوصفوا الأخلاق السامية وطبيعتها وأصل منشئها، معتمدين على طبائع البشر وما خبروه من قيم نبيلة، في كافة المجتمعات، وخصوا بال العناية المجتمع العربي؛ لعلاقته بالرسالة الخاتمة.

ومما يؤكد صحة مسلكهم في ذلك التخصيص قول النبي ﷺ بياناً للغاية من بعثه: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».⁽²⁾

فصرح ﷺ بأنه بُعث لصرح الأخلاق مُتمِّمًا ومؤكِّدًا، لا مبتدئًا ومؤسسًا؛ إذ لم تكن البيئة العربية التي بُعث فيها خالية من الفضائل والقيم.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تشير إلى هذا المعنى كذلك

(1) - انظر: ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق عماد هلال، منشورات الجمل، بغداد، 2011، ص 300-305.

(2) - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، رقم: 207.

قوله ﷺ: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ إِذَا فَقَّهُوا»⁽¹⁾.

فالرسالة المحمدية جاءت لتنمي تلك الأرض الخصبة بالقيم النبيلة.

ولنا وقفاتٌ مع بعض تلك الأخلاق المرضية فيما يأتي، فلنقدم بين يدي ذلك طرفاً من الصفات العامة عند العرب قبل الإسلام.

صفات العرب قبل الإسلام

نقل العلامة محمود شكري الأوسي في كتابه "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب": أن النعمان بن المنذر دخل على كسرى ملك الفرس، وكان في مجلس كسرى وفود الروم والهند والصين، فأخذ كل وفد يتفاخر بملوكهم وبلادهم وما صاروا إليه من حال، فتفاخر النعمان بن المنذر بالعرب فلم يُبق أمةً أو شعباً إلا وفخر عليها ولم يستثن فارس ولا غيرها.

(1) - أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، رقم: 3496.

فقال كسرى وأخذته عزة الملك: "يا نعمان، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حال من يقدّم عليّ من وفود الأمم، فوجدت الرومَ لها حظٌّ في اجتماع ألفتها، وعِظَم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق بنيانها، وأنّ لها دينًا يبيّن حلالها وحرامها، ويردّ سفيهاها ويقيم جاهلها.

ورأيت الهند نحوًا من ذلك في حكمتها وطبّها، وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها".

ثم ذكرَ التركَ وأثنى عليهم، ثم قال: "ولم أر للعرب شيئًا من خصال الخير في أمر دينٍ ولا دنيا، ولا حزمٍ ولا قوة، همّتهم ضعيفة، بدليل سكّنتهم في بوادي قفراء، ورضائهم بالعيش البسيط، والقوت الشحيح، يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضًا من الحاجة، أفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع؛ لثقلها، وسوء طعمها، وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفًا عدّ ذلك مكرمًا.

ثم إنهم مع قتلهم وفاقتهم وبؤس حالهم، يفتخرون بأنفسهم، ويتناولون على غيرهم ويُنزلون أنفسهم فوق مراتب الناس، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين.....

فلما سكت كسرى قال التُّعْمَانُ بن المنذر: "أصلح الله الملك،
حقَّ لأُمَّةِ الملكِ منها أن يسموَ فضلُها، ويعظَمَ خطبُها، وتعلوَ درجَتُها،
إِلَّا أَنْ عِنْدِي جَوَابًا فِي كُلِّ مَا نَطَقَ بِهِ الْمَلِكُ، فِي غَيْرِ رَدٍّ عَلَيْهِ، وَلَا
تَكْذِيبَ لَهُ، فَإِنْ أَمَّنِي مِنْ غَضَبِهِ نَطَقْتُ بِهِ".

قال كسرى: "قل، فأنت آمنٌ".

قال التُّعْمَانُ: "أما أمتك أيها الملك فليست تُنَازِعُ فِي الْفَضْلِ؛
لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطة محلِّها، ومُجْبُوحة
عزِّها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك، وأما الأم التي
ذكرت، فأَيُّ أُمَّةٍ تَقْرِنُهَا بِالْعَرَبِ إِلَّا فَضِلَّتْهَا".

قال كسرى: "بماذا؟"

قال التُّعْمَانُ: "بِعِزِّهَا وَمَنَعَتِهَا وَحَسَنِ وَجُوهِهَا وَبِأَسْهَائِهَا وَسَخَائِهَا
وَحِكْمَةِ أَلْسِنَتِهَا وَشِدَّةِ عَقُولِهَا وَأَنْفَتِهَا⁽¹⁾ وَوَفَائِهَا".

فأما عزِّها ومَنَعَتُها؛ فإنها لم تزل مجاورةً لآبائك الذين دوخوا
البلاد،⁽²⁾ ووظدوا الملك، وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم

(1) - الرفعة والعزة.

(2) - استولوا عليها وقهروا أهلها.

نائل،⁽¹⁾ حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنتهم السيوف، وعدتتهم الصبر؛ إذ غيرها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما أنسابها وأحسابها؛ فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها، وكثيراً من أولها، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا ويسمي آباءه أباً فاباً، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعي إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها؛ فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عند البكرة والناب،⁽²⁾ عليها بلاغة في حموله وشبعه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفي بالفلذة،⁽³⁾ ويجتزي بالشرّبة، فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدثوة وطيب الذكر.

وأطال النعمان الثناء على العرب والردّ على ما قاله كسرى، وبعد أن انتهى من ذلك عجب كسرى لما قال النعمان، وقال: "إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهلك".

(1) - وفي ذلك مهانة للملك وللفرس أجمع فإنه بين لهم أنه وأجداده عجزوا عن غزو العرب طول تلك السنين، وما ذلك إلا لحقيقة قوتهم وجلدهم في الحرب.

(2) - الناقة المسنة.

(3) - القطعة من الشيء.

ولم يكتف الثُّعْمَان بن المنذر بما قاله لكسرى وظل في نفسه شيئاً مما قال، فلما قدم الحيرة قافلاً من عند كسرى بعث لبعض أشراف العرب فجمعهم وأخبرهم المقالة وقال لهم: "قد سمعت من كسرى مقالات تخوّفت أن يكون لها غور، وأن يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خَوَلاً⁽¹⁾ كبعض طماطمتة⁽²⁾ في تأديتهم الخراج إليه، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله".

فبعثهم لكسرى ليعلم كسرى من العرب، وبعث معهم كتاباً والبسهم لباس الملوك وأعطاهم من الإبل والخيل أعزّها، فدخلوا عليه وكان قد جمع لهم أشراف بلاد فارس ليستمعوا إليهم، فقام العشرة يخطبون أمام الملك يتفاخرون بعروبتهم وبشرفهم ورفعتهم عن الأمم الأخرى، فتفاخروا وأحسنوا المقالة والأدب وأثنى عليهم كسرى وعلى العرب.⁽³⁾

إنّ هذه القصة جمعت من سمات الشخصية العربيّة ما يعدُّ أخصّ خصائصها وأظهر شيمها، وهي دالة على أن العربيّ سيّد نفسه

(1) - العبيد والخدم.

(2) - الذلّة والسكون والمهانة.

(3) - الألويسي، محمد شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 1/ 155-165.

يعتزّ بها، ويرضى باليسير، ولا ترنو عينه إلى ما عند الآخرين، يقنع بجيمة تؤويه من الحر والقر، وفي يده عصا يتكئ عليها ويهشّ بها على ماشيته، ولا يكثر كثيرا بزينة الحياة الدنيا، فهؤلاء الرهط الذين وفدوا على كسرى لما دخلوا أرضه لم ينبهروا بما في بلاد فارس من المتاع، كإيوان كسرى الذي ضرب به المثل في الفخامة والجلالة والعظمة، بل دخلوا على كسرى وتكلّموا في حضرته، وهم على قناعة بأنّ حال عيشهم لا يقلّ عن كسرى وإيوانه، وأتوا في مجلسه بما يفوق زينة إيوان كسرى عظمةً وفخامةً، وذلك بما نثروه بين يدي أهل الحكمة من القول الفصيح، والكلام البليغ، والمنطق الحكيم.

كما أنّ هذه الحكاية لها في الدلالة على الفضائل العربيّة شأواً بعيداً لا يبلغ غيرها مداه، وأفقاً لا مطمح لأحد سواها في الوصول إلى منتهاه.

فمنها: بلاغة القول، توفيقاً للمقال مع مقتضى الحال، ذلك أنّ التّعمان لم يحملة ما في كلام كسرى من انتقاص العرب على أن يُغلِظَ له القول ويسيء الردّ ويفجّر في الجواب، وإنّما التزم بما تقتضيه المروءة من مراعاة قدر المخاطب، وأدب حسن القول.

ومنها: الفطنة في التقدير والتدبير، فلم يقنع المنذر بما سمع من ثناء كسرى بعد أن أحسن جوابه، ولم يصدّق دعواه الاعتراف بفضل العرب؛ لمجرد أن استمع إلى ذلك الجواب، بل نقد ببصيرته إلى ما يشي به ظاهر قوله الأول من انتقاص قدر العرب واستضعافهم واستغلالهم، فبادر إلى ابتعاث وفدٍ من الخطباء الذين يحسنون القول وبلاغة الخطاب، كيما يعلم أن ليس التُّعمان وحيداً في افتخاره بقومه، وإنما وراءه من أبناء العروبة من لا يقلون عنه اعتزازاً بأمتهم التي إليها ينتسبون.

وهي ثالثة سمات الشخصية العربية التي تدلّ عليها هذه القصة: سمة الاعتزاز بالانتماء إلى المجتمع العربي، فقد ترجمت كلمات التُّعمان ما كان صدره يجيش به من ذلك الاعتزاز، الذي استطاع به أن يحاجج كسرى، فيقلب ما عدّه - من أحوال العرب المعيشية - نقائص ومثالب يعابون بها إلى مزايا ومفاخر بها يُمدحون؛ لافتاً نظره إلى ما غفل عنه من لوازم تلك الأحوال، التي لم يسعه - بعد تنبيهه إياها عليها - إلا أن يعترف بأيلولتها إلى ما يكبره العقلاء من قيم الشجاعة والغيرة والحكمة والكرم.

من القيم الخلقية عند العرب

لَمَّا كَانَ الشَّعْرُ دِيوَانَ الْعَرَبِ النَّاطِقِ بِنَارِ يَجْهِمُ، وَأَخْبَارِهِمْ، وَمَجْمَلِ
أَحْوَالِهِمْ، كَانَ لَهُ عَظِيمُ الْأَثَرِ فِي الْإِفْصَاحِ عَمَّا يُكْبِرُونَ مِنْ الْفَضَائِلِ
وَالْقِيَمِ الْخُلُقِيَّةِ.

وَلَقَدْ تَنَبَّهَ إِلَى ذَلِكَ عُلَمَاءُ صِنَاعَةِ الشَّعْرِ، فَلَفَتُوا الْأَنْظَارَ إِلَى أَنَّ
نَفَاسَةَ الْقَصِيدَةِ إِنَّمَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ إِكْبَارٍ لِتِلْكَ
الْفَضَائِلِ وَالْقِيَمِ.

وَقَدْ حَاولُوا إِحْصَاءَ جَمَلَةٍ مَا تَمَدَّحَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنْ ذَلِكَ فِي
أَشْعَارِهَا، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ مَسْلَكَانَ:

أَوَّلُهُمَا مَسْلَكُ التَّوْسِيعِ وَالتَّفْرِيعِ، سَلَكْتَهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ابْنُ طِبَاطِبَا
الْعَلَوِيِّ، الَّذِي أَوْصَلَ ذَلِكَ إِلَى عَتَبَةِ السَّبْعِينَ خُلُقًا.⁽¹⁾

ثَانِيَهُمَا: مَسْلَكُ التَّضْيِيقِ وَالضَّمِّ، وَمِمَّنْ سَلَكَهُ قَدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ،
الَّذِي جَعَلَ مَرَدًّا كُلَّ مَا تَمَدَّحَتْ بِهِ الْعَرَبُ أَوْ مَدَّحَتْ بِهِ غَيْرَهَا إِلَى
أَرْبَعِ خِصَالٍ: الشَّجَاعَةُ وَالْعَقْلُ (وَمِنْ مَعَانِيهِ الْحِكْمَةُ) وَالْعَدْلُ (وَالْغَيْرَةُ

(1) - انظر: العلوي، ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 2005، ص 18.

باعثه عليه) والعفة،⁽¹⁾ جاعلاً إياها معيار الإصابتة لمن التزم المدح بها، والخطأ لمن عدل عنها إلى غيرها.

1. الحلم

الحلم من أنبل الصفات وأفضلها، ولم تزل ملازمة لعموم العرب وخاصة كبراءهم وأعيانهم، فقد صقلتهم الحياة حتى علموا متى يجلمون ومتى يشتدون ويغضبون، وهي من الخصال الحميدة التي جاء الإسلام ليعزز مكانتها ويقويها، جاء في الكتاب العزيز: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، وقال النبي ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».⁽²⁾

وإذا كان العرب قد وُصفوا بالتعقل والحكمة فإنه لا يمكن تصور ذلك في غياب صفة الحلم التي تعدّ لسان العقل ومنطق الحكمة؛ ولذلك كانوا فيما ثبت عنهم يُثَبِّتُونَ النَّاسَ فِي الْأَوْقَاتِ الْعَصِيبَةِ، وينشرون الأمن والطمأنينة فيمن حولهم، ويسعون في أرضهم إصلاحاً بين المتخاصمين، وإطفاءً لنار الحروب والفتن والصراعات والعصبيات القبلية، وحقناً للدماء، وحفاظاً على الأرواح، وإحياء للمهج؛ ولذلك

(1) - ابن جعفر، نقد الشعر، ص 95.

(2) - رواه البخاري، باب الأدب، كتاب الحذر من الغضب، رقم: 6114.

قبلوا أن يدفعوا الديات والعقول على ضخامتها تحقيقاً لهذا المقصد النبيل وهو الإبقاء على أصل الجماعة ودرء الاختلاف والتشردم. وقد اشتهر عدد من أعيان العرب بجلهم، منهم: الأحنف بن قيس بن معاوية، وقيس بن عاصم المنقري.⁽¹⁾

2. الشجاعة

بلغ العرب في الشجاعة شأواً بعيداً؛ إذ اشتهروا من بين الأمم قاطبةً بأنهم أولو نجدةٍ وبأسٍ شديدٍ، صُبرٌ في الحربِ، صدقٌ عند اللقاءِ، وذلك لعزة نفوسهم، وأنفتهم، وفرط غيرتهم على الأعراض والحرم؛ إذ تهون عليهم دونها أرواحهم.⁽²⁾

وقد حفلت برواياتٍ ذلك كتب أيامهم وسيرهم في سالف الأزمان.

بيد أنّ الشجاعة ليس من شرطها أن تكون في الحروب أو حال لقاء العدو في ساحات الوغى، فقد تكون عبارةً عن رباطة جأش المرء في موقفٍ مهيبٍ، كشجاعة أبي بكر يوم مات النبي ﷺ،

(1) -انظر: الألويسي، بلوغ الأرب 1/116.

(2) - السابق 1/107.

حينَ وقفَ وقفةً مَنْ لا تُفقدُه الصّدمةُ أثرانهُ، ولا تطيشُ به عواصفُ
العواطفِ عن جادّةِ التّعقلِ والرّزانةِ، فقال في موقفٍ تهيّبه كلّ مَنْ
سواه من الصّحابةِ: "من كان يعبدُ محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن
كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموتُ".

إنّ الشّجاعةَ مرتبةٌ وسطى بين طرفيّ الجبنِ والتّهوّرِ، بين داعيتي
العاطفةِ والطّيشِ، بين غريزتي الخوفِ والغضبِ، هي نظرٌ استشرافيٌّ
تقدّرُ به العواقبُ والمآلاتِ، في حالتي الإقدام والإحجامِ.

وشجعان العرب كثرٌ، كيف لا وقد أرضعوا معناها في مهادهم،
وتعلموها منذ نعومة أظافرهم، وجربوها طول حياتهم؛ صونا لأعراضهم،
ودفاعاً عن أنفسهم، حتّى إنّ الرّجل منهم كان يتمنى الموت في الحرب
دفاعاً عن حرمة وطنه وعرضه، أكثر مما يتمنى الموت في حال سلّمه.

والعرب لم تكن تعرف للشجاعة سناً ولا عُمرًا، لكنّهم
يجمعونها مع الحكمة والمروءة، فكانوا يعرفون متى يُقدّمون ومتى
يُجْمون.

ومن أشهر شجعانهم حامي الظعينة،⁽¹⁾ وهو ربيعة بن مكرم،

(1) الظعينة: المرأة في هودجها.

غلامٌ من غلمان العرب قبل الإسلام، رُوي أن دريدَ بنَ الصَّمَّةَ
الشَّاعِرَ المَخْضَرَمَ، ضَرَبَ به المَثَلُ في الشَّجَاعَةِ والإِقْدَامِ.

ومن قصصه في ذلك أنه كان قد خرج في فوارس من بني جُشَمِ،
حتى إذا كانوا في وادٍ يقال له: الأخرم، وهم يريدون الغارة على بني
كنانة، رُفِعَ له رجل في ناحية الوادي ومعه ظعينة، فلما نظر إليه قال
لفارس من أصحابه: "خَلَّ الظَّعِينَةُ وانجُ بنفسك"، فانتهى إليه الفارس،
فصاح به وألح عليه، فألقى زمام الراحلة وقال للظعينة:

سِيرِي عَلَى رِسْلِكَ سَيْرَ الْأَمِينِ سَيْرَ رَدَاحِ ذَاتِ جَأْشِ سَاكِنِ
إِنَّ اثْنَيْدِي دُونَ قَرْنِي شَائِنِي أَبِي بَلَائِي وَخَبْرِي وَعَابِنِي

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظعينة، فبعث دريد
فارسا آخر لينظر ما صنع صاحبه، فلما انتهى إليه ورآه صريعا صاح
به فتصامم عنه، فظن أنه لم يسمع، فغشيه، فألقى زمام الراحلة إلى
الظعينة ورجع وهو يقول:

خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ الْمَنِيَعَةِ إِنَّكَ لَأَقِ دُونَهَا رَبِيعَهُ
فِي كَفِّهِ خَطِيئَةٌ مُطِيعَهُ أَوْ لَا فَخُذَهَا طَعْنَةً سَرِيعَهُ

وَالطَّعْنُ مِنِّي فِي الْوَعَى شَرِيعَهُ

ثم حمل عليه فصرعه، فلما أبطأ على دريد بعث فارسًا ثالثًا لينظر ما صنعوا، فلما انتهى إليهما رأهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجرّ رمحه، فقال له: "خَلَّ سَبِيلَ الظَّعِينَةِ"، فقال للظعينة: "اقصِدي قصدَ البيوت"، ثم أقبل عليه فقال:

مَاذَا تُرِيدُ مِنْ شَتِيمِ عَابِسٍ أَلَمْ تَرَ الْفَارِسَ بَعْدَ الْفَارِسِ
أَرَدَاهُمَا عَامِلُ رُمُحِ يَابِسِ

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه، وارتاب دريدٌ وظنّ أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل، فلحق ربيعةً وقد دنا من الحي، فوجد أصحابه قد قُتلوا، فقال: "أيها الفارس، إنّ مثلك لا يُقتل، ولا أرى معك رمحًا والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها، فدونك هذا الرّمحُ فإني منصرفٌ إلى أصحابي فمثبّطهم عنك".

فانصرف دريد وقال لأصحابه: "إنّ فارس الظعينة قد حماها، وقتل فرسانكم وانتزع رمحي، ولا مطمع لكم فيه فانصرفوا، فانصرف القوم".⁽¹⁾

(1) - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الدكتور يوسف الطويل، وعلي محمد هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2004، 284-283/16.

3. الحكمة

الحكمة هي العقل؛ من باب إطلاق اسم الشيء على لازمه؛ إذ معناها حسب تعريف الراغب: "إصابة الحق بالعلم والعقل".⁽¹⁾

وقيل إنها: "وضع الشيء في موضعه".⁽²⁾

ولتأصل معنى التريث في دلالتها عرفها ابن الأثير بأنها عبارة عن: "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم".⁽³⁾

ولها علاقة بمفاهيم الفراسة، والدهاء،⁽⁴⁾ والقيافة،⁽⁵⁾ والحلم، والأناة.⁽⁶⁾

وظاهر القرآن الكريم أنها قد تكون من جملة ما فطر عليه الإنسان من الطباع، كما يمكن أن تكون متحصلة لديه بالتعلم

(1) - الاصبهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة (حكم).

(2) - الماتريدي، تأويلات أهل السنة، 6 / 500.

(3) - ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 1 / 419.

(4) - ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (حكم).

(5) - ابن الأثير، النهاية، 4 / 121.

(6) - اشتهر العرب بعدة علوم ومن أبرزها:

- الفراسة وهي: الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأحوال الباطنة.

- القيافة وهي على ضربين كما أشار ابن الأثير: فالأول معرفة الأثر والثاني معرفة أشباه الرجال.

- الريافة وهي: معرفة أماكن تواجد الماء ولو كانت تحت الأرض من خلال أمارات معينة.

والاكتساب؛ لقول الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة: 269)، ولحديث البخاري عن ابن عباس موقوفًا: "ضممني النبي ﷺ إلى صدره، وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ»".⁽¹⁾

لقد شاعت الحكمة في العرب فملأت ديوانهم -وهو الشعر-، وأقوالهم وتصرفاتهم وتاريخهم، حتى عُرف بها أربعة وقع الاتفاق على أنهم أشعر العرب، وهم: امرؤ القيس، وزهير ابن أبي سلمى، والتابغة، والأعشى.⁽²⁾

وكان زهير أجمعهم للمعاني في قليل ألفاظ، وأحسنهم تصرفًا في المدح والحكمة.⁽³⁾

فمن ذلك قصيدته التي ملئت حكمة، حتى قال عنها بعضهم: "إن آخر أبياتها أشبه بكلام الأنبياء"،⁽⁴⁾ ومما جاء فيها:

(1) - أخرجه البخاري، رقم: 3756.

(2) - الألويسي، بلوغ الأرب، 3 / 93-104.

(3) - السابق، 3 / 95.

(4) - النعالي، ثياب الآداب، ص 108.

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَتَلَنَّهُ
 وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ
 وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ، فَيَبْخَلُ بِفَضْلِهِ
 عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَعْنَ عَنْهُ وَيُدْمَمُ
 وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
 يُضْرَسَ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسِمٍ
 رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِبُ
 تُمْتُهُ وَمَنْ تَخَطَىءَ يُعَمَّرُ فِيهِمْ
 سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعَدْنَا فَعُدْتُمْ
 وَمَنْ يُكْثِرِ التَّسَالَ يَوْمًا سَيُحْرَمُ
 وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
 وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
 لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالِدَمِّ

في هذه الأبيات المليئة بالحكمة يذكر زهير أن المنية لا بد آتية،
لا يحول عنها حائل، فإن جاءت فلا مردّ لها، ومن طال عمره هرم،
وفي الهرم المرض والتعب والعجز، وعلى ذي المال أن يجود بماله وخاصةً
لأهله، وإلا فإنه سيكون مذموماً بينهم.

وأن على المرء أن يداري الناس وإلا مضغوه وأذوه في نفسه
وشرفه، ثم يرشدنا إلى وجوب العمل والكّد من أجل لقمة العيش؛
لأن السائل إن أعطي الآن فسيأتيه زمانٌ يجرمه الناس من العطاء.
كما أشار إلى أن أخلاق المرء ظاهرةً عليه، فإن كانت حسنةً
فسيراها الناس حسنةً وإلا فالعكس؛ كما قال محمود بن الحسين
السّندي المعروف بـ: "كشاجم" ت: 360هـ: (1)

وَيَأْبَى الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِلَّا تَبَيَّنَا وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ
فذلك وجب على المرء أن يتصف بالأخلاق الحسنة المحمودة.
وفي آخر أبيات زهير إشارةً إلى أنّ الفتى بأصغريه لسانه وقلبه،
فبذلك يسود ويبزغ نجمه، لا بنسبه أو شكله أو ماله.

(1) - قال الذهبي: "كان شاعراً كاتباً منجماً، فعمل من حروف ذلك له اللقب"، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وأكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. 2، 1984، 286/16.

ومن أبيات الحكمة كذلك قولُ لبيد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وهذا البيت مليء بحكمة لمن تأمله وتدبره؛ ولذلك قال عنه النبي ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»⁽¹⁾.

ومن أبيات الحكمة كذلك قولُ الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالتَّاسِ

قيل: هذا أصدق بيت قالته العرب،⁽²⁾ فيه حثٌّ على فعل الخير وبذل الندى، وبشارةٌ بأن المعروف لا يذهب سدى، وإنما هو قرصٌ تُقرضه فعائدٌ إليك في الدنيا والآخرة.

وقريب منه قولُ عبيد بن الأبرص:

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الرَّمَانُ بِهِ

وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ فِي زَادٍ

(1) - متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم: 3842، ومسلم، كتاب الشعر رقم: 2256.

(2) - العسكري، جمهرة الأمثال، 381/2.

ومنها قول عبد الله بن معاوية:

فَعَيْنُ الرَّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا

يشير هذا البيت إلى أن من رضي عن شيء أو أحبه فإنه يراه حسناً وجميلاً، والعكس كذلك.

فهو كما قال النبي ﷺ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ».(1)

ومن الحكمة كذلك قول الأفوه الأودي في نصحه بوعظ النفس وتأديبها قبل غيرها: (2)

لَا تَنَّهُ عَنِ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ
عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ عَيْبِهَا
فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهَنَّاكَ تُعْذِرُ إِنْ وَعْظْتَ وَيُقْتَدَى
بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيمُ

(1) - رواه أبو داود في السنن وأحمد في المسند.

(2) - الجاحظ، البيان والتبيين، 1/173.

فبداية الإصلاح والوعظ من النفس، فإن صلحت وكفّت أذاها عن غيرها، فصاحبها حكيم، وأنّ ذلك يصحّ منه التلقين ونصح غيره بالكفّ عن سُبُل الضلالة.

وقريب من هذا المعنى قول محمود الوراق: (1)

رَأَيْتُ صَلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ
وَيُعَدِّيهِمْ دَاءَ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ

فالحكمة التي في هذه الأبيات لو تُؤمّلت لعلم منها أن التصح إنّما يبدأ بالنفس ثم الأقرب إليها وهكذا.

ولم تكن الحكمة يوما عند العرب قاصرةً على الرجال، بل قد كان للنساء نصيبٌ وافرٌ منها، فكانت أفعالٌ وأقوالٌ بعضهنّ أرجح وأثقل من أقوالٍ وآراءٍ ثلّةٍ من الرجال، ويكفيهنّ فخرا أن نارَ حربٍ داحس والغبراء التي أعيت الرجال أربعين عامًا أخذت بسبب جارية صغيرة. (2)

(1) - الرّاعب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، 1/168.

(2) - اللامي، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب، ص 42.

ومن حكيّات العرب هندُ الزّرقاءُ، وجمعةُ ابنتا الحُسّ الإيادي،
وكانتا صاحبتيّ حكمةٍ وفصاحةٍ وبيانٍ وعدوبةٍ منطقيّ، مذكورتين في
أشعار العرب.

ومن حكيّاتهم كذلك صُحرُ بنتُ لقمان، وهي من المشهورات
بالعقل والكمال والفصاحة، وكان العرب يتحاكمون إليها في ما ينوبهم
من مشاجرات،⁽¹⁾ وغيرهن كثير.

ومما سرى من حكم العرب مجرى الأمثال قول عامر بن الظرب
العدواني: "دعوا الرأى يغبّ حتى يخبتر، وإياكم والرأى الفطير"،
يريد الأناة في الرأى والتثبت فيه.

ومن أقوالهم في الحكمة المشهورة خطبةُ الرياحي في بنيه وهو في
المربد؛ قال: "يا بني رياح، لا تحقروا صغيرا تأخذون عنه، فإني أخذت
من الشعلب روغانه،⁽²⁾ ومن القرد حكايته، ومن السنور صرعه،⁽³⁾
ومن الكلب نصرته، ومن ابن آوى حدّره؛ ولقد تعلمت من القمر
سَيْرَ الليل، ومن الشمس ظهورَ الحين بعد الحين".⁽⁴⁾

(1) -انظر: الألويسي، بلوغ الأرب، 1/311.

(2) - الروغان: المكر والاحتتيال.

(3) -الضرع: الذلة والخضوع.

(4) -انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 2/120.

فالحكيم من سعى ليتعلم من كل شيء، من كل جامد ومتحرك، ولا يُنال هذا الخلق إلا بالتواضع؛ ومن اكتسبه وأخذ به تراه يتعلم من الأشجار صمودها وثباتها، ومن الثعالب حرصها وذكائها، ومن العلماء علمهم وحلمهم، وهذا مسعى كل لبيب.

4. الكرم

أما الكرم فقد ضرب العرب فيه أطنا بهم، حتى لم يجد حذوهم فيه من عداهم؛ ولم ينحصر ذلك في بذل المال، وإنما تعددت عندهم صورته، ومن أشهرها إطعام الطعام، حتى كانوا يتسمون بالمطعم.

وكانت بعض القبائل تعد بعض أشرافها فتسميهم بمطعمي كذا، ومن ذلك: مطعمو قريش، ومنهم هاشم بن عبد مناف، أول من هشم الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر:

عَمَرُوا الْعُلَا هَشَمَ الثَّرِيدِ لِقَوْمِهِ

وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافٌ

والثريد من أشهر وأفخر مطعومات العرب قديما، والتي كانت تقدم لأضيافهم؛ فلذلك ترد في أشعارهم، كما هو الحال في البيت السابق.

ومن مطعمي قريش عبدُ الله بن جُدعان الذي اشتهر بجوده
وكرمه، فقد كان يجود ويَقْرِي أهلَ مكة ومن يأتي إليها، وله جفنة
كبيرة يأكل منها النَّاسُ، ويصنع لهم "الفالوذج"، ولم يكن معروفًا
قبله بمكة، أكله بالعراق فأعجبه، فأتى بطبّاخ ليطبّخه لقومه ومن
يأتيهم، وكانت له جِفَانٌ يأكل منها القائمُ والرّاكبُ؛ ضُرِبَ بها المثل
في العِظَمِ.⁽¹⁾

ومما يدلُّنا على سخاء العرب أنه كانت لهم نار تسمى نار القِرَى،
وهي نار الضيافة توقد على الأماكن المرتفعة ليستدلَّ الأضيافُ بها
على المنزل، وربما أُوقِدَتْ بالمندلي الرطب، وهو عطر ينسب الى مندل،
وهي بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يُتَبَخَّرُ به ليهتدي به العُميان.

وكانت العرب وما زالت ترفع من قدر الكريم وتكبر من شأنه،
وكان الشعراء لا يفتنون عن مدح الكرماء والثناء عليهم، فكانوا
يقابلون كرم الكريم بأجود ما عندهم، فالكريم يُكْرَمُ فوق ما أكرم،
والشاعر يكرم بأجود قوافيه وأحسنها.⁽²⁾

(1) -العلي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 170/8.

(2) - قال أبو عبيدة: "اجواد العرب ثلاثة: كعب بن أمّامة، وحاتم طي، وهرم بن سنان صاحب زهير"، انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 235/1.

وَمِنْ أَشْهَرِ أَجْوَادِهِمْ، أَبُو عَدِيٍّ حَاتِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْحَشْرَجِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَزْمِ الطَّائِيِّ، الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْمَثَلُ فِي هَذَا الْبَابِ فَقِيلَ: "أَجُودٌ مِنْ حَاتِمٍ".

يَكُنَى أَبَا عَدِيٍّ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، وَشَاعِرًا يَسَابِقُ شِعْرُهُ جُودَهُ، وَكَانَ مِنَ الْبَلَاغَةِ بِمَكَانٍ، ذَا قِصَائِدٍ مَشْهُورَةٍ.⁽¹⁾

وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ خَبْرِهِ أَنْ أَبَاهُ جَعَلَهُ فِي إِبِلٍ لَهُ وَهُوَ غَلَامٌ، فَمَرَّ بِهِ عَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ وَبَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ وَالنَّابِغَةُ الدَّبْيَانِيَّةُ، وَهُمْ يَرِيدُونَ التُّعْمَانَ، فَنَحَرَ لَهُمْ ثَلَاثَةً مِنْ إِبِلِهِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُمْ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ أَسْمَائِهِمْ، فَتَسَمَّوْا لَهُ، فَفَرَّقَ فِيهِمُ الْإِبِلَ كُلَّهَا، وَبَلَغَ أَبَاهُ مَا فَعَلَ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: "مَا فَعَلْتَ الْإِبِلَ؟"، فَقَالَ: "يَا أَبَاهُ، طَوَّقْتُكَ مَجْدَ الدَّهْرِ طَوَّقَ الْحَمَامَةِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا صَنَعَ"، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: "إِذَا لَا أَسَاكِنُكَ أَبَدًا وَلَا أُووِيكَ"، قَالَ حَاتِمٌ: "إِذَا لَا أَبَالِي"، فَاعْتَزَلَهُ.⁽²⁾

وَمَلَأَتْ أَخْبَارُ حَاتِمِ كِتَابِ مَنَاقِبِ الْعَرَبِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يُذَكَّرِ الْكِرْمُ وَأَهْلُهُ إِلَّا ذُكِرَ مَعَهُمْ، وَمِنْ عَجَائِبِ أَخْبَارِهِ وَعَظِيمِ كَرَمِهِ وَطُولِ يَدِهِ أَنْ أَحَدَ قِيَاصِرَةِ الرُّومِ بَلَغَتْهُ أَخْبَارُ حَاتِمٍ فَاسْتَعْرَبَ ذَلِكَ، وَكَانَ

(1) -انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 1/244.

(2) -ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/235.

قد بلغه أن لحاتم فرساً من كرام الخيل عزيزةً عنده، فأرسل إليه بعض حُجَّابه يطلب منه الفرسَ هديةً إليه وهو يريد أن يمتحن سماحته بذلك، فلما دخل الحاجب ديار طيء سأل عن أبيات حاتم، حتى دخل عليه، فاستقبله ورحّب به وهو لا يعلم أنه حاجب الملك، وكانت المواشي حينئذ في المراعي فلم يجد إليها سبيلاً لقرى ضيفه، فنحر الفرس وأضرم النار، ثم دخل إلى ضيفه يحادثه فأعلمه أنه رسول قيصر وقد حضر يستميحه الفرسَ فساء ذلك حاتماً وقال: "هلا أعلمتني قبل الآن فيأتي قد نحرثها لك إذ لم أجد جزوراً غيرها بين يدي!"

فعجب الرسول من سخائه وقال: "والله لقد رأينا منك أكثر مما سمعنا".⁽¹⁾

5. الغيرة

معناها كما يقول الراغب الاصبهاني: "ثورانُ الغضبِ حمائيةً على إكرام الحُرْم"،⁽²⁾ وهي من أنفس الأخلاق وأرفعها؛ إذ هي سنام الشرف، ودرع السؤدد الحصين، هي سلاح النقاء والعفة، وما من أمةٍ إلا

(1) - لويس شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب، 1/134.

(2) - الراغب، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980، ص 238.

وتخالج أنفاسها الغيرة، فيغارون على حرمهم ولا يحبون أن يشاركهم فيها أحد، وهذا لا يعني أن غيرة الأمم متساوية، وإنما أن الغيرة موجودة في الأمم بتفاوت نسبيها وتنوع ما تغار عليه.

وأشد ما تغار العرب على الأسر والأوطان والجوار، يجعلون غيرتهم على هذه الثلاث ذروة شرفهم وعنوان عرضهم، فيبدلون في حمايتهما الأرواح والمهج!

• الغيرة على الأسرة:

هي عند العرب مسألة شرف لا تقبل التنازل، فقد بلغت غيرتهم على نسائهم وأهلهم مبلغًا عظيمًا.

بيد أنه لم تكن غيرة العربي على أهله غريزة منفصلة عن العقل، بل كانت مقيّدةً برجاحة عقل واستنارة فكر، مع النظر في مآلات الأمور وعواقبها.

ومن أجود أشعارهم في ذلك قول الشاعر: (1)

(1) -الدّينوري، عيون الأخبار، دار الكتاب المصري، 1925، ص 79.

مَا أَحْسَنَ الْغَيْرَةَ فِي حِينِهَا وَأَقْبَحَ الْغَيْرَةَ فِي غَيْرِ حِينِ
 مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتِّمًّا عِرْسَهُ مُتَّبِعًا فِيهَا لِقَوْلِ الظُّنُونِ
 يُوْشِكُ أَنْ يُغْرِبَهَا بِالذِّي يَخَافُ أَنْ يُبْرِزَهَا لِلْعُيُونِ
 حَسْبُكَ مِنْ تَخْصِينِهَا وَضَعُهَا مِنْكَ إِلَى عَرِضِ صَحِيحِ وَدِينِ
 لَا يُطْلَعَنَّ مِنْكَ فِي رِيَّةٍ فَيَتَّبَعَ الْمَقْرُونُ حَبْلَ الْقَرِينِ

• الغيرة على الأوطان.

الوطن هو السكن، هو الملاذ الأمان، وهو الأم الحنون؛ فلذلك كانت العرب تغار عليه أشد ما تكون الغيرة، ويقدمونه على غيره من الديار وإن كانت عيشتهم فيه تعيسة وصعبة؛ يقول شاعرهم:

بلادي وإن جارت عني عزيزة وأهلي وإن ضنوا عني كرام

ويقول ابن الرومي: (1)

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلَّا أُبِيعَهُ
 وَأَلَّا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكًا

(1) -المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق فاروق السليم، دار صادر، بيروت، ط. 1، 2005، ص 184.

عَهَدْتُ بِهِ شَرَّ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً
 كَنَعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا
 وَقَدْ أَلْفَتَهُ النَّفْسُ حَتَّى كَأَنَّهُ
 لَهَا جَسَدٌ إِنْ غَابَ غُودِرَتْ هَالِكَا
 وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ
 مَا رَبُّ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
 إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ
 عُهُودُ الصَّبَا فِيهَا فَحَنُّوا لِذَالِكَا

ومما يذكر في تاريخ العرب من غيرتهم على وطنهم، ما روي من رد النُّعْمَان بن المنذر على ملك كسرى في القصة المشهورة التي سبق إيرادها، بعد أن استقلَّ كسرى فارس العربَ أمام الأمم الأخرى، فجاءه الردُّ المُفجِحُ الذي يُثبِتُ نبوغَ وشرفَ وقوَّةِ العربِ على غيرهم.

• الغيرة على الجوار:

ومن غيرة العرب أنه إذا دخل شخص دار أحدهم والتجأ إلى فِئائه عَدُوًّا فعليه حرمة وجوارًا وذمارةً، بل قالوا: "تعلَّقُ الدَّلُو بالدَّلُو القريبة أو تَلَامُسُ الطَّنْبِ بِالطَّنْبِ يوجب حُرمة وجوارًا"، بل كانوا

يراعون ذلك في الوحشيات والهوامّ، حتى سمي بعضهم: مجيرَ الجراد،⁽¹⁾
ومجيرَ الغزال، ومجيرَ الذئب.⁽²⁾

وقد كثر ما للعرب في الغيرة من الأمثال والحكم والخطب
والأشعار، التي سارت بها الركبان ودوّنتها الدواوين، فمن ذلك:

قولهم في المثل: مَا فَجَرَ غَيُورٌ قَطُّ، أي أن الغيور هو الذي يغار
على كل أنثى،⁽³⁾ وهذا من

وقولهم: كل أُمَّةٌ وُضِعَتِ الْغَيْرَةُ فِي رَجَالِهَا، وُضِعَتِ الصِّيَانَةُ فِي
نِسَائِهَا،⁽⁴⁾ وهو يستعمل في كل ما يستحق صيانته والغيرة عليه، وهو
الأعراض والأنساب.

ومن أشهر الأشعار التي أشارت إلى عِظَمِ غيرة العربيّ، قول
عنتره العبسيّ:⁽⁵⁾

(1) - انظر: ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، 4/567.

(2) - الرّاغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مصدر سابق، ص 239.

(3) - أبو عبيد، القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، ص 110.

(4) - الرّاغب، الذريعة، ص 244.

(5) - الشّريشي، شرح مقامات الحريري، 2/92.

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارِي
حَتَّى يُوَارِي جَارِي مَا وَاهَا
إِنِّي أَمْرُؤُ سَمِحُ الْخَلِيقَةِ مَا جِدُّ
لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

وقول عروة بن الورد:

وَإِنْ جَارِي أَلْوَتْ رِيَا حُ بَيْتِهَا
تَعَاْفَلْتُ حَتَّى يَسْتُرَ الْبَيْتَ جَانِبُهُ

وقول المتنبي في الغيرة: (1)

يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ نُفُوسُنَا
وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُوقُ

فالغيرة أعظم شيم العرب؛ لأجلها جعلوا الأرواح فداءً للأعراض

والحرم!

(1) - ابن منقذ، المبدع في نقد الشعر، ص 267.

6. الإنصاف

وهو من القيم التَّيْبِلَّة التي سمت بها نفوس العرب، فكانوا لا يتوانون في إنصاف أعدائهم ناهيك عن غيرهم.

وقد عُرفوا بتحاكم بعضهم إلى بعض أثناء نشوب أيِّ شجار أو خلاف بينهم، وكانوا يقبلون بقضاء من اختاروه حكماً، وممن كانوا يحكِّمون أكثم بن صيفي بن رياح، وحاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، وعامر بن الظراب العدواني، وهو الذي خطب في قومه قائلاً: "افهموا ما أقول لكم، إنه من جمع بين الحقِّ والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به، وإن الحقَّ لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق..."⁽¹⁾

وقد خصَّص العربُ بعضاً من قصائدهم لإنصاف أعدائهم، حفظتها دواوينُ أشعارهم، منها قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني: ⁽²⁾

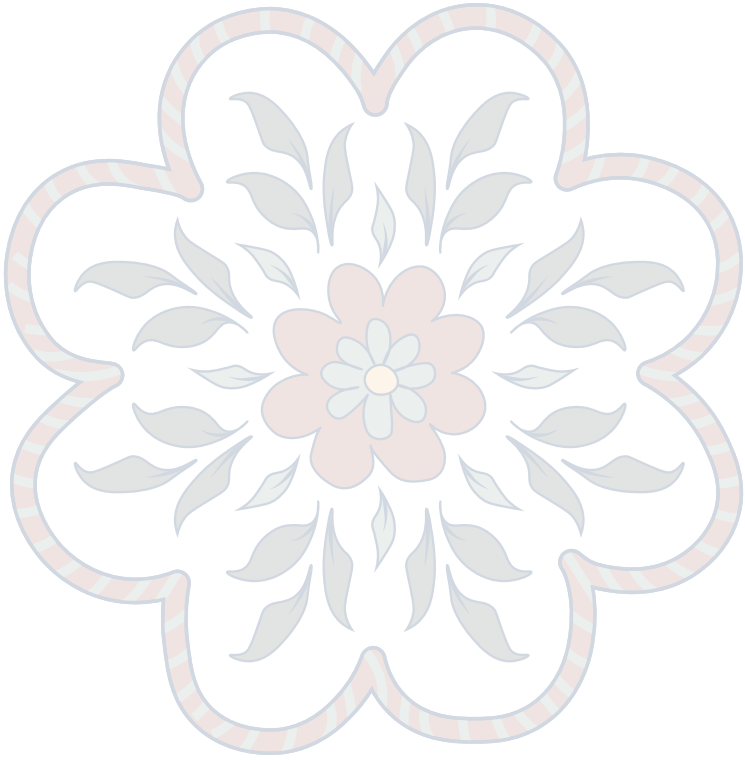
(1) -الألوسي، بلوغ الأرب، 1/ 286 - 292.

(2) -ابن طباطبا، عيار الشعر، 103.

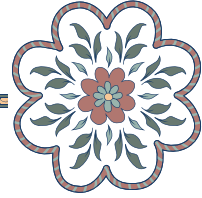
شَدَدْنَا شَدَّةً فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ
ثَلَاثَةَ فِتْيَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا
وَشَدُّوا شَدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا
بِأَرْجُلٍ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُؤَيْنَا
وَكَانَ أَخِي جُؤَيْنٌ ذَا حِفَاظٍ
وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنَا
فَأَبَوْا بِالرَّمَاكِ مَكْسِرَاتٍ
وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدْ انْحَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاكُ
وَلَوْ حَقَّتْ لَنَا الْكَلْمَى سَرِينَا

فأنصف أعداءه وبين قوتهم، وأنهم نالوا منهم ما نالوه منهم.
وهذا الخلق يُعدّ من أنبل الأخلاق لكونه جمع بين الحكمة
والشجاعة والوفاء والعدل.

نبذة عن مكة قبل الإسلام



نبذة عن تاريخ مكة



ذكر الله سبحانه وتعالى البلد الحرام في القرآن الكريم بلفظين: "بكة" و "مكة"؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بَبْطِنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الفتح: 24)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 96).

ولفظ مكة مأخوذ من قولهم: تمككت المتخ من العظم: إذا استخرجته منه؛ لأنها تمكُّ الفاجر عنها، أي: تُخرجه منها.

أما تسميتها بكة -على ما قال بعض اللغويين- فلأنَّ النَّاس فيها يبكُّ بعضهم بعضًا، أي: يدفع بعضهم بعضًا.

واختلف النَّاس في هذين الاسمين، فقال قوم: هما لغتان والمسمى بهما واحدا؛⁽¹⁾ لأن العرب تبدل الميم بالباء فتقول: ضربة لازم وضربة لازب؛ لقرب المخرجين.⁽²⁾

وقال آخرون: بل هما اسمان، والمسمى بهما شيئان؛ لأن اختلاف الاسماء موضوع لاختلاف المسمّى، ومن قال بهذا اختلف في المسمّى بهما على قولين:

أحدهما: إن مكة اسمُ البلد كله، وبكة اسمُ البيت.

والثاني: إن مكة الحرمُ كلّه وبكة المسجد.⁽³⁾

ويذكر أهل السّير أن إبراهيم عليه السلام لما حمل ابنه إسماعيل

(1) -تعددت لهجات العرب قديما وما يزال قسم كبير منها يستعمل إلى يومنا هذا، ومنها: العننة وهي قلب الهمزة في بعض الكلام عينا، كقولهم "أخبرني محمد عن زيدا قال" يريدون أن زيدا قال، ويقولون "عنك" ويريدون "إنك"، والكشكشة وهي ابدال كاف المخاطبة بالشين أو اضافة الشين بعد كاف المخاطبة، كقولهم ""مررت بش اليوم" يريدون "مررت بك اليوم"؛ ومنهم من يضيف الشين بعد كاف المخاطبة كقولهم "عليكش" ويريدون "عليك"؛ وهذه من اللهجات الحية إلى يومنا هذا وخاصة الصورة الأولى، ومنها: الكسكسة وهي قريبة من الكشكشة ولكن تبدل الكاف سينا، وهي من اللهجات الحية في الجزيرة العربية، كقولهم "مررت بس" يريدون "مررت بك"، "أسلم عليتس" يريدون "أسلم عليك"، والشئشنة أن يقبلون الكاف شيئا، فيقولون "لبيش اللهم لبيش" بدلا من "لبيك اللهم لبيك" العجعة وهي ابدال الياء جيما كقولهم "أبو عالج" يريدون "أبو علي"؛ وهناك من يقبلها فيبدل الجيم بدل الياء، وهي من اللهجات المنتشرة وخاصة في دولة الإمارات في الوقت المعاصر كقولنا "اليمعة" بدلا من "الجمعة"، وقرأ ابن المحيصن (إحدى القراءات الشاذة) قوله تعالى: (ولا تقربا هذه الشيرة)، ومنهم من يضيف هاء السكت في كلامه كقوله تعالى: (سلطانية) (مالية) (حسابية) (كتابية) وهذه اللهجة حية في بعض دول الخليج وخصوصا دولة الإمارات العربية المتحدة.

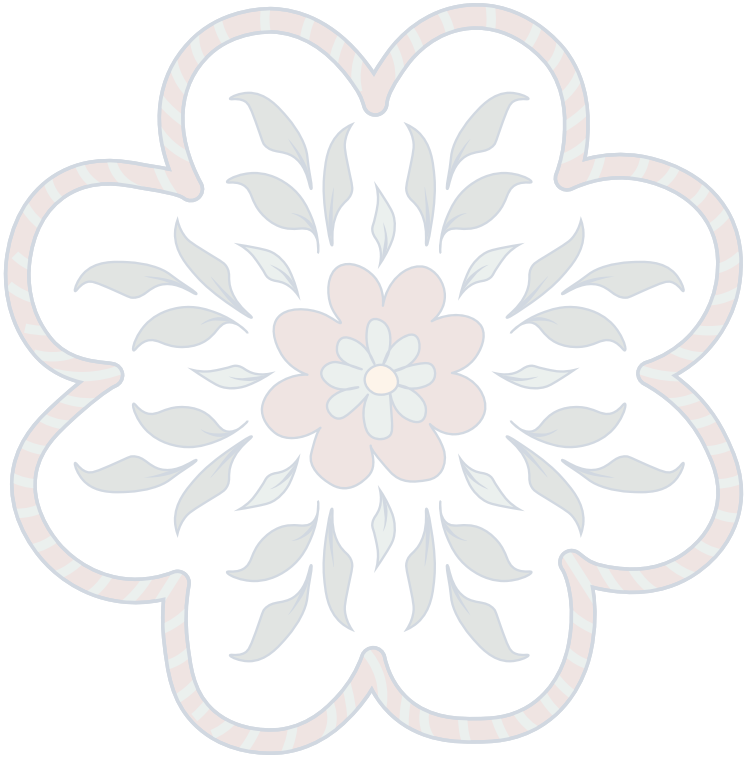
(2) - الماوردى، أعلام النبوة، دار الكتب العلميّة، ط. 1، 1968، 1/191.

(3) - العامري، يحيى بن أبي بكر الحرصي، بهجة المحافل وبغية الأماثل، 1/ 18.

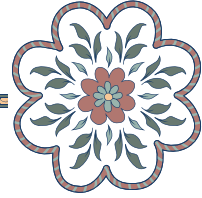
إلى مكة جاءت جُرهُم وقطوراء - وهما قبيلتان من اليمن - وهم أبناء عم، فأرؤا بلدًا ذا ماء وشجر فنزلوا، وتزوّج إسماعيل عليه السلام من جرهم، فلما توفي إسماعيل ولي البيت ابنه نابتٌ، ثمّ ولي بعد نابت مضا بن عمرو الجرهمي، خالٌ ولد إسماعيل عليه السلام، ثم إن جرهما بغوا في مكة فاستحلّوا المحرّمات وأباحوا المنكرات وظلموا مَنْ كان داخلها، وأكلوا مال الكعبة، فاحتربوا مع خزاعة فغلبتهم وتولّت خزاعة البيت الحرام ثلاثمائة سنة، يتوراثن ذلك كإبرا عن كإبرا.

وقريش ذلك الوقت بيوتاتٌ متفرّقة، بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم، حتى تزوّج قصيّ بن كلاب من خزاعة، فصار المُلْك له في البيت، فكانَ أوّل من أصاب المُلْك من قريش بعد ولد إسماعيل.





بناء الكعبة شرفها الله



إن أول من بناها بعد الطوفان إبراهيم عليه السلام؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة، 127).

وكان أول من جدّد بناءها من قريش بعد إبراهيم عليه السلام قصي بن كلاب، وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل، ثم بنتها قريش بعده قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

أما أول من كساها فتعددت فيه الآراء،⁽¹⁾ وأشهرها أنه تُبّع أسعد اليماني الحميري؛⁽²⁾ وقد روي عنه قوله في ذلك:⁽³⁾

(1) - انظر: ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبور الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهرى وإيمن نصر الأزهرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 2004، ص 120.

(2) - ابن الضياء، تاريخ مكة، 117/1، وانظر: الأزرقى، أخبار مكة، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسد، ط. 1، 2004، ص 208، وابن منبه، وهب، التيجان في ملوك حمير، مركز الدراسات والأبحاث اليمينية، ط. 1، 1347هـ، ص 305-308.

(3) - انظر: ابن إسحاق، السيرة، تحقيق أحمد فريد اليزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2004، 105/1-106.

وَكَسَوْنَا الْبَيْتَ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ
مِائَةً مِائَةً مِائَةً مِائَةً
وَأَقَمْنَا بِهِ مِنَ الشَّهْرِ عَشْرًا
وَجَعَلْنَا لِبَابِهِ إِقْلِيدًا
وَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَوْمًا سُهَيْلًا
فَدَرَفَعْنَا لِقَاءَنَا مَعْقُودًا

ثم تتالت الكسوات عليها حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم. وقد شرفها الله وقَدَّسها ورفع مكانتها، فسامها "البلد الأمين"؛ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: 125)

وألم إبراهيم عليه السلام أن يدعو لها فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم 37)

ولما خرج رسول الله ﷺ منها قال: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ أَحَبُّ الْبِلَادِ

إِلَيَّ وَأَنَّكَ أَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ».(1)

ومما زاد من فضلها فضلُ أهلها؛ لأنَّهم كانوا حنفاءً متألِّفين، متمسِّكين بكثير من شريعة إبراهيم عليه السلام.

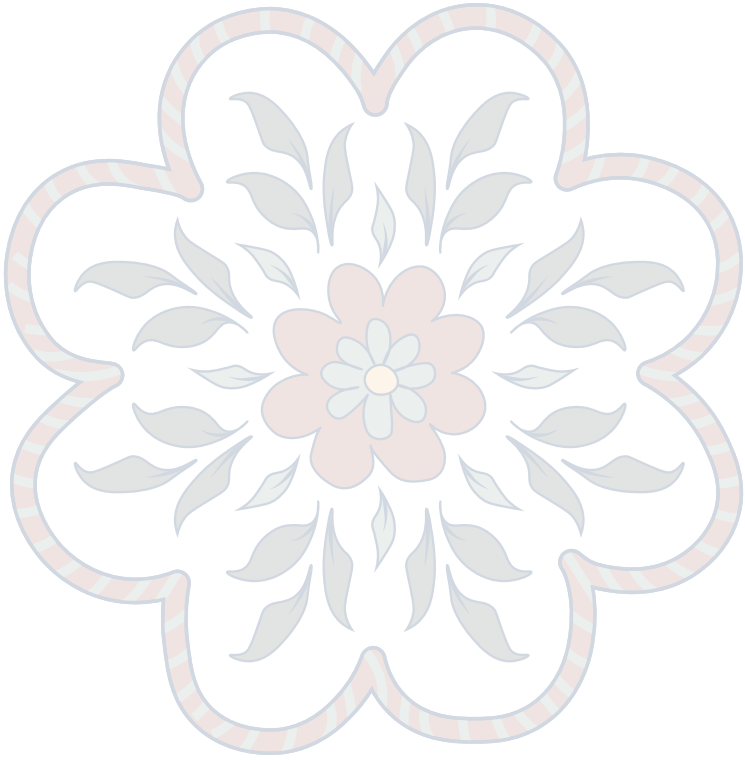
كانوا يحبُّون أبناءهم، ويحجُّون البيت، ويقىمون المناسك، ويكفِّنون موتاهم، ويغتسلون من الجنابة، ويتباعدون في الزواج من البنت وبنت البنت والأخت، وبنت الأخت وبنت الأخت وغيرها، ونزل القرآن بتأكيد صنيعهم وحسن اختيارهم، وكانوا يزوجون بالصداق ويطلقون.

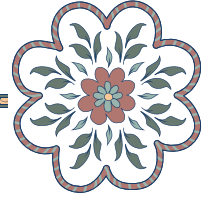
ومما زاد من شرفهم أنهم كانوا يتزوجون من أي قبيلة شاءوا، لا شرط عليهم في ذلك، ولا يزوجون أحدًا حتى يشترطوا عليه أن يكون متحمسًا، على دينهم.(2)



(1) انظر: الأزرقى، أخبار مكة، ص 155.

(2) أي: متشدداً، من الحمس، جمع أحمس، وقد وصف القرشيون بالمتحمسين لأنهم تحمَّسوا في دينهم، أي تشدَّدوا، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي الأثيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط. 1، 1421هـ، مادة: حمس.





حلف الفضول :

من عظيم مناقب مكّة وأهلها أن عُقِدَ فيها حِلْفٌ قال عنه رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ».(1)

كان هذا الحلف في ذي القعدة، قبل مبعث النبي ﷺ بعشرين سنة، وكان أكرم حلفٍ سُمِعَ به وأشرفه في العرب.

وسبب هذا الحلف أن رجلاً من أهل اليمن قدم مكّة ببضاعة، فاشتراها منها العاصي بن وائل السهمي، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه اليمني أحلاف مكّة، فأبوا أن يُعينوه؛ لمكان العاصي وشرفه في قومه، فصعد اليمني جبل أبي قبيس يوماً عند شروق الشمس وقريش في أنديتها حول الكعبة فقال بأعلى صوته متظلمًا شاكيًا جور العاصي:

(1) -رواه البيهقي في سننه.

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتَهُ
بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالتَّقْرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ
يَا لِلرَّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ مَكَارِمُهُ
وَلَا حَرَامَ لِثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغُدَرِ

فتداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدعان؛ لشرفه وسنِّه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرد عليه مظلمته، فسَمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.⁽¹⁾

ثم مشوا إلى العاصي بن وائلٍ فانترعوا منه سلعة اليمنيّ فردّوها إليه.⁽²⁾

وقد أجاز النبي ﷺ هذا الحلف وأثنى عليه كما تقدّم.

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 1/134.

(2) - انظر: الصّالحي، سبيل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، تحقيق مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جمهورية مصر العربية، د ط ، 1997، 2/208-209.

فلذلك عملت دولة الإمارات العربيّة المتحدة على إحياء هذا الحلف؛ سعيًا منها إلى رَأب الصّدع بين أصحاب الديانات المختلفة والأعراق المتنوّعة، فأصدرت ميثاق حلف الفضول الجديد الذي يهدف إلى ضمان السّلم العالميّ، ويتوسّل إلى استدامته بتحقيق عدّة أهداف:

بناء حلفٍ من رجال الدّين في العائلة الإبراهيميّة خاصّةً وفي الأديان العالميّة عامّة لدعوة المؤمنين إلى الدّخول في السّلام، وحماية الدّين من التّوظيف السّلبّي لمفاهيمه في إثارة التّزعات وتأجيج نار الحروب .

ولا يتأتّى ذلك إلّا بالبحث عن آليّاتٍ عمليّةٍ تساعد في بناء هذا الحلف، عبر مقارنةٍ تصالحيّةٍ تضمن للقادة الدّينيين نشر روح الأخوّة بين أتباعهم جميعًا، وتجاوز العداوات ومشاعر الكراهيّة. تزكية العقود المجتمعيّة التي تلتئم فيها المجتمعات، فتنجّب بذلك الالتئام أسباب الوقوع في الحروب وإثارة الفتن.

تأصيل المواطنة الإيجابيّة القائمة على مبادئ المساواة والحرية والاحترام المتبادل، اعتمادًا على تجارب تاريخيّة للرموز الدّينيّة المقتدى

بها لدى أهل كل الأديان، كوثيقة المدينة المنورة بالنسبة إلى المسلمين. تحقيق المصالحة بين الهويتين الدينيّة والوطنية، باعتبار تكاملهما بالنظر إلى أثر الدين في الحفز على تفعيل قيمة المواطنة، والمحافظة عليها.

ربط القيم المتفرّعة عن المواطنة كالحريّة والمساواة بالسلم الاجتماعيّ والمحافظة على النظام العامّ، حتى لا يعود التّفعل المتسبب لها على أصل المواطنة بالإبطال.

احترام جميع المقدّسات، منعاً من ازدراء الأديان ورموزها ومبادئها وتعاليمها؛ قطعاً لأسباب زعزعة الاستقرار، وحفظاً للسلم المجتمعيّ من الانحرام.

منع اضطهاد الأقليّات الدينيّة أو العرقيّة أو الثقافيّة باسم الدين. تزكية المعاهدات الدوليّة الرامية إلى إحلال السلام وتعزيزه.

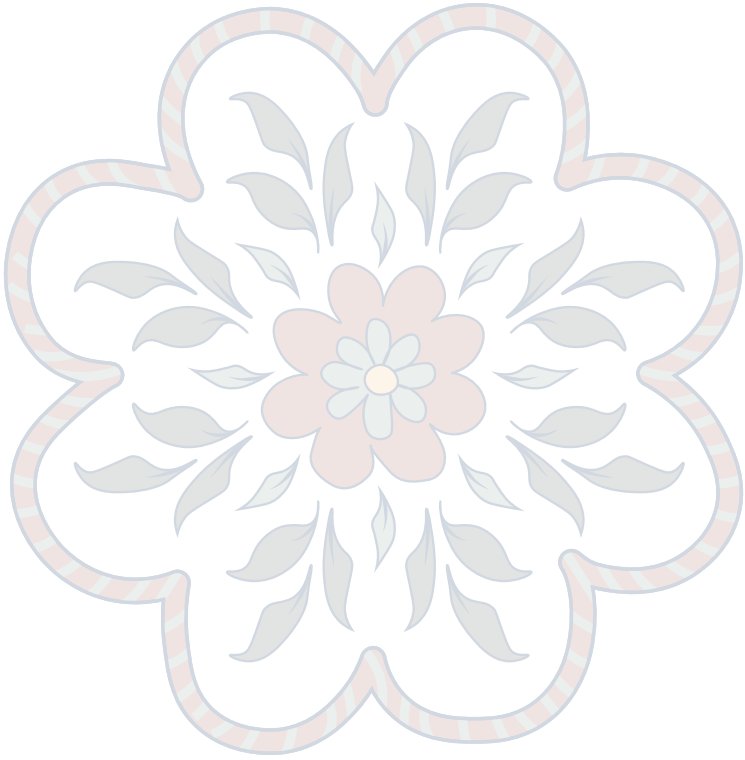
إحياء قيم الفضيلة وتعريفها والدعوة إليها، وتفعيلها بالتربية على الأخلاق الكريمة التي تتجاوز الحدّ الأدنى المصطلح عليه بحقوق الإنسان، وتسمو إلى مستوى بناء مفهوم جديد للإنسانيّة، ينبني على

معاني المحبة والرحمة، وعلى قيم الصّيافة والإيثار والتّضامن والعطاء
وبذل الخير لكلّ النَّاس، مهما اختلفت أديانهم وتنوّعت أعراقهم
وتباينت ثقافتهم.

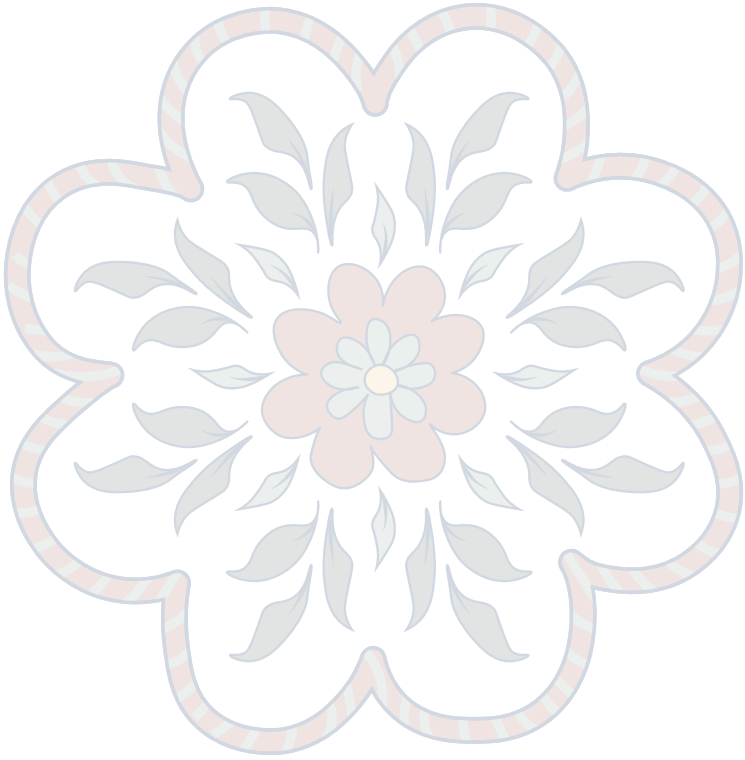
لقد كانت مبادرة حلف الفضول الجديد بحقّ خير برهان على
أنّ إحياء القيم المشتركة والتّحالف عليها والتّعاهد على تفعيلها
سبيلٌ العالم إلى الخلاص من مشكلاته الكبرى، وأنّ للأديان مسؤوليّةً
جسيمةً في ذلك.⁽¹⁾



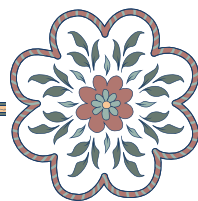
(1) - العلامة ابن بيّه، حلف الفضول الجديد فرصة للسلام العالمي، منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة،
أبوظبي، 2018، ص 70-78.



السيرة النبوية:
مفهومها، أهميتها، مصادرها



مفهوم السيرة النبوية وأهميتها.



السيرة لغةً.

هي اسم هيئة من سار يسير سيرًا، ومعناها: الطريقة والسنة والحالة التي يكون عليها الإنسان مطلقًا؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿سُنِعِيدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه: 21)، أي: هيئتها وحالتها.

وقول خالد بن زهير:

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةِ أَنْتَ
سِرَّتَهَا فَاوَّلَ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

وقد تطلق على أخبار الأوائل وأحوالهم؛ لأنها تسير وتجري بين الناس، فتشمل أخلاقهم الغريزية وآدابهم المكتسبة، كما تعم سائر أمور حياتهم؛ قال الراغب الاصبهاني: "والسيرة: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزيًا كان أو مكتسبًا، فيقال: فلان له سيرة حسنة، وسيرة قبيحة." (1)

(1) - الراغب، المفردات، مادة سير.

السيرة اصطلاحاً.

لم يُعَنَّ المتقدّمون بتعريف "السيرة النبوية" لكون مفهومها واضحاً عندهم، فاصطلحوا عليها بألفاظٍ متعدّدة، وإن كانوا يرونها متداخلةً مع علوم متنوّعة.

ويمكن أن نرصد لهم طرائق ثلاثاً لتعاملهم معها حال التصنيف:

- طريقة التعميم بسرد وقائع حياة النبي ﷺ التي حدثت في حِقبة صدر الإسلام، بدءاً بما قبل البعثة واستمراراً إلى ما بعدها من عهد الخلفاء الراشدين.

وممن سلك هذا المسلك سليمان بن موسى الكلاعيّ ت: 565هـ في كتابه "الاصبهاني"؛ قال: "هذا كتابٌ ذهبْتُ فيه إلى إيقاع الإقناع، وإمتاع النفوس والأسماع، بذكر نسبه، ومولده، وصفته، ومبعثه، وكثير من خصائصه، وأعلام نبوّته، ومغازيه، وأيامه، من لدن مولده إلى أن استأثر الله به، وقبض روحه الطيّبة، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه...".⁽¹⁾

(1) - الكلاعيّ، الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، عالم الكتب، بيروت، ط. 1، 1997م، 1/ 6.

وبناءً على ملاحظة هذه الطريقة عرّف أبو عليّ الحسن اليوسّي
ت: 1102 هـ السيرة النبويّة بقوله: "هو العلمُ الباحث عن أحوال النَّبيِّ
ﷺ من أوّل مبعثه إلى أن توقّاه الله تعالى".⁽¹⁾

ووصف هذه الطريقة وما درج عليه أصحابها من التّوسّع فيما
يوردون من أخبار عن حياة النَّبيِّ ﷺ فقال: "قد أدرجوا فيه أحواله
ﷺ من لدن وضعه، بل من لدن كان حملاً، ثمّ ترقّوا إلى ذكر والديه،
وأجداده، ثمّ إلى القبائل المتشعبة من ذلك، وذكر بلده، والبيت الحرام،
ومنّ بناه، ومنّ تولّاه قديماً، ومن زاره من الملوك، ومن احترامه، ونحو
ذلك، وقد يزيدون سيرة الخلفاء من بعده".⁽²⁾

● طريقة التّخصّص، والمراد بها ما سلكه بعض المصنّفين من التّفريق
بين مشمولات السيرة النبويّة، وإفراد بعض جوانبها بالتّصنيف
استقلالاً.

وهو مشتمل على فنون منها: فنّ أسمائه، وفنّ خصائصه، وفنّ
فضائله، وفنّ شمائله، وفنّ مغازيه، وفنّ مولده ومبعثه".⁽³⁾

(1) - اليوسّي، القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلّم، مطبعة شائلة، الرّباط، ط. 1، 1998م، ص 280-281.

(2) - السّابق.

(3) - حاجي خليفة، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفتون، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، دت، 1012/2.

ففي كل هذه الجوانب مصنفات مفردة، تتناول ما يتصل بها من الأخبار والحوادث.⁽¹⁾

• طريقة التّغليب، نعني بها ما عُني من المصنّفات بتدوين سيرة النبي ﷺ، وما يتعلّق بها من القضايا، مع تغليب إحدى تلك القضايا وجعلها عنواناً لتلك المصنّفات.

وتسمّى هذه الكتب "كتب المغازي"، ككتاب عروة ابن الزبير ت: 94هـ، الذي حدّث به أبو الأسود بمصر لما نزلها، ويُعدُّ أقدم ما صنّف في السيرة، وكتاب ابن شهاب الزهريّ ت: 124هـ، وكتاب موسى بن عقبة ت: 141هـ، وكتاب أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ت: 207هـ، وكتاب عبد الملك ابن حبيب ت: 238هـ.

ولا ينبغي أن يفهم من عناوين هذه المصنّفات أنّها مفردة بما يتّصل بالغزو والحرب، فكتاب الزهريّ مثلاً - كما يتّضح من نصوصه المحفوظة في مصنّف عبد الرزّاق وطبقات ابن سعد - تناول جوانب عديدة من حياة النبي ﷺ، رغم ما يُوهمه العنوان من الاختصاص بالحروب.

(1) - سيأتي فيما بعد تعريف بنماذج مما صنّف في السيرة تحت هذه العناوين.

فهي إذا مصتفاتٌ تشمل المبدأ والمبعثَ والمغازيَ جميعًا، بل تجاوزَ بعضها العهدَ النبويَّ إلى عهد الخلفاء وذكر فتوحات البلدان، كما صنع ابنُ عائذِ الدمشقيِّ ت: 233هـ الذي استطرد في ذكر الفتوحات حتى وفاة المأمون العباسي ت: 218هـ.

فيكون مصطلح المغازي أعمَّ من مصطلح السيرة.

ومما يؤكِّد سعةَ ما خاضت فيه كتبُ المغازي من أحداث التاريخ التي خرجت عن نطاق الغزو والحرب قولُ ابن هشامٍ مختصرِ سيرة ابن إسحاق: "وتاركٌ بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، ممَّا ليس للرَّسول ﷺ فيه ذكرٌ، ولا نزل فيه من القرآن شيءٌ، وليس سببًا لشيءٍ من هذا الكتاب، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه؛ لما ذكرتُ من الاختصار." (1)

على أنَّ المغازي في عناوين هذه الكتب ومضامينها لا تعني إلاَّ الحروب الدفاعية التي خاضها النبي ﷺ، لا لإكراه النَّاس على الدخول في الإسلام، وإنما حمايةً للبيضة، وذودًا عن الحمى والدَّمار.

هذا، وقد يُعطفُ على المغازي مصطلحُ آخرُ في عناوين بعض

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1990، ص

مصنّفات السيرة وهو مصطلح "السّير"، كما صنع محمّد ابن إسحاق ت: 151هـ إذ سمّي كتابه الشّهير "السّيرة والمغازي"، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاريّ ت: 186هـ، في كتابه "السّير"، الذي قال عنه الشّافعي: "لم يُصنّف في السّيرة أحدٌ مثله"،⁽¹⁾ وكما فعل ابن عبد البرّ ت: 463هـ لمّا سمّي كتابه "الدّرر في اختصار المغازي والسّير"، وابنُ سيد الناس ت: 734هـ أيضًا لمّا سمّي كتابه "عيون الأثر في فنون المغازي والسّير".

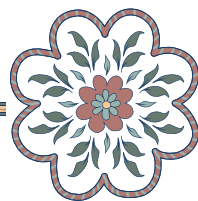
يتبيّن من هذا إذا أنّ مصطلحيّ "المغازي" و"السّير" في عناوين ما صنّف وفق طريقة التعميم محمولان على التّرادف، قبل أن ينحو المتأخرون نحو الاستغناء عن هذين المصطلحين بعنوان جامع لهما، هو "السّيرة النبويّة"، لاسيّما بعدما شاع كتاب ابن هشام الذي اختصر فيه سيرة ابن إسحاق ت 141هـ.⁽²⁾

ومنذئذٍ اشتهر هذا العلم بـ "السّيرة النبويّة"، حتى صار له علمًا بالغلبة.

(1) - الذّهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط و محمّد نعيم الحرقسوسي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط 2، 1982، 540/8، وموضوع كتاب الفزاري هذا هو الفقه المتعلق بالمغازي.

(2) - سيأتي ذكر نماذج من هذه الكتب التي تحمل عنوان "السيرة النبوية".

أهمية السيرة النبوية:



بدأ الاهتمام بالسيرة النبوية ودراستها وتدريسها منذ عهد الصحابة الكرام، فقد كانوا يعلمونها أبناءهم كما يعلمونهم السورة من القرآن،⁽¹⁾ عادين إياها من مآثر الآباء ومفاخر الأسلاف؛⁽²⁾ وعياً منهم بأهميتها في بيان حقيقة الدين وجماله وصفائه، كما تمثله الرسول القدوة محمد ﷺ، وفي تربية الناشئة وتوجيه الشباب وتحصينهم من مزالق الغلو والجفاء.

• ويمكن إجمال ما يُستفاد من دراسة السيرة وتعلمها في ما يأتي:

- معرفة شخصية النبي محمد ﷺ، من حيث نسبه ومولده ونشأته وأخلاقه ومعاملاته ومختلف تفاصيل حياته إلى ساعة وفاته، وهي تفاصيل من شأنها أن تورث النفوس محبته وإجلاله، وتعظيمه وتوقيره، مما يحملها على الاقتداء به والاهتداء بهداه؛ قال ابن حزم رحمه الله:

(1) - الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، مكتبة المعارف، الرياض، 1983م، 2/195.

(2) - السابق.

"فإن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله حقًا، فلو لم تكن له معجزةٌ غير سيرته ﷺ لكفى". (1)

- إدراك حقيقة الدين، من حيث انبناؤه على قيم الحق والخير والجمال، التي تجسدت في أخلاق النبي الخاتم محمد ﷺ، التي هي أكمل تمثيل للدين، وأقوم منهج لتطبيق شعائره وأحكامه.

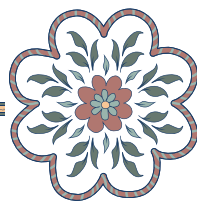
- تجويد فهم القرآن الكريم ومقاصده، فهي -أي: السيرة النبوية- تبين ظروف تنزل الآيات، وتوضح أسباب تشريع الأحكام، فهي بذلك خير عاصم من قواصم الخطأ في فهم الخطاب الشرعي وتنزيل ما يقتضيه من الأحكام.

- الاعتزاز بالانتماء للإسلام، دين القيم والأخلاق؛ إذ الواقف على شمائل المصطفى ﷺ -صدقًا في القول، ووفاء بالعهد، وإخلاصًا في التصح، ومحبةً للخلق..- يلحظ بجلاء عظمة الدين الذي تنبع هذه الشمائل والأخلاق من أنوار مشكاته.

وإذ تبين المراد بالسيرة النبوية، وأهميتها، وطرائق التصنيف فيها إجمالاً، فإنه مما تمس الحاجة إليه، ذكر المصادر التي تستمد منها مادتها.

(1) - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، 1348هـ، 2/73.

مصادر السيرة النبوية:



مصادر السيرة النبوية وفروعها: نماذج ومناهج.

للسيرة النبوية مصادرٌ عديدةٌ، تُمدُّنا بتفاصيل حياة النبي ﷺ،
نذكرها في ما يأتي:

• القرآن الكريم.

ارتبطت السيرة النبوية بالقرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا؛ نظرًا إلى
تعلقها بحياة النبي ﷺ الذي تنزل عليه، فكان أول مخاطبٍ به؛ قال
تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: 195)

فكانت حياته ﷺ تطبيقًا عمليًا لما أنزل عليه من ربه، التزامًا
بهداياته، وتخلقًا بما أرشد إليه من مكارم الأخلاق؛ ولذلك ربطت
السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بين خلقه ﷺ وبين القرآن

فقالت: "فإن خلق النبي ﷺ كان القرآن".⁽¹⁾

لقد واكبت هذه السيرة العطرة مسيرة تنزل الوحي طيلة ثلاث وعشرين سنة، من مبتدأ ذلك إلى أن لحق ﷺ بالرّفيق الأعلى.

ولذلك حملت سور كثيرة تفاصيل متعلّقة بجوانب حياته ﷺ، كالمزمل والمدثر والضحى والشرح والكوثر والعلق والهجرة والمسد وغيرها، لا سيّما ما كان من أوائل ما نزل من القرآن؛ إذ تحكي لنا قصصاً عديدة، تتضمّن توصيفات دقيقة لجوانب مهمّة من حياته ﷺ، في طفولته وشبابه وأحوال تنزل الوحي عليه.

ففي سورة الضحى قوله تعالى مصرّحاً بيّتمه وممتناً بعنايته تعالى به: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (الضحى: 6)، وفي سورة المزمل وصف ما اختلج في أعماق نفسه حين كان يرجف فؤاده خوفاً ممّا رأى يوم بدأ نزول الوحي عليه؛ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُزْمَلُ لَمَّا كَانَ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل: 1)، وفي سورة القيامة تشخيص لما كان يجده ﷺ من شدّة في تنزل الوحي عليه؛ إذ كان ﷺ يُكثر من تحريك لسانه به؛ رغبة في تسريع حفظه واستظهاره؛ قال تعالى: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: 746.

بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿
(القيامة: 16-19).

ثم واكب الوحي مسيرته في الدعوة مسجلاً مواقف من مختلف المراحل والأدوار التي مرت بها، حتى إنه قل أن تجد في القرآن مكيه ومدنيه سورة إلا ولبعض آياتها ارتباط بمرحلة أو بواقعة من سيرته

ﷺ

وللقرآن في تلك المواكبة وذلك الارتباط غايات أهمها:

● التثبيت والتأييد، بعثاً للعزيمة في نفس الرسول الكريم ﷺ، لا سيما في الأوقات التي يعرض لها فيه ما يثبط الهمة، ويوقع في اليأس، فتتنزل عليه الآيات مذكرةً بقصص إخوانه الأنبياء، وما لقوا من التكذيب والإيذاء، ومبشرةً إياه بمثل ما انتهت به تلك القصص من التصر والظفر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: 34).

● التسلية والموازرة؛ لما كان يجده في نفسه من الحسرة والأسى على من يؤثرون الهوى على ما جاءهم به من الهدى؛ كما في قوله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾
 (الكهف: 6) ، وقوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا
 مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 3) ، وقوله جلَّ علاه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
 حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: 8).

● الإرشاد والتسديد؛ توجيهاً إلى ما هو أقوم وأصوب من المواقف،
 كما في قوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
 (الأعراف: 199) ، وقوله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ
 وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَىٰ﴾ (عبس: 1-4).

كما تضمنت سوراً أخرى آياتٍ حفلت بمعاني ترتقي إلى مستوى
 المبادئ الخلقية التي ينبغي أن يلتزم بها أتباعه المؤمنون - كالرحمة
 والرافة والحياء-، منها:

● ما ورد مورد وصفه ﷺ والثناء عليه؛ ملاطفةً له وبراً به، كقوله
 تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 10) .

● ما ورد مورد خطاب أمته امتناناً عليها به، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ
 جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
 بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 128).

• ما ورد مورد التوجيه إلى حسن معاملته، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ (الأحزاب: 53)

وفي كل هذه المستويات الثلاثة إشارات إلى ما خصَّ به ﷺ من مكارم الأخلاق، التي جعلَ اللهُ التحقُّقَ بها، والافتداءَ به فيها منتهى غايات رسالته الخاتمة.

وإلى ذلك الإشارة بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)، وبقوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾.

إنَّ الصورة التي ترسمها هذه الآيات المتعلقة بالسيرة النبوية وأحداثها هي أصح وصفٍ لشخصية النبي ﷺ، وأصدق روايةٍ لشمائله وأخلاقه وخصائصه، وأوثق تقرير لما كان عليه في جميع أحواله.

ولما يميِّزُ به أسلوب القرآن من الوضوح والبيان، يشعُرُ المرءُ -وهو يطالعُ صفحات السيرة العطرة من منظور آياته- وكأنَّه يعيشُ

(1) - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، رقم: 207.

مع النَّبِيِّ ﷺ، ممتعاً ناظره القلبيِّ بمشاهدةِ محاسنِهِ خَلْقًا وَخُلُقًا، وواجداً في نفسه آثارَ ما يختلج في صدره الشَّريف من مشاعر التَّهيب والإجلال، أو الغِبْطَةِ والامتنان، ومستوعباً ما ترشَّدُ إليه آياتُ وصفِ المواقِفِ والأحداثِ من دروسٍ وعبرٍ.

فكان القرآنُ بذلكُ أصدقَ وأوثقَ وأهمَّ مصدرٍ لسيرةِ خيرِ الأنامِ، عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ.

• الحديثُ الشَّريفُ.

نشأت السَّيرَةُ في حِضْنِ علمِ الحديثِ؛ لذلك دأبَ أهلُ الاختصاصِ به على تضمينِ تعريفاتهم إيَّاهُ عباراتٍ تُشيرُ إلى ذلك، كقولهم: "ما أثر عن النَّبِيِّ ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفةٍ خَلْقِيَّةٍ أو خُلُقِيَّةٍ أو سيرةٍ"، وزاد بعضهم على هذا ما يؤكِّده فقال: "سواءً أكانت قبل البعثة أم بعدها".⁽¹⁾

وقد لوحظَ ذلك قديماً؛ قال الرَّامهرُ مُزَيِّت: 360هـ: "إن أصحابَ الحديثِ أثبتوا ما عَظَّمَ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ من شأنِ رسوله ﷺ، فنقلوا شرائعَهُ، ودوَّنوا مَشَاهِدَهُ، وصنَّفوا أعلامَهُ ودلائلَهُ، وحقَّقوا مناقِبَ

(1) - عتر، نور الدِّين، منهج النَّقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ط. 3، 1997، ص 28.

عترته، ومآثر آبائه وعشيرته... وعبروا عن جميع فعل النبي ﷺ في سفره وحضره، وطلعنه وإقامته، وسائر أحواله، من منامٍ ويقظة، وإشارةٍ وتصريحٍ، وصمتٍ ونطقٍ، ونهوضٍ وقعودٍ، ومأكَلٍ ومشربٍ، وملبسٍ ومركبٍ، وما كان سبيله في حال الرضا والسخط، والإنكار والقبول، حتى القلامة من ظفره ما كان يصنعُ بها.⁽¹⁾

فلا غرابة أن يكون المحدثون أوّل المعتنين بالسيرة النبوية.

ويلاحظ أنّ لتلك العناية مظاهر ثلاثة:

- تضمين أحاديث المصنّفات الحديثية العامة رواياتٍ متفرقةً وغير مرتبة، تضيء جوانب من سيرة النبي ﷺ، فيكون ذلك من باب السوق التبعية؛ إذ لا تكون في الغالب مقصودًا أوليًا من تخريج الحديث في بابٍ معيّن، كما خرج البخاري حديث عائشة في باب بدء الوحي.

- تخصيص بعض مشمولات السيرة وأحداثها بأبوابٍ ضمن تلك المصنّفات العامة، كما صنع الإمام البخاري في باب صفة النبي ﷺ من صحيحه، والإمام مسلم في فضائل النبي ﷺ من صحيحه كذلك.

(1) - الزمهرمزي، المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، دار الفكر، ط. 3، 1984، ص 159.

• إفراد جوانب من السيرة النبوية بتصانيف، ككتب: السير لأبي إسحاق الفزاري، وقد أفرده بالفقه المستنبط من المغازي، وكتاب السرايا والبعوث لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي ت 294هـ،⁽¹⁾ وكتاب الإكليل للحاكم النيسابوري ت 405هـ، صنّفه "في أيام النبي ﷺ وأزواجه وأحاديثه".⁽²⁾

ولا شك أنّ السّنة بغنى مادّتها واتّساعها وعمقها تُمدُّ من رامّ التّصنيف في السّيرة النبويّة بما يجليّ مختلف جوانبها ومراحلها، بدءاً بتاريخ البيئة التي ولد فيها النبيّ ﷺ، وانتهاءً إلى لحظة مماته ﷺ.

فهذه السّيرة المباركة تجلّيّ بطريقةٍ عمليّةٍ كيفيّة تطبيق تعاليم القرآن الكريم، على نحوٍ أقوى دلالةً ووضوحاً ممّا تبيّنه السنّة القوليّة؛ إذ لا يعترىها من احتمال المعاني المختلفة ما يعترى السنّة القوليّة.

كما أنّ في القرآن الكريم والسنّة القوليّة كثيراً من الخطابات الأمرة والنّاهية التي لا سبيل إلى فهمها ولا إلى امتثالها إلاّ بمعرفة السّيرة النبويّة، التي تُمدّنا مروياتها بمعرفة ملابسات الظروف والأحوال التي وردت فيها تلك الخطابات.

(1) - الذّهبي، سير أعلام النبلاء، 33/14.

(2) - السّابق، 167/17.

فلولا السنّة والسيرة لما أحسن فهم القرآن وأحكامه ومقاصده
أحد.

ولذلك أجمع علماء الحديث على أنّ السنّة الصحيحة ثاني مصادر
السيرة العطرة بعد القرآن؛ لما تفرّق من مروياتها في بطون الأبواب
والكتب التي جمعها فيها المحدثون، والتي لا يكتمل بناء صرحها
- أعني السيرة - إلا بتتبّعها وجمعها ونظمها وفق تسلسل حياة صاحبها
عليه الصلوة والسلام.

• كتب الشّمايل:

هي الكتب التي اختصت بذكر ما روي في أوصاف النبي ﷺ،
وأخلاقه الكريمة، وأدابه السنّية، وسلوكه، وهديه في سائر أحواله،
تيسيراً للاقتداء به، ومما ألف فيها:

صفة النبي ﷺ لوهب بن منبه ت 200هـ، وعُدّ أقدم ما صنّف
في ذلك.

- صفة النبي ﷺ، لأبي الحسن عليّ بن محمّد المدائنيّ ت: 225هـ.
- فضائل النبي ﷺ وأصحابه، لعبد الملك بن حبيب الأندلسيّ ت:
238هـ.

- الشمائل المحمدية لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت: 279هـ.
- الأخلاق النبوية، للقاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي ت: 282هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، لأبي الفضل عياض اليعقوبي ت: 544هـ.

- الوفا بتعريف فضائل المصطفى ﷺ، لابن الجوزي ت: 597هـ.

وهي مصنفات تَصُمُّ ما تناثر في كتب السنّة العامّة من أحاديث تجلّي الجوانب المختلفة من حياة النبي ﷺ، فتبدأ بوصف خلقه، من حيث السمات الجسديّة التي تميّز بها عليه الصلاة والسلام، ومنها ما له صلة بالغاية من خلقه، كخاتم النبوة الذي أفرّد فيها بأبواب مستقلّة، ثمّ تُتبع ذلك بوصف خلقه ﷺ؛ لتورد بعد ذلك أبواباً لما جاء في مختلف أوصافه، كوصف مشيته وجلسته، وتبسّمه وغضبه، وأكله وشرابه، ونومه وعبادته، وكلامه وصمته، ومزاحه وسمّره.

ومن نماذج ما تضمّنته من ذلك:

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ ليس

بالطويل البائن، ولا بالقصير ولا بالأبيض الأمهق⁽¹⁾، ولا بالآدم⁽²⁾،
ولا بالجعد القطط⁽³⁾، ولا بالسبط⁽⁴⁾، بعثه الله على رأس أربعين سنة،
فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس
ستين سنة، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرةً بيضاء⁽⁵⁾.

● حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لم يكن رسول الله
ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يُجزئ بالسيئة
السيئة، ولكن يعفو ويغفر"⁽⁶⁾.

● قول القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي السبتي ت: 544هـ: "فصل
في حسن خلقه ﷺ: وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة
والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم
المتصف بالخلق الواحد منها...، فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد
ﷺ، على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها.. وكان مجبولاً عليها

(1) - أي: الشديد البياض.

(2) - أي: لم يكن أسمر اللون.

(3) - أي: الذي في شعره خشونة شديدة.

(4) - أي: الذي في شعره نعومة شديدة.

(5) - الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، بيروت، ط 3، 1988، ص 7، باب ما
جاء في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 1.

(6) - الترمذي، الشمائل، ص 167، باب ما جاء في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 339.

في أصل خلقته، وأول فطرته، لم تحصل له إلا بجدد إلهي وخصوصية ربانية⁽¹⁾.

ولا يخفى على قارئ هذه المصنّفات أنّ الغاية من تصنيفها هي التربية على الاقتداء، بخصال إمام الأنبياء ﷺ.

ولذلك عظمت عناية العلماء بها، دراسةً وشرحاً وتدریساً، في مجالس راتبية، وكانوا يخلّدون ختمها بتقايد خاصة، تعرف بـ "الخُتوم"، منها:

- "مجلس في ختم السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام" لابن ناصر الدين الدمشقي، ت: 842هـ.
- "مجلس في ختم الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ"، لابن ناصر الدين كذلك.
- "الإمام في ختم السيرة النبوية لابن هشام"، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت: 902هـ.
- "الانتهاض في ختم الشفا لعياض" للسخاوي كذلك.

(1) - اليحصبي، عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، تحقيق: عبده علي كوشك، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط. 1، 2013م، ص: 140-141.

- "رفع الإلباس في ختم السيِّرة لابن سيِّد النَّاس" للسَّخاويِّ أيضًا.
- "الرِّياض في ختم الشِّفا لعياض" للسَّخاويِّ كذلك.⁽¹⁾

وقد كانت هذه الظَّاهرة مشتهرةً لدى أهل القرن التَّاسع الهجريِّ، حتَّى إنَّهم كانوا يعقدون لقراءة هذه الختوم مجالسَ خاصَّةً، تحضرها الجلَّةُ من النَّاس، والظَّاهر أنَّها كانت معمولاً بها في مختلف حواضر العالم الإسلاميِّ.

فقد ذكر أبو سالم العياشيُّ ت: 1090هـ في رحلته المشهورة أنَّه سمعَ نحو التَّصف من كتاب الشِّفا للقاضي عياض من لفظ شيخه أبي مهدي عيسى الثَّعالبيِّ بمكَّة، وشهدَ مجلسَ ختمه بها في يومٍ كان مشهودًا.⁽²⁾

ولا يخفى أنَّ سرَّ الاهتمام بهذه الكتب وختمها تعلُّقها بسيرة المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام، وبذكر محاسنه وشمائله، لا سيَّما كتاب الشِّفا للقاضي عياض، الذي أبدعَ فيه مؤلِّفه وبرعَ، فأحكم ترتيبه، وأحسن ترصيفه، وأتقنَ تصنيفه، وجلَّى ببديع بيانه مظاهر

(1) - عُرف السَّخاوي بتصنيف "الختوم"، وبلغ عدد ما نسبه لنفسه منها ثلاثة عشر كتابًا، انظر: السَّخاوي، النُّزوء اللامع لأهل القرن التَّاسع، دار الجليل، بيروت، ص 18.

(2) - العياشي، ماء الموائد، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشيح، دار السويدي بأبوظبي، ط. 1، 2006م، 245/2.

العظمة والتميز في شخصيّة النبي الكريم ﷺ، وما خُصَّ به من بهاءٍ وجمالٍ، في الخلقِ والقولِ والفعالِ.

● كتب "السيرة النبوية":

● سبقت الإشارة إلى أنّ هذه الكتب هي التي عُنت بتفاصيل حياة النبي ﷺ من مولده إلى وفاته، فمنها:

● سيرة رسول الله ﷺ، لإسماعيل بن طرخان التيميّ ت: 143هـ، برواية ابنه أبي محمد معتمر بن سليمان ت: 187هـ.

● السّير لأبي إسحاق الفزاريّ ت: 186هـ.

● المغازي لمحمد بن عمر الواقدي ت: 207هـ.

● السّيرة النبويّة أو تهذيب سيرة ابن إسحاق، لعبد الملك بن هشام ت: 218هـ.

● كتاب السّير لأبي عثمان الأمويّ ت: 249هـ.

● سيرة النبي ﷺ وأصحابه في عيشهم وتخلّيفهم عن الدّنيا لأبي ذرّ الهرويّ ت: 343هـ.

- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان البستي ت 354هـ، وهو جزء من كتابه "الثقات".
- أوجز السير في سيرة خير البشر أو "سيرة النبي ﷺ"، لابن فارس اللغوي ت: 395هـ.
- السيرة النبوية لأبي القاسم الوزير المغربي ت: 418هـ.
- جوامع السيرة لأبي محمد ابن حزم الظاهري ت: 456هـ.
- وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين، للملا عمر الإربلي الموصلي ت: 570هـ.
- الرّوض الأُنْف والمشرع الرّوي في تفسير ما اشتمل عليه حديث سيرة رسول الله ﷺ واحتوى، لأبي القاسم السهيلي ت: 581هـ، وقد شرح به سيرة ابن هشام، وهو كتاب قيّم ضمّنه خلاصة معارفه في اللّغة والتّحو والأنساب والتّاريخ وغيرها.
- السيرة النبوية للذهبي ت 748هـ، وهو جزء من كتابه "تاريخ الإسلام".
- السيرة النبوية لابن كثير ت: 774هـ.

وأهم ما يميّز هذه الكتب سوقها كلّ ما ورد في مختلف مراحل حياة النبي ﷺ، ولا تشتط في ذلك الصحة والثبوت؛ وإلى ذلك أشار الحافظ العراقي ت 806 هـ مطلع ألفيته في السيرة بقوله:

وَلْيَعْلَمِ الطَّالِبُ أَنَّ السَّيْرَا
تَجْمَعُ مَا صَحَّ وَمَا قَدْ أَنْكَرُ
وَالْقَصْدُ ذِكْرُ مَا أَتَى أَهْلُ السَّيْرِ
بِهِ وَإِنْ إِسْنَادُهُ لَمْ يُعْتَبَرْ

• كتب الخصائص.

الخصائص علمٌ يعتني بما تفرّد به النبي ﷺ عن غيره من مزايا مطلقاً، من الناحيتين: التشريعية والتفضيلية.

فأما الناحية التشريعية فمنها ما اختصّ به ﷺ مع أمته من جعل الأرض مسجداً وظهوراً، وبليلة القدر، وبالخيرية على سائر الأمم.

وأما الناحية التفضيلية فمنها التبشيرُ به في الكتب السابقة،

وتخصيصه بختم النبوة والرسالة، وبمعجزة الإسراء والمعراج، وبإمامة الأنبياء، وبمعجزة القرآن الخالدة إلى يوم الدين.

وقد وردت هذه الخصائص منثورة في كتب الحديث، متفرقة في أبواب مختلفة منها، بحسب مجالها الذي تنتمي إليه، أورد الإمام البخاري والترمذي بعضها في كتاب المناقب، وذكر الإمام مسلم جملة منها في كتاب الفضائل، وحذا حذوهم في ذلك كثير من المحدثين والفقهاء، ومنهم الإمام الشافعي الذي أورد بعضها في كتابه الأم والرسالة.

ومن أهم المصنّفات المفردة بهذا الباب:

- نهاية السؤل في خصائص الرسول، للإمام أبي الخطاب عمر بن الحسن الكلبي المعروف بابن دحية ت: 633هـ.
- شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول، لأبي الربيع ابن سبع السبتي.
- بداية السؤل في تفضيل الرسول، للعزّابن عبد السلام ت: 660هـ.
- غاية السؤل في خصائص الرسول ﷺ، لابن الملقن ت 804هـ.
- الأنوار بخصائص النبي المختار، لابن حجر العسقلاني ت: 852هـ.

• اللفظ المكرّم بخصائص النّبِيِّ المحترم، لقطب الدّين الخضيرى الشّافعيّ ت: 864هـ.

• كفاية الطالب اللّيب في خصائص الحبيب، للجلال السيوطي ت 911هـ.

إنّ هذه المصتفاتِ نظرًا إلى تنوّع المجالات التي تنتمي إليها مادّتها العلميّة، تدور مضامينها بين الأحكام والمناقب، فتعرض لذكر بعض الأحكام الفقهيّة التي خوطبَ بها النّبِيُّ ﷺ خاصّةً من دون أمّته، وبعض الفضائل التي لا يشاركه فيها غيره، ومجلى الحكمة في ذلك كلّ زيادة الرّلفى ورفع الدّرجات تكريمًا وتعظيمًا له ﷺ⁽¹⁾.

لكنّه لما اشتهر عند المتقدّمين أنّها ممّا يتعلّق به العلم دون العمل، قلّت العناية بها في القرون الثلاثة الأولى، ولم يكثر الاعتناء بها إلا من قبل المتأخّرين.

(1) - انظر: ابن الملقّن، غاية السؤل في خصائص الرّسول، تحقيق عبد الله بحر الدّين عبد الله، دار البشائر الإسلاميّة، ط. 1، 1993م، ص 73، 125، 156، 223.

• كتب دلائل النبوة، أو أعلام النبوة:

هي كتبٌ تشمل كتب المعجزات، التي أفردت بما أظهر الله على يدي النبي ﷺ من خوارق العادات تأييدًا له وإثباتًا لصدق نبوته، كما تشمل ما صنف لغرض الاستدلال على نبوته ﷺ، كالبشارات والإرهاصات وغيرها مما ليس من شرطه التحدي. (1)

ومما ألف في ذلك:

- الحجّة في إثبات نبوة النبي ﷺ، لبشر بن المعتمر المعتزليّ ت: 210هـ.
- دلائل النبوة لمحمد بن يوسف الفريابي ت 212هـ.
- آيات النبي ﷺ لعليّ بن محمد المدائنيّ ت: 215هـ.
- أعلام النبوة للخليفة عبد الله المأمون العباسيّ ت: 218هـ.
- أمارات النبوة ليعقوب بن إبراهيم الجوزانيّ ت: 259هـ.
- دلائل النبوة لأبي زرعة الرازيّ ت: 263هـ.
- المعجزات لأبي جعفر التونسيّ ت: 322هـ.

(1) - انظر في التنبيه على الفرق بين الدلائل والمعجزات: السهيلي، الرّوض الأنف، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1391هـ، 399/1.

- دلائل التّبوة لأبي الحسن الأشعريّ ت: 324هـ.
- أعلام التّبوة للماورديّ ت 450هـ.
- دلائل التّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للبيهقيّ ت 458هـ، وهو أجمع هذه المصادر وأشملها مادّة.
- وتمتازُ هذه الكُتب بإيراد ما يقوّي الإيمان بالتّبوة من المعجزات والإرهاصات، وما يُطمئنّ النفس من الأحاديث والأخبار الثابتة التي تؤكّد وقوعها، وتدفع عنها كلّ شكّ وارتياب.
- على أنّ ما ورد في هذه المصنّفات من الأحاديث والأخبار تمسّ الحاجة إلى نخله لتمييز الصحيح الذي يستحقّ الوثوق به.⁽¹⁾
- كتب الطبقات وتراجم الصحابة:
- وهي مصنّفاتٌ تُلحقُ بكتبِ علوم الحديث، أُفردتُ بسير الصحابة الكرام الذين عاصروا التنزيل، وشاهدوا تفاصيل حياة النبيّ

(1) - يعدّ هذا مطلبًا متجددًا طيلة مراحل تاريخ كتابة السيرة النبوية، يدلّ على ذلك ما ذكره حسين نصّار في مقدمته لترجمة كتاب "الغزالي الأولى ومؤلفوها" من أنّ سليمان بن طرخان ت: 143هـ ألف كتابًا في "السيرة النبوية الصحيحة"، ولا يزال العلماء يحتذون حذوه فيما رآه من نخل مرويات السيرة، فلابن حجر العسقلاني "مختصر السيرة" الذي اقتصر فيه على أصحّ الأقوال وأقواها، وللشهاب العسقلانيّ ت: 923هـ كتاب "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" اعتمد فيه مقبول الأحاديث دون مردودها.

انظر: حسين نصّار، مقدّمة ترجمة كتاب "الغزالي الأولى ومؤلفوها" للمستشرق يوسف هوروفيتش، مصطفى البابي الحلبي، ط 1، 1949.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي بذلك ممّا يساعدُ في إضاءةِ جوانبٍ مهمّةٍ من السّيرة العِطْرَةِ، وفي أهمّيّتها يقول ابن عبد البر: "ولا خلافَ عَلِمْتُهُ بين العلماء أنّ الوقوف على معرفة أصحاب رسول الله ﷺ من أوكدِ علم الخاصّة، وأرفعِ علم الخبر، وبه سادَ أهلُ السّير".⁽¹⁾

ومن تلك الكتب:

- الطّبقات لمحمّد بن عمر الواقدي ت 207هـ، وقد أكثر من النّقل عنه ابن سعدٍ في طبقاته الكبرى.⁽²⁾
- الصّحابة، لأبي عبيدة معمر بن المثنّى ت: 208هـ.
- الطّبقات الكبرى، لمحمّد بن سعدٍ ت: 230هـ.
- معرفة من نزل من الصّحابة في سائر البلدان، لعليّ بن المدينيّ ت: 238هـ.
- الصّحابة لأبي حاتم الرّازي ت: 277هـ.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد البر التّمريّ ت: 463هـ.

(1) - ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1992، ص 23.

(2) - النّديم، الفهرست، ص 151.

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الفتح ابن الأثير ت: 630هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني ت: 852هـ.
- ومما يندرج ضمن هذا النوع من المصادر مصنّفاتٌ عُنت بأخبار الخلفاء، ككتاب الاصبهاني في أخبار الخلفاء، لعبد الملك بن محمد التوزري، عرف بابن الكردبوس، كان حيًّا سنة 575هـ.⁽¹⁾
- وقد يُظنُّ أنّ هذه المصادر تنتمي إلى فئة التراجم أو كتب التاريخ، لكنّها عند مطالعتها تُلغى أقرب ما تكون إلى كتب السيرة، ومما يؤكّد ذلك أن ابن سعد ت: 230هـ في طبقاته الكبرى أفرد جزأيه الأوّلين لسيرة النبي ﷺ، متناولا مراحلها من الولادة إلى الوفاة، ثمّ راعى أحداث السيرة في بقية الأجزاء، فترجم البدرين، والمهاجرين والأنصار من غير البدرين، ومن تقدّم إسلامهم، ثمّ أفرد آخر أجزاء كتابه وهو الثامن بتراجم النساء اللاتي شاركن في حياة النبي ﷺ، من أهل بيته وسائر المؤمنات.
- وبالنظر إلى ما تتسم به السيرة من الطابع التاريخي يتبيّن أنّ مصادر تراجم الصحابة وكتب الطبقات تقدّم للباحث مادةً نفيسةً تفيدهُ في مستويات منها:

(1) - محفوظ، محمّد، تراجم العلماء التّونسيّين، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 2، 1994، 4/158.

● مستوى نقد طرق التّقلِ والرّواية؛ إذ لا يمكن أن يعرف أعيان الصّحابة إلّا بنظره في كتب السّيرة، فتتميّز عنده الأحاديث باعتبار منتهى أسانيدھا بين المرفوع والموقوف والمعلّق، ويتحدّد عنده نطاق من يُنظر في حاله من الرّواة التّازلين عن مراتب الصّحابة.

● مستوى تمحيص المتون؛ إذ يستفيد من ذلك استفادةً عظيمةً في تعرّف منحولھا، اعتمادًا على تواريخ وقائع السّيرة.

● مستوى تبوئة الأحاديث، بوضعھا في سياقات ورودھا؛ ولذلك عظيم الأهمّيّة في حسن فهمھا، والتّمييز بين ما سبيلھ عموم التّشريع، وبين ما له اختصاصٌ بواقعةٍ حالٍ.

وقد أفرد السيوطيّ ت 911هـ هذا الباب بمصنّف سماه: أسباب ورود الحديث الشّريف.

ومن فوائد هذه الكتب أنّها تُمدُّ دارس السّيرة بتفاصيل لا يجدها في ما سواھا من المصادر؛ لأنّها تهتمّ بذكر المواقف التي شهدھا كلّ صحابيٍّ، والأحداث التي ارتبطت باسمه ارتباطًا وثيقًا.

• كتب التاريخ.

نظراً إلى قوة صلة السيرة بالتاريخ، ضمنت مصنفات تاريخية كثيراً من المادة العلمية المكونة للسيرة، لا سيما تلك المصنفات التي حاول بها أصحابها أن يؤرخوا للعالم منذ بدء الخليقة إلى عصورهم.

ومن تلك المصنفات:

- تاريخ خليفة بن خياط ت: 240هـ، وقد بدأه بالحديث عن التقويم الهجري، متبعاً ذلك بفصل قصير عن السيرة النبوية.
- كتاب المحبر، لابن حبيب البغدادي ت: 245هـ.
- تاريخ اليعقوبي المتوفى بعد: 292هـ.
- التاريخ الكبير، لابن أبي خيثمة ت: 299هـ.
- تاريخ الأمم والرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري ت 310هـ، الذي عدّ أوثق نقلاً وأصحّ تأريخاً،⁽¹⁾ على أنه كغيره من مصنفات المؤرخين تمس حاجة مشمولاته إلى النقد الروائي على وفق قواعد المحدثين.

(1) - ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ط، 1972، 4/191.

• تصانيف مؤرّخي البلدان والأمصار، لاسيما كتب تاريخ الحرمين، ومنها:

• أخبار مكّة للواقديّ ت: 207هـ.

• أخبار مكّة للأزرقّيّ ت: 250هـ.

• تاريخ المدينة للواسطيّ ت: 246هـ.

• أخبار المدينة لعمر بن شبة ت: 262هـ.

• فتوح البلدان، للبلاذريّ ت: 279هـ.

• فضائل مكّة المكرّمة وفضائل المدينة المنوّرة، كتابان لمحدّث مكّة المفضّل الجنديّ ت: 308هـ.

• تاريخ مكّة وما جاء فيها من الآثار، لابن التّجارت: 643هـ.

ولمعاجم البلدان مثل ما لمصادر تاريخها من الأهميّة في إضاءة جوانب من السّيرة؛ لارتباط الأمكنة بأحداثها بدهاءة، فناسب أن يذكر عند مورد كلّ منها ما وقع فيه من أحداثٍ، ومن أمثلة ما نجد فيه ذلك:

• معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد البكريّ ت: 487هـ.

• معجم البلدان، لياقوت الحمويّ ت: 626هـ.

• كتب الأدب.

لَمَّا كَانَ الْأَدَبُ وَعَاءَ تَارِيخِ الْفِكْرِ وَفَنُونِ الْعِلْمِ، صَحَّ عَدَّ دَوَائِنَهُ مِنْ مَصَادِرِ السَّيْرِ النَّبَوِيَّةِ، فَقَدْ حَفَلَتْ بِمَادَّةٍ وَفِيرَةٍ تَفِيدُ الْبَاحِثَ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْدَاثٍ لَمْ تَدَوِّنْهَا أَقْلَامُ الْمَدُونِيِّينَ، أَوْ اسْتِفَادَةَ تَفَاصِيلِ مَا أَجْمَلُوا الْقَوْلَ فِيهِ، لِاسِيْمَا نَصُوصِ الْأَشْعَارِ الَّتِي رُوِيَ إِنْشَادُهَا عَقِبَ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ؛ إِذْ قَلَّ أَنْ تَخْلُوَ وَاقِعَةٌ مِنْ أَنْ تُنْشَدَ فِيهَا أَشْعَارًا! خَاصَّةً فِيمَا بَيْنَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ.

ولذلك نجد كتب السيرة الأولى حافلة بأشعارٍ تشمل هذه المرحلة، بل وغيرها من المراحل، وهي اتسب تارةً إلى آمنة بنت وهب، أمّه عليه الصلاة والسلام، وتارةً إلى جدّه عبد المطلب، وأخرى إلى عمّه أبي طالبٍ.

فمن ذلك:

• ما نُسب إلى جدّه عندما زُف إليه خبر ولادته من قوله:

الحمدُ لله الذي أعطاني
هذا الغلامَ الطَّيبَ الأرداني
قد ساد في المهدي المهد على الغلمانِ
أُعِيذُه بالبيتِ ذي الأركانِ
حَتَّى أَرَاهُ بِأَلْبَعِ البُنَيَانِ
أُعِيذُه مِنْ كُلِّ ذِي شَنْآنِ
مِنْ حَاسِدٍ مُضْطَرِبِ العِنَانِ⁽¹⁾

- لامية أبي طالب، التي قالها عندما حاصرت قريش بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، والتي أنشدها مادحاً ابن أخيه محمداً ﷺ، ومعلنًا فيها مناصرتَهُ، قال فيها:

خَلِيَّتِي مَا أُذْنِي لِأَوَّلِ عَاذِلِ
بِصُغُوَاءٍ فِي حَقِّ وَلَا عِنْدَ بَاطِلِ
خَلِيَّتِي إِنَّ الرَّأْيِي لَيْسَ بِشِرْكَةِ
وَلَا نَهْتِهِ عِنْدَ الْأُمُورِ الْبَلَابِلِ

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. 1، 2001، 103/1.

أَقِيمْ عَلَى نَصْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
أَقَاتِلْ عَنْهُ بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ (1)
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَدَّبَ
لَدَيْهِمْ وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
كَأَنِّي بِهِ فَوَقَّ الْجِيَادِ يَقُودُهَا
إِلَى مَعْشَرٍ زَاغُوا إِلَى كُلِّ بَاطِلِ
وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ رَافِعُ أَمْرِهِ
وَمُعْلِيهِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ التَّجَادُلِ (2)

وغير هاتين القصيدتين مما قيل في أحداث ما قبل الهجرة كثير،⁽³⁾ وما أنشد في أحداث ما بعد الهجرة أكثر، كقصائد حسان في غزوة بدر، وفتح مكة، وقصائد كعب بن مالك في غزوة أحد، وفي اعتذاره من النبي ﷺ ومدحه، وما قاله غيرهما من الصحابة مخلصين

(1) - القنا: جمع قناة وهي الزمخ أو كل عصا غليظة، والقنابل: جمع قنبل، وهو الرجل الغليظ الشديد

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، 1/272-280.

(3) - انظر قصيدة لأبي هبيرة المخزومي في قصة وضع الحجر الأسود في: سبل الهدى والرشاد للصالحى، 2/232-233، وقصيدة لأبي بكر في قصة الهجرة، في: الرّوض الأنف للسّهيلي، 4/142، وقصيدة لعبد بن جحش في هجرة الصحابة إلى المدينة، في: السيرة النبوية لابن هشام، 2/82.

أولياتٍ في تاريخ الإسلام متناثرٌ في مواطن ذكرها.⁽¹⁾

هذا وتتنوع المصادر الأدبية للسيرة النبوية إلى:

• المصادر الأدبية العامة، أي تلك الكتب الجامعة لأشعار شعراء كثيرين، ومنها:

- ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي ت: 230هـ.

- طبقات الشعراء لابن سلام الجُمحي ت: 231هـ.

- البيان والتبيين للجاحظ ت: 255هـ، وهو يعجُّ بأخبار السيرة.

كتاب البرصان والعُرجان والعُميان، للجاحظ ت: 255هـ، وفيه من أخبار السيرة ما لا يوجد في غيره؛ لكونه ردًّا على مصنفٍ الهيثم بن عديّ "المثالب الكبير" و"المثالب الصغير" اللذين أورد فيهما ذوي العاهات من أشرف العرب ومن الصحابة، فكان من قصد الجاحظ بيان أن تلك العاهات لا تحط من أقدارهم شيئًا.

- الشعراء والشعراء لعبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدّينوري ت:

276هـ.

(1) - ينظر: ابن هشام، السيرة، 2/280، 382-392، و3/74، و4/161.

- ديوان الحماسة للبحرّي ت: 281هـ.
 - الكامل في اللغة والأدب للمبرد ت: 286هـ.
 - العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ت: 328هـ.
 - كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصبهاني ت: 356هـ.
- بيد أنّ ما اشتملت عليه هذه المصادر من الأشعار المتعلقة بالسيرَة يتطلّب جهودًا من التّمحيص والتّحقيقِ على ما بينها من التّفاوتِ في مقدار ما تضمّنته منها.
- الدّواوينُ الشّعريّة الخاصّة، التي جمّع كلّ منها أشعارَ من عاصروا النبي ﷺ، ومنها:
- ديوان أميّة ابن أبي الصّلت ت: 5هـ.
 - ديوان الأعشى البكريّ ت: 7هـ.
 - ديوان عبد الله بن رواحة ت: 8هـ.
 - ديوان كعب بن زهير ت: 26هـ.
 - ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ ت: 41هـ.

- ديوان كعب بن مالك ت: 50هـ أو 53هـ.

ديوان حسان بن ثابت ت: 54هـ.

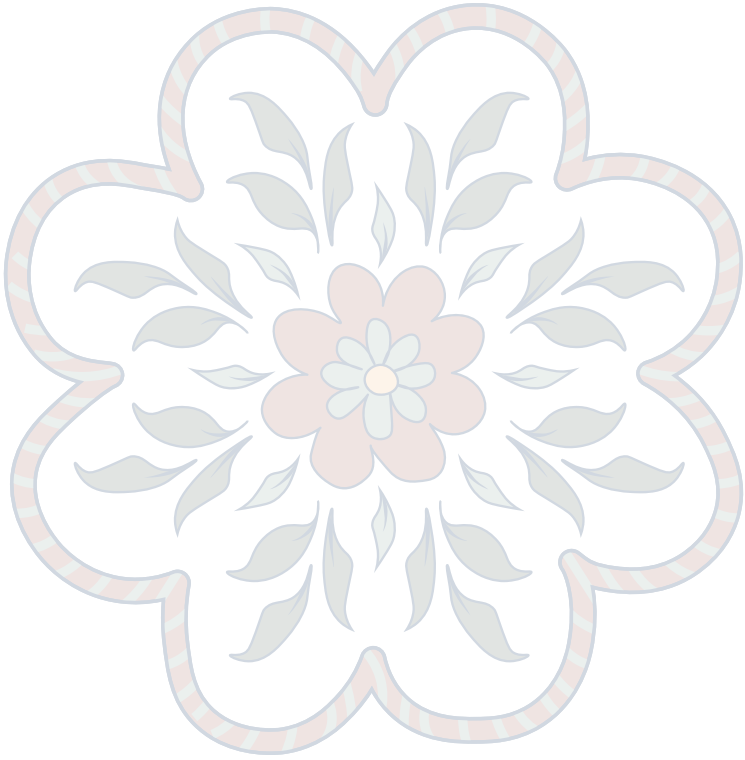
- ديوان التابغة الجعدي ت: 65هـ.

على أنّ ما ورد في هذه الدواوين ممّا له ارتباط بالسيرة قليل، بالنسبة إلى بقية الأغراض، غير أنّه على قلته له أهميّة من حيث توثيق الأحداث التي شارك فيها أصحاب هذه الدواوين، أو كانوا عليها شهودًا، فجُلّه يمتاز بالصحة والثبوت.

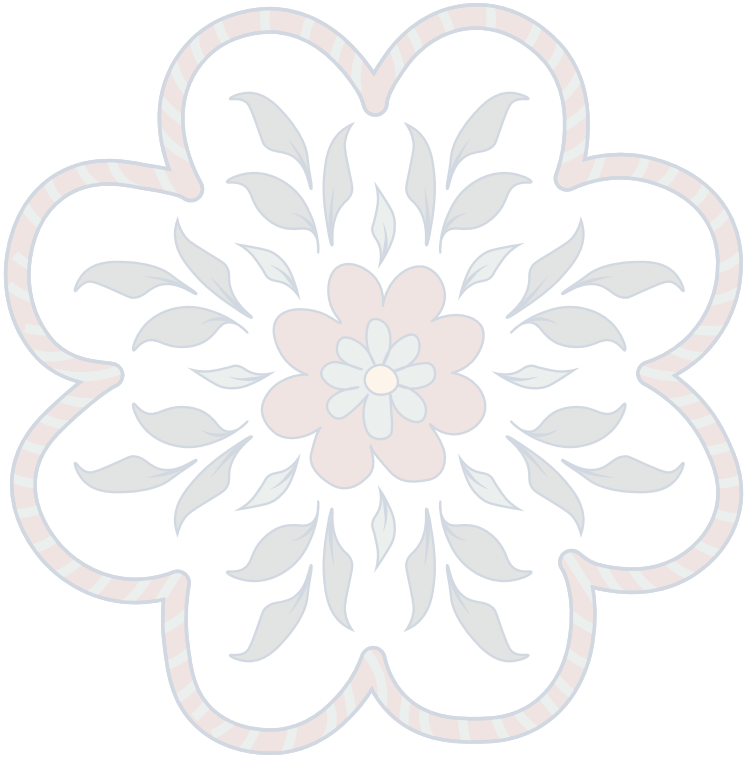
وقد دأب العلماء على توثيقه وتصحيحه رغم ما أثير حول بعضه من الريب والشكوك.

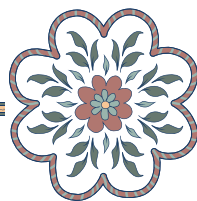
من ذلك أنّ ابن هشام لما أورد لامية أبي طالب علق عليها بقوله: "هذا ما صحّ لي من هذه القصيدة، وأكثر أهل العلم بالشعر يُنكر أكثرها"، فعقب عليه ابن كثير بقوله: "هذه القصيدة عظيمة بليغة جدًا، لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعًا".⁽¹⁾

(1) - ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، دط، 1991، 57/3.



حياةُ محمدٍ الإنسانِ ﷺ





طفولة النَّبِيِّ ﷺ: التربية والرعاية

• مسردُ الأحداث.

وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ لأبوين من أقعدِ بيوت العربِ نسباً إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ، فهو مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة بن خُزَيْمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن معدَّ بن عدنان.

وقد اتفق النَّسَّابونَ على توالي هؤلاء الآباء إلى عدنان، كما اتَّفَقوا على أنَّه من نسل إسماعيل، لكنَّهم لم يُثبتوا فوقَّ عدنانَ غيرَ أبيه أدد، وبينهم خلافٌ كثيرٌ فيما وراءه من الآباء.⁽¹⁾

(1) - القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق علي الخاقاني، مطبعة النجّاح، بغداد، 1958، ص 25، وانظر: القرطبي، التعريف بالأنساب والتَّنويه لذوي الأحساب، تحقيق: سعد عبد المقصود ظلام، دار المنار، 1990، ص 34.

أسند البلاذري إلى الشعبي قال: "إِثْمًا حَفِظْتَ الْعَرَبُ مِنْ أَنْسَابِهَا إِلَى أَدَدٍ"⁽¹⁾ "وقلما تحفظ الأنساب بالتوالي إذا طال الزمان وامتدت الأيام، بل يكون السبيل حينئذ إلى معرفة صحة الانتماء إلى أصل ما من باطله اتفاق الكافة وإجماع الجيل على ذكر ذلك"⁽²⁾.

وأما اسمه الشريف "محمد" فيذكر اللغويون أنه من مادة (حمد) التي تدل على خلاف الذم، تقول العرب: رجل محمود ومحمد: إذا كثرت خصال المحموده غير المذمومة؛ ومما ورود فيه ذلك من الشعر قول الأعشى قيس بن ميمون:

إِلَيْكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كَانَ كَلَالُهَا
إِلَى الْمَاجِدِ الْفَرْعِ الْجَوَادِ الْمُحَمَّدِ⁽³⁾

ووزنه "مفعّل" وهي صيغة لا تستعمل إلا فيمن تكرر منه الفعل مرة بعد مرة، فيكون معناه: الذي يُحْمَدُ حمداً بعد حمداً⁽⁴⁾.

(1) - البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، دار المعارف، مصر، 1959، 1/31

(2) - البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، DEUTSCHE MORGENL. GESELLSCHAFT F. A. BROCKHAUS، LEIPZIG، 1923، ص 38.

(3) - ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، 1979، 2/100، مادة حمد.

(4) - السهيلي، الروض الأنف، 1/280

ويذكر الأخباريون سبعة ممن سُموا بهذا الاسم قبله ﷺ،⁽¹⁾ ووُجد ذلك مُثبتًا في بعض النقوش الأثرية، وفي شواهد بعض القبور التي تعود إلى ما قبل الإسلام،⁽²⁾ وقد فُسر ذلك بشيوع خبر نبوءة راهبٍ لقيه سفيان بن مُجاشع بالشَّام؛ إذ قال له بعد أن أخبره بكونه عربيًّا: "أما إنَّه سيُبعثُ في العرب نبيُّ يقال له محمَّد"، فسَمي سفيانُ ولدهُ محمَّدًا، رجاءً أن يكون هو النبيُّ المنتظر!⁽³⁾

ويذكر أهل السِّير أنَّ عبد المطلب هو من سمى حفيدهُ محمَّدًا يوم سابع ولادته، وأنَّه دخلَ به الكعبةَ، وأشدَّ:

الحمدُ لله الذي أعطاني

هذا الغلامَ الطَّيبَ الأردانِ

قد ساد في المهد على الغلمانِ

أعيذه بالبيتِ ذي الأركانِ

حَتَّى أراهُ بِأَبِغِ البُنَيانِ

أعيذهُ من كُلِّ ذي سَنانِ

(1) - انظر: ابن حبيب، المحبَر، تحقيق د. إيلزه ليختن شتيتلر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ص 130.

(2) - انظر: جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام السيرة النبوية، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، 2009، ص 109-110.

(3) - ابن حبيب، المحبَر، ص 130.

مِنْ حَاسِدٍ مُضْطَرِبِ الْعِنَانِ⁽¹⁾

وأما تاريخ مولده ﷺ فمختلفٌ فيه، سواءً في تعيين الساعة أو اليوم أو الشهر أو السنة.

وجلُّ الروايات على أنه وُلِدَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، في شهر ربيع الأول، وروي غير ذلك.⁽²⁾

ومردُّ الاختلاف في هذا وغيره من أخبار السيرة إلى عادة العرب في التأريخ ببعض الأحداث التي يسجلونها في أشعارهم؛ فكانوا "إنما يُؤرِّخون بما يكون في السنين من حربٍ أو عاهةٍ وما أشبه ذلك...، وهذا في أشعارهم كثيرٌ"⁽³⁾؛ إذ "كان الشعر...ديوانَ علمهم ومُنْتَهَى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون...؛ قال عمر بن الخطاب: "كان الشعرُ علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه".⁽⁴⁾

ولم يكونوا يُعيرون اهتمامًا للضبطِ بعددِ السنينِ أو الشهورِ

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/103.

(2) - انظر في اختلاف الروايات في ذلك: تاريخ خليفة بن خياط، دار طيبة، الرياض، ط. 2، 1985، ص 52-54؛ والمقرئزي، إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1999م، ص 6-7؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/228.

(3) - ابن حبيب، المحبر، ص 8.

(4) - الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ص 24.

أو الأيتام؛ قال أبو الفتح البيروني: "وأما تواريخ العرب وشهورهم وأينيتهم النسبي فيهما وترتيبهم في الجاهلية لها فأمراً أهمل، وكانوا أميين، ولم يعولوا في تخليد الآثار إلا على الحفظ والأشعار، فلما انقرض مستعملوها انقطع ذكرها، ولا سبيل إلى علم مثل ذلك.⁽¹⁾

وقد وُلد ﷺ كما يولد الناس جميعاً، لا يختلف عنهم إلا فيما خُص به من النبوة والرسالة؛⁽²⁾ يشهد بذلك ظاهر قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: 110).

وعلى عادة الأسر المكيّة في التماس المراضع لأطفالها بالبادية؛ لتصح أبدانهم، وتستقيم بأفصح اللغات ألسنتهم،⁽³⁾ عهد به إلى امرأة من بني سعد بن بكر،⁽⁴⁾ يقال لها حليلة بنت أبي ذؤيب، فمكث عندها ﷺ حتى بلغ الخامسة من عمره.

وقد وردت أحاديث كثيرة فيما حلّ بحليلة وأهلها من بركات،

(1) - البيروني، الآثار الباقية، ص 141.

(2) - قد كثرت الروايات في إرهابات وحوارق للعادة سبقت ولادته ﷺ أو اقترنت بها، وجلها وردت من طرق لا تثبت بها الأخبار، فلذلك ضربنا عنها صفحاً، واكتفينا بما ثبت من ظاهر القرآن.

(3) - السهيلي، الروض الأنف، 1/287-288.

(4) - انظر في التعريف بهذا الحي من العرب: القلقشندي، نهاية الأرب، ص 270؛ وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي برفنصال، دار المعارف، مصر، د ت، ص 253-254.

لَمَّا اسْتَرْضَعَ لَهُ عِنْدَهُمْ،⁽¹⁾ وَقَدْ تَكَلَّفَ أَهْلَ السَّيْرِ قَبُولَهَا بِدَعْوَى
الاسْتِفَاضَةِ، عَلَى مَا فِي طُرُقِ رَوَايَتِهَا مِنْ عِلَلٍ؛ مِنْهَا حَدِيثٌ طَوِيلٌ
رَوَى عَنْ حَلِيمَةَ، أوردَه ابْنُ كَثِيرٍ بِطَوْلِهِ ثُمَّ قَالَ: "وهذا الحديثُ قد
رُوِيَ مِنْ طُرُقٍ أُخَرَ، وَهُوَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ الْمَتَدَاوِلَةِ بَيْنَ أَهْلِ
السَّيْرِ وَالْمَغَازِي."⁽²⁾

وَقَدْ أَرْضَعْتُهُ قَبْلَ حَلِيمَةَ امْرَأَةً أُخْرَى تُدْعَى ثَوْبِيَّةَ، مَوْلَاةٌ لِعَمِّهِ
أَبِي لَهَبٍ.⁽³⁾

وَكَانَ مِمَّا عَلَّمْتُهُ ظَرْهُ حَلِيمَةَ رَعِي الْغَنَمِ، شَانَ سَائِرِ الْأَطْفَالِ فِي
ذَلِكَ الْعَهْدِ، كَانَ يِرْعَاهَا مَعَ أَخِيهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ، ثُمَّ رِعَاهَا بَعْدُ لِأَهْلِ
مَكَّةَ عَلَى قَرَارِيضَ،⁽⁴⁾ كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ.

وَيَبْدُو أَنَّ رَعِي الْغَنَمِ سُنَّةٌ فِي الْأَنْبِيَاءِ، فَقَدْ رَوَى الشَّيْخَانُ مِنْ
حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(1) - انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، 89-90؛ والبلاذري، أنساب الأشراف، 94/1.

(2) - ابن كثير، السيرة النبوية، 228/1.

(3) - ذُكِرَ أَنَّ عِدَّةً مِّنْ أَرْضَعْتُهُ بَلَغَ عَشْرًا، وَبَعْضُ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخَلْطِ بَيْنَ الْمَرْضَعَاتِ وَالْحَوَاضِنِ، أَوْ عَلَى الْخَلْطِ بَيْنَ مَرْضَعَاتِهِ وَمَرْضَعَاتِ بَعْضٍ وَلَدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، 87/1-88؛ الصالح، سبل الهدى والرشاد، 461-457/1.

(4) - أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريض، رقم: 2262، والقراريض: جمع قيراط، وهو جزء من أجزاء الدينار، انظر: ابن الأثير، النهاية، 42/2.

سُئِلَ: أَكُنْتَ تَرعى الغنم؟ فقال: «وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا؟!»⁽¹⁾
وفي حديث عبدة بن حَزْنٍ قال: "تفاخرَ أهلُ الإِبِلِ وأصحابُ
الشَّاءِ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «بُعِثَ مُوسَى وهو راعي غنمٍ، وبُعِثَ دَاوُدُ وهو
راعٍ، وبُعِثْتُ أَنَا وَأَنَا أَرعى غنمًا لأهلي بالأجبادِ»⁽²⁾

وفي حديث أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ
نَبِيًّا إِلَّا رَاعِي غنمٍ»، قال له أصحابُه: "وأنت يا رسول الله؟"، قال: «وَأَنَا
رَعَيْتُهَا لأهلِ مَكَّةَ بالقرارِيطِ»⁽³⁾

ولم تذكر كتب السير عمرَ النَّبِيِّ ﷺ حينَ كان يرعى الغنمَ لأهلِ
مَكَّةَ، ولكنَّ بعضَ الرواياتِ أشارتِ إلى أَنَّهُ كانَ في سنِّ الفُتُوَّةِ، بين
الصِّبا والشِّبابِ⁽⁴⁾.

ثمَّ إِنَّهُ ﷺ كانَ قد وُلِدَ ونشأَ يتيماً الأبِ،⁽⁵⁾ ثمَّ قَدَّرَ اللهُ أَن يذوقَ
مرارةَ اليتيمِ مرَّةً أُخرى بعد سنةٍ قضاها مع أمِّه، وكانت قد ذهبت به

(1) - أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب «يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ»، رقم: 3406؛ وأخرجه مسلم: كتاب
الأشربة، باب فضيلة الأسود من الكباش، رقم: 2050.

(2) - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم: 594.

(3) - أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم: 2262.

(4) - انظر: ابن سيِّد النَّاسِ، عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسير، مكتبة دار النَّراث، المدينة المنورة،
109/1.

(5) - على أصحِّ الأقوال وأشهرها، وفي ذلك أقوال آخر، انظر: ابن سيِّد النَّاسِ، عيون الأثر، 78/1.

إلى أخواله من بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به، ومعها أم أيمن، أمة ورثها عن أبيه، وكانت تحضنه، فتوفيت أمه آمنة بالأبواء، منصرفهم من المدينة إلى مكة،⁽¹⁾ ولما يجاوز السادسة من عمره.⁽²⁾

تذكر الروايات أن عبد المطلب شيبه⁽³⁾ بن هاشم، جد النبي ﷺ، كان قد حزن أشد ما يكون الحزن على ما ألم بحفيده من فقد أمه، فكان شديد الرافة به والإشفاق عليه، يخصه من ذلك بما لم يخص به أحدا سواه؛ فكان "إذا أتى بالطعام، أجلس النبي ﷺ إلى جانبه، وربما أقعده على فخذه، فيؤثره بأطيب طعامه.. وكان يفرش له في ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول فراشه إلى خروجه، فإذا خرج قاموا على رأسه مع عبيده؛ إجلالا له، وكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفراً، فيجلس على الفراش، فيأخذه أعمامه ليؤخروه، فيقول عبد المطلب: "مهلاً، دعوا ابني ما تريدون منه؟" ثم يقول: "دعوه، فإن له لشأنًا، أما ترونه؟" .. ويسر بكلامه وما يرى منه.⁽⁴⁾

(1) - ابن الجوزي، تليق فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت، ط. 1، 1997، ص 18.

(2) - ابن الجوزي، تليق فهوم أهل الأثر، 1/ 99.

(3) - قيل: إن أمه سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد سمته بذلك "لشيبه كانت في رأسه، ويقال: لشيبات كمن حوّل ذؤابته" البلاذري، أنساب الأشراف، 64/1.

(4) - البلاذري، أنساب الأشراف، 81/1.

وكان كلما غاب عن نظره وجد من ذلك في نفسه خوفاً واغْتِمَامًا.
ومما ذكره أهل السَّيرِ من القَصَصِ في ذلك أن رجلاً حجَّ فبينما
هو يطوفُ إذا رجلٌ يقول:

رُدَّ إِلَيَّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا
ارُدُّهُ رَبِّ واصْطَنِعْ عِنْدِي يَدًا

قال: قلتُ: مَنْ هذا؟ قيل: عبدُ المطلبِ بنُ هاشمٍ بعث ابنَ ابنِهِ
في إِبِلٍ له صَلَّتْ، وما بعثه في شيءٍ إِلَّا جاءَ به".
قال: "فما برحْتُ حتَّى جاءَ وجاءَ بالإِبِلِ معَه"، فقال له عبد
المطلبِ: "يا بُنَيَّ، لقد جَزَعْتُ عَلَيْكَ جَزَعًا، لا تُفارقني بعدُه حتَّى
أموتَ!"⁽¹⁾

لا غرابة أن يعاملَ الجُدُّ حفيدَهُ بهذا الصَّربِ من المعاملة التي
بلغت منتهى الرِّقَّةِ والعطفِ، وهو الذي غداً وحيداً، لا أبَ يرؤُفُ به
ولا أمَّ تحنو عليه ولا أخَّ يؤازرُهُ ويشدُّ عضدَهُ.

وإشياءُ الله أن يموتَ عبدُ المطلبِ بعدما قضى مُحَمَّدٌ ﷺ سنتين

(1) - السابق، 81/1-82، والخبر أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي.

في كفالته، ولا شك أنه فجع بموته؛ إذ كان يرعاه رعاية الوالد الذي
رُزق ولده على كبر!

فقد حدثت أم أيمن أنه ﷺ كان يبكي خلف سرير عبد المطلب،
وهو ابن ثمان سنين.⁽¹⁾

هذا، وقد تواردت الأنباء في أرجاء مكة بما كان يبدو على محمد
ﷺ من مخايل التبوغ وأمارات الاجتباء،⁽²⁾ فكان ذلك مما قوى حرص
عبد المطلب على حفيده، فعهد به إلى أبي طالب عمه،⁽³⁾ وبدخوله في
كفالته انتقل ﷺ إلى مرحلة جديدة من مراحل عمره، هي مرحلة
الإعداد للتبوة والتأهيل لها.

• الفوائد والعبر:

اشتمل ما تقدم من أنباء السيرة العطرة فيما بين الولادة والصبا
على جملة فوائد منها:

أن حسن الخلق سمة اكتسبها النبي ﷺ من بيئته الأسرية التي

(1) - البلاذري، أنساب الأشراف، 1/84.

(2) - انظر جملة منها في: ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/97-98؛ والبلاذري، أنساب الأشراف، 1/82-83.

(3) - على خلاف في طريقة انتهاء الوصاية على النبي ﷺ إلى أبي طالب، هل كانت بالاقتراع أم بالتراضي أم بالاختيار أم بالإيصاء المباشر من عبد المطلب؟ انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، 1/85.

نشأ فيها:

فقد وُلِدَ ﷺ فِي بَيْتِ شَرَفٍ أَثِيلٍ، وَنَسَبٍ أَصِيلٍ، فَهُوَ نُحْبَةٌ بَنِي هَاشِمٍ، وَسَلَالَةٌ قُرَيْشٍ، أَشْرَفِ الْعَرَبِ وَأَعَزَّهُمْ نَفَرًا،⁽¹⁾ وَأَكْرَمِهِمْ مُحْتَدًا؛ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْعَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»."⁽²⁾

وقد اشتهر هذا النسبُ بين العربِ بمجيد الخصال التي كثر عددها، وعمَّهم نفعها ومددُها.

فمنه قصيُّ زَيْدُ بْنُ كِلَابٍ، الَّذِي أَقَرَّتْ لَهُ قُرَيْشٌ بِالرَّئِيسَةِ وَالسُّوْدِ؛ لِسَدَادِ رَأْيِهِ، وَصَدَقَ لَهْجَتِهِ، وَسَعَةَ بَذْلِهِ وَعَطَائِهِ، فَاجْتَمَعَ بِهِ شَأْنُهُمْ، وَقَامَ بِهِ أَمْرُهُمْ؛ وَفِي ذَلِكَ قَالَ حُذَافَةُ بْنُ عَامِرٍ الْقُرَشِيُّ:

أَبُوكُمْ قُصِيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا
بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

(1) - الصالحِي، سبيل الهدى والرَّشَاد، 275/1.

(2) - أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النَّبِيِّ ﷺ، رقم: 2276.

وَأَنْتُمْ بَنُو زَيْدٍ وَزَيْدٌ أَبُوكُمْ
بِهِ زِيدَتِ الْبَطْحَاءُ فَخْرًا عَلَى فَخْرٍ

ومنه عمرو بن عبد مناف، هاشم الشهم الكريم، الذي كفى
بنفقته مؤنة قريش لما أصابتهم سنة أقطوا فيها، فأطعمهم الكعك
والخبز، ونحر لهم من الإبل ما أشبعهم بعد ما جهدوا.
ثم إنه سن لهم رحلي الشتاء والصيف، فصارتا فيهم عادة؛ وفي
ذلك قال عبد الله بن الزبيري:

عَمَرُوا الْعُلَا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ
وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافٌ
وَهُوَ الَّذِي سَنَّ الرَّحِيلَ لِقَوْمِهِ
رِحْلَ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةَ الْأَصْيَافِ (1)

وما في آل عبد مناف إلا شهم أصيل جامع بين شرفي العمل
والتسب؛ كما قال قصي:

"أَنَا الَّذِي أَعَانَ فِعْلِي حَسَبِي" (2)

(1) - المرتضى، الأمالي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط. 1، 1954، ص 269.

(2) - البلاذري، أنساب الأشراف، 48/1.

فلا غرَوَ أن كان مُحَمَّدٌ ﷺ وارثًا من المكارمِ أعلَّاهَا، ومن الفضائلِ أَسَنَاهَا، ومن الشِّيمِ أَطْيَبَهَا وَأَزْكَاهَا، فَكَانَ لَهَا مُسْتَجْمِعًا، وَلِلنَّاسِ عَلَيْهَا مُجْمِعًا؛ كَمَا قِيلَ:

فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الحَطَّيَّ إِلَّا وَشِيحُهُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا التَّخْلُ

• قسوة اليتيم: دروس التوكل والرافة.

لقد كانت طفولة مُحَمَّدٍ ﷺ بما عرف فيها من ألم اليتيم أعظم مدرسةٍ تعلَّم فيها ألاَّ يتكلَّ على أحدٍ سوى ربِّه الذي ربَّاهُ في كنفِهِ متنقلاً بين حضن أمِّه وبيتِ حليمةٍ وكفالةِ جدِّه عبدِ المطلبِ.

وقد كان عليه الصلاة والسلام شديد الرافة باليتام، عظيم الرحمة بهم،⁽¹⁾ حتى عدَّ كفالتهم والإحسان إليهم سبباً لنيل جواره في جنات النعيم؛ قال عليه الصلاة والسلام فيما روى الإمام مسلم من طريق مالكٍ بسنده إلى أبي هريرة: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ

(1) - لا غرابة أن يكون كذلك، فقد خاطبه الله عز وجل بقوله في سورة الضحى: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ» (الضحى، 9).

كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ». وأشار مالك بإصبعيه السبابة والوسطى.⁽¹⁾

• رعي الغنم: درس في الرحمة والتواضع.

لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا عَظِيمًا قَطُّ إِلَّا أَتَتْهُ مِنْ تِجَارِبِهِ فِي الْحَيَاةِ.

ومحمد ﷺ في هذا ليس بدعاً من الرسل ولا من العظماء؛ إذ تهيأ له مثل ما تهيأ لهم من أسباب ساقته إلى أرقى مراتب العظمة، فكانت له قدراً.

وإنّ من أهمّ تلك الأسباب، ما استدعى منه أن يرعى الغنم في بني سعد بن بكر، ثم عند عمّه أبي طالب، فتمرّن برعيها على ما رسّخ في فطرته أخلاق الرحمة والحلم والرفق.

ولا شك أنّ ما بلغه من تلك الأخلاق كلّها إنّما كان من كثرة تعهده السخال⁽²⁾ في المراعي، فعلمته كيف يصبر على جمعها، ويحرص على حمايتها، ويسوقها إلى مواطن كلّئها، ويحمل جمعها على قدر ما

(1) - أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم: 2983. وتعدّ هذه العناية بالأيتام من التعاليم الخلقية المشتركة بين الديانات السماوية الثلاث؛ ففي سفر الخروج: 23، "لأ تسيء إلى أرملة ما ولا يتيم إن أسأت إليه فإنني إن صرّخ إلي أسمع صراخه"، وفي العهد الجديد: الديانة الطاهرة النقية عند الله الأب هي افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقهم". (رسالة يعقوب: 1: 27).

(2) - جمع سخلة، وهي صغار الضأن، انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (سخل).

تُطِيقُهُ ضِعَافُهَا؛⁽¹⁾ "وإنما جعل الله هذا -فيه- وفي الأنبياء تقدمةً لهم؛ ليكونوا رعاةَ الخلق، ولتكون أممهم رعايا لهم".⁽²⁾

ثم إنَّه ﷺ تعلَّم من ذلك أيضًا أنَّ قيمةَ المرءِ تعظم بقدرِ تواضعِهِ، فكانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يغتبطُ بتلك التَّجربةِ، ويعدُّها من نِعَماءِ الله عليه.⁽³⁾

درسٌ في البرِّ والوفاء: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾
(الرَّحْمَنُ: 60).

لا يمكن أن تكون النفوس التي سلِّمت فِطْرُهَا إِلَّا وَفِيَّةً، تَبَرُّ بِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وتقابلُ صنيعَهُ بِحُسْنِ اعترافِها، وتبدُّلُ له من الخير ما ترجو أن تكافئه بها؛ كما قيل:

وَمَا كَانَ شُكْرِي وَافِيًا بِنَوَالِكُمْ
وَلَكِنِّي حَاوَلْتُ فِي الْجُهْدِ مَذْهَبًا
أَفَادَتَكُمْ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً
يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

(1) - الصَّالِحِي، سبيل الهدى والرَّشاد، 212/2.

(2) - السهيلي، الروض الأنف، 296/1.

(3) - الصَّالِحِي، سبيل الهدى والرَّشاد، 212/2.

ومحمد ﷺ قد بلغ من هذا الخلق أعلى ذراه، فلم يزل يذكر أمه ويحن إليها؛ وقد زار قبرها بالأبواء فبكى وأبكى،⁽¹⁾ وكان يتذكر بعض ما كان في مقامه معها بيثرب يوم حملته لتزور به أخواله بني عدي بن النجار.⁽²⁾

وكان عليه الصلاة والسلام يعرف لشوية فضلاً إرضاعها إياه، فيرسل إليها من المدينة بكسوة وصلية، حتى ماتت بعد فتح خيبر، وكان قد سأل بعد عن ابنها مسروح، وعن قرابتها، يريد إكرامهم، برًا بها بعد وفاتها، فأخبر أنهم لم يبق منهم أحد.⁽³⁾

● شباب النبي ﷺ: الإعداد والتأهيل.

● مسرد الأحداث:

أدركت المنية عبد المطلب ولما يشب حفيده محمد ﷺ عن الطوق، فوجد نفسه في كفالة عمه أبي طالب عبد مناف بن شيبة.

(1) - السهيلي، الروض الأنف، 1/298.

(2) - السابق، 2/164.

(3) - السابق، 1/460.

كَانَ أَبُو طَالِبٍ كَسَائِرِ أَهْلِ مَكَّةَ فِي زَمَانِهِ، تَاجِرًا، وَلَمْ يَكُنْ مَوْفُورَ الْمَالِ؛ إِذْ كَانَ كَثِيرَ الْعِيَالِ،⁽¹⁾ فَاضْطُرَّ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أَنْ يَسَاعِدَهُ، فَرَعَى لَهُ الْغَنَمَ أَوَّلًا، ثُمَّ رَغِبَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَصْحُبَهُ مَعَهُ فِي إِحْدَى رِحَالَتِهِ التَّجَارِيَّةِ إِلَى الشَّامِ، فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ مِنْ مَشَاقِّ السَّفَرِ، فَأَبَى مُحَمَّدٌ إِلَّا أَنْ يَرِافِقَهُ، فَرَفَّقَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ، وَقَالَ: "وَاللَّهِ لَا أُخْرِجَنَّ بِهِ مَعِيَ، وَلَا يَفَارِقَنِي، وَلَا أَفَارِقُهُ أَبَدًا".⁽²⁾

سَافَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ عَمِّهِ لِيَكْتَشِفَ مَا وَرَاءَ جِبَالِ مَكَّةَ وَتَلَاهُهَا، وَيَرَى سَعَةَ أَرْضِ اللَّهِ وَأَرْجَائِهَا، فَرَأَى بَصْرَى وَمَدِينَ وَوَادِيَّ الْقُرَى، وَأَمَاكِنَ أُخْرَى فِيهَا جَنَاتٌ ذَوَاتُ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ، وَعَيْونٍ وَأَبَارٍ، وَشَاهَدَ الرَّهْبَانَ فِي صَوَامِعِهِمْ، وَالتَّصَارِي فِي كِنَائِسِهِمْ، وَكَانَتْ بَصْرَى الشَّامِ أَقْصَى مَا زَارَهُ ﷺ فِي حَيَاتِهِ.

وَذَكَرَ أَهْلَ السِّيَرِ أَنَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ لَقِيَ رَاهِبًا، سَمَّوَهُ بَحِيرًا،⁽³⁾ جَعَلُوهُ أَعْلَمَ أَهْلِ التَّصْرَانِيَّةِ،⁽⁴⁾ وَذَكَرُوا أَنَّهُ رَأَى عَلَيْهِ مِنْ خَوَارِقِ

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/98.

(2) - ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/105.

(3) - سمّاه بعضهم سرجيس، انظر: المقرئزي، إمتاع الأسماع، ص 15.

(4) - الصالحى، سبل الهدى والرشاد، 2/189.

العادات ما أعلمه بأنه سيّد العالمين، وأنه نبيّ هذه الأمة، الذي سيرسله الله إلى الناس كافةً. (1)

ولا تكاد تلك الروايات يكون لها من الأهميّة بالنسبة إلى التّبوّة شيءٌ ما خلا ما فيها من أن السّفَرَ إلى الشّام كان تجربةً جديدةً خاضها محمّدٌ ﷺ، تعلّم خلالها أصول التجارة، واكتشف ما وراء حدود بلده مكّة من بلاد الله المترامية الأطراف!

على أنّها على العكس من ذلك فتحت باب التّقوّل بأنّ محمّدًا ﷺ تعلّم فكرة الدّين من الرّاهب النّصراني، وتلقّى عنه علم النّصارى ويهود فسماه قرآنًا زعم أنّه يوحي به إليه! (2)

شبّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب الذي أولاه من عطفه ورعايته مثل ما أولاه جدّه عبد المطلب قبل، وكانت عناية الله تحوطه وتكلّوه، حتّى بلغ أن فضّل قومه مروءةً، وحسن خلقٍ، فكان أبرّهم وعداء، وأصدقهم حديثًا، وأكرمهم عشرةً، وأعظمهم أمانةً، وأوفرهم عقلاً، وأكثرهم جلمًا، وأوسعهم صدرًا. (3)

(1) - السابق 199/2-189، وقد أورد ابن سيّد النّاس هذا الخبر من رواية الترمذي، بسند ليس فيه إلا من خرّج له في الصّحيح.

(2) - علي، جواد، أيام العرب في الإسلام، ص 149-150.

(3) - انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/99.

لَمَّا بَلَغَ ﷺ الْعَشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ بَدَأَ يُسْهِمُ فِي الشَّأْنِ الْعَامِّ لِمَجْتَمَعِهِ الْمَكِّيِّ، مُنَاصِرًا قَضَايَاهُ الْعَادِلَةَ، وَمُنْخَرِّطًا فِيمَا تَعَقَّدُهُ مِنْ عَهْدِ الْفَضِيلَةِ وَأَحْلَافِ التَّضَامَنِ.

شَارَكَ ﷺ فِي حَرْبِ الْفِجَارِ، الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ بَيْنَ كِنَانَةَ وَقَرَيْشٍ، وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلَانَ، فَكَانَ يَنْبُلُّ لِأَعْمَامِهِ وَيُرَدُّ عَنْهُمْ نِبَالَ الْعَدُوِّ.

ذُكِرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ عَنِ الْفِجَارِ: "قَدْ حَضَرْتُهُ مَعَ عُمُومَتِي وَرَمَيْتُ فِيهِ بِأَسْهِمٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَعَلْتُ".⁽¹⁾
وَسَمَّيْتُ فِجَارًا لِأَنَّ الْعَرَبَ فَجَرَتْ فِيهَا بِحَرْبِهَا وَخَرَجَتْ عَلَى الْحُرْمَةِ وَالْمَقْدَسَاتِ بِحَرْبِهَا فِي تِلْكَ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ.⁽²⁾

كَمَا شَارَكَ فِي حَلْفِ الْفُضُولِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ إِعْلَانُ مَبَادِيءِ صَاغِهِ وَتَعَاهُدِ عَلَيْهِ أَصْحَابِ الْإِرَادَاتِ الْخَيْرَةِ مِنْ عَشَائِرِ قَرَيْشٍ، مُقْتَضَاهُ نَصْرَةَ الْمَظْلُومِ وَالتَّأْسِي فِي الْمَعَاشِ؛ قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: "وَكَانَ أَشْرَفَ حَلْفٍ كَانَ قَطُّ".⁽³⁾

(1) - السَّابِقُ، 1/106.

(2) - ابْنُ كَثِيرٍ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، تَحْقِيقُ مِصْطَفَى عَبْدِ الْوَاحِدِ، دَارُ الْمَعْرِفَةِ، بَيْرُوتَ، 1976، 1/255.

(3) - السَّابِقُ.

لم يكد يبلغ ﷺ الخامسة والعشرين من عمره حتى تزوج، وقد كان زواجه ناجحًا بحق؛ إذ كان لذلك أثرًا ظاهرًا في حياته قبل البعثة وبعدها على السواء.

وتذكر كتب السيرة أنّ ما اشتهر من صدقه وأمانته هو ما رغّب خديجة بنت خويلد فيه، أمينًا على تجارتها إلى الشام أولًا، ثم زوجًا لها بعد ذلك؛ حتى إنهم ذكروا أنّ غلامها ميسرة الذي رافق محمدًا ﷺ في سيره بتجارتها إلى الشام،⁽¹⁾ كان هو من حدّثها عما يميّز به عليه الصلاة والسلام من كريم الشيم، فبعثت إليه تقول: "إني قد رغبتُ فيك لقربتك وشرفك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك"،⁽²⁾ وكانت يومئذٍ أوسط نساء قريش نسبًا وحسبًا وأعظمهنّ جاهًا وأوفرهنّ مالًا.

تزوجها محمد ﷺ،⁽³⁾ فرزق منها أبناءه الستّة جميعًا: القاسم،

(1) - أقحم الأخباريون شخصية راهب في هذه الرحلة الثانية إلى الشام أيضًا، سموه هذه المرة (نسطور)، وذكروا أنه شاهد فيها من خوارق العادة ما حمله على أن بشر ميسرة بخبر نبوته، فأخبر ميسرة خديجة بذلك بعد عودته، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، 109-108/1؛ وابن سيّد الناس، عيون الأثر، 117-116/1؛ والمقريزي، إمتاع الأسماع، ص 17.

(2) - الصّالحي، سبل الهدى والرّشاد، 223/2.

(3) - بين أهل السّير خلاف في عمر خديجة يوم تزوج بها محمد ﷺ، وكذلك اختلفوا في عمره آنئذٍ، والظاهر أنّ الرواية المشهورة بأنّها كانت تبلغ سنّ الأربعين يقتضي الحسن والتّجربة ضعفها؛ إذ قلّ أن تلد ذات الأربعين ستّة من الولد، فيبدو أن عمرها كان بين الثّمانية والعشرين وبين الثّلاثين، انظر: الصّالحي، سبل الهدى والرّشاد، 225/2.

وزينب، ورقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم عبد الله (وهو الطيب والظاهر)،⁽¹⁾ ما خلا إبراهيم فرزقه من مارية القبطية، وكلهم ماتوا في حياته إلا فاطمة.⁽²⁾

عاش ﷺ مع زوجه خديجة ببيتها بجوار الكعبة، فأتاح له ذلك أن يقترب من سائر فئات المجتمع المكي، وممن كانوا يحجون البيت من سائر العرب، فكان يجالسهم ويحدثهم، فيسمع منهم، ويرى حالهم، ويُنصت إلى شكواهم.

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام الخامسة والثلاثين من عمره حُكِمَ -لأمانته وصدقه واستقامته- في قضية وضع الحجر الأسود بعد تجديد بناء الكعبة؛ لتصدع في جدرانها أحدثته السيول التي كانت تأتي من وديان مكة فتدخل الكعبة وتملأ ما حولها ماءً.⁽³⁾

وكانت قبائل قريش جميعاً قد تعاونت على ذلك التجديد وأسهمت فيه، حتى إذا انتهوا من البناء وآن أوأن وضع الحجر الأسود في موضعه اختصموا، فكلُّ يريد أن يحوز ذلك الشرف، وانحاز كل رجل

(1) -اتفق غالب أهل السير أنهما لقبان له؛ لأنه وُلد بعد النبوة، انظر: الزرقاني، شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، بيروت، 4/314.

(2) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/110-111.

(3) - البلاذري، أنساب الأشراف، 1/99.

منهم إلى قبيلته حتى كادوا يقتتلون.

ثم اتفقوا على أن يضع الحجرَ أوَّلَ مَنْ يدخلُ من باب المسجد، فكان محمَّدٌ هو ذلك الدَّاخلُ، فلمَّا رأوه قالوا: "هذا الأمينُ رضينا بحكمه".

فأمر بثوبٍ، ووضع فيه الحجر بيده، وأشار أن تأخذ كلُّ قبيلة بجانب منه ليرفعوه جميعاً، فلمَّا بلغوا به موضعه، أخذه فوضعه بيده في موضعه. (1)

لم يلبث محمَّدٌ ﷺ بعد هذه الواقعة أن بدأت إرهابات نبوته تتواردُ عليه، ميلاً إلى العزلة، وتحنُّثاً في غار حراء، وتأملاً في ما حوله من عوالم الأكوان، وأحوال الإنسان.

وكان ذلك مبتدأً أمر التَّبوَّة، ومهاداً لشأن البعثة والإرسال.

• الفوائد والعبر:

أنَّ حسنَ الخُلُقِ أبلغُ تأثيراً في النَّفسِ الإنسانيَّةِ من مجرد خرقِ قوانينِ الطَّبيعةِ وعوائدها المحسوسة، ففي محاسن أخلاقه ﷺ ما يغنيه

(1) - انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، 1/99-100؛ وابن سيّد الناس، عيون الأثر، 1/121.

عن سحابةٍ تتبعه لتقيه حرَّ الشَّمسِ في الهواجر، وعن شجرةٍ يعمر
عنها النَّاسُ جميعاً فلا يتفياً ظلالها إلاَّ نبيُّ، حتَّى تقتنعَ بذلك خديجةُ
فترضيه زوجاً لها، وتنبهرَ بذلك قريشٌ فترضاهُ حكماً بينها! (1)

لكتِّها الأخلاق تبهرَ بجمالها عيونَ البصائرِ، وتخلُّبُ ببهائها
قلوبَ ذوي الألباب؛ يقول السَّعدُ التَّفْتَازاني رحمه الله: "وأما الاستدلال
على نبوةِ محمدٍ بما شاع من أخلاقه وأحواله فهو عائِدٌ إلى المعجزة"، (2)
ويقول: "فقد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة، والأوصاف الشَّريفة،
والسَّير المرضية، والكمالات العلميَّة والعملية، والمحاسن الرَّاجعة
إلى التَّفيسِ والبدن، والنَّسب والوطن، ما يجزم العقلُ بأنَّه لا يجتمع
إلاَّ لنبيِّ". (3)

أنَّ قيمتي العدلِ والتَّضامنِ بهما يستتبُّ الأمانُ ويتحقَّق استقرارُ
المجتمعات والأوطان، فحلف الفضولِ إنَّما كان تنادياً إلى إحياءِ
القيمتين وتفعيلهما؛ حمايةً للأمنِ أن يخلَّ وللاستقرارِ أن تنهدَّ أركانهُ.
إنَّه تعاهدٌ على أن تُحفظَ حقوقُ النَّاسِ، ويُحمَى مظلومُهُم،

(1) - انظر ما أورده الصَّالحيُّ في: سبيل الهدى والرَّشاد، 215/2-216.

(2) - التَّفْتَازاني، شرح المقاصد، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط. 2، 1998، 19/5.

(3) - السابق، 39/5.

وَيُنْتَصَفُ مِنْ ظَالِمِهِمْ، وَتَكْفَلَ مَعَايِشَهُمْ، مَا بَلَّ بَجْرُ صَوْفَةٍ، وَمَا رَسَا حِرَاءً وَثَبِيرٌ مَكَانَهُمَا؛⁽¹⁾ وفيه أشدُّ الزَّيْرِ بن عبد المطلب:

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ
وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارٍ
نُسَمِّيهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا
يَعَزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لِنَدِي الْحِوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالِي الْبَيْتِ أَنَّا
أَبَاءُ الضَّمِيمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارٍ⁽²⁾

أنَّ الوفاءَ بقيمِ الفضيلةِ واجبٌ إنسانيٌّ لا يمكن للأديانِ إلا أن تزكَّيه وتنادي به وتدعو إليه؛ ولأجل ذلك بقي النَّبِيُّ ﷺ وفتياً لروح حلف الفضولِ حتى بعد النَّبُوَّةِ والرَّسالةِ؛ فقد روى عنه المحدثون أنه قال: «لَمْ يُصِبِ الْإِسْلَامُ حِلْفًا إِلَّا زَادَهُ شِدَّةً»،⁽³⁾ كما روى أنه كان يقول: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحِبُّ أَنْ لِي

(1) - الصَّالِحِي، سبيل الهدى والرَّشاد، 209/2، وقد كانَ هذا التَّعَاهُدُ في وقت لم يعرف فيه المجتمع العربي مفهوم الدولة بعد، لذلك تنادى هؤلاء الأشراف إلى القيام بهذه الأمور التي أصبحت اليوم مكفولة من قِبَلِ الدَّوْلَةِ، بمختلف أجهزتها ومؤسساتها.

(2) - ابن كثير، السيرة النبوية، 1/259.

(3) - أورده الطَّبْرِيُّ من حديث الزَّهْرِيِّ مرسلًا، انظر: الطَّبْرِيُّ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط. 1، 2001، 6/685.

بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»⁽¹⁾.

أَنَّ الْمَرْءَ يَشْرُفُ بِقَدْرِ إِيمَانِهِ بِالْقِيمِ وَوَفَائِهِ لَهَا، فَقَدْ خَلَدَ النَّبِيُّ الْكَرِيمَ ﷺ ذَكَرَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جُدَعَانَ؛ لِشَهَامَتِهِ، وَلِتَأْيِيدِهِ لِحَلْفِ الْفُضُولِ، حَتَّى إِنَّهُ اسْتِضَافَ أَطْرَافَهُ عَلَى وَلِيمَةٍ لِيَعْقِدُوا حَلْفَهُمْ فِي بَيْتِهِ.

وَكَانَ لَهُ مَنَادِيَانِ: أَحَدُهُمَا فِي بَطْنِ مَكَّةَ، وَالْآخَرُ فَوْقَ الْكَعْبَةِ، يَنَادِيَانِ مَرْتَادِي مَكَّةَ لِلْقَرَى وَالضِّيَافَةِ، فَيُطْعِمُهُمْ أَجُودَ مَا يُطْعَمُ؛ وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌ⁽²⁾
وَأَخْرُفُوقَ كَعْبَتِهَا يُنَادِي
إِلَى رُدْجٍ⁽³⁾ مِنَ الشَّيْزَى⁽⁴⁾ مِلَاءٍ
لُبَابُ الْبُرِّ يُلْبِكُ بِالشَّهَادِ⁽⁵⁾

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 107/1.

(2) - أي: مبادر مجتهد.

(3) - أي: جفان عظيمة.

(4) - نوع من الخشب الأسود تُصنع منه الجفان.

(5) - ابن كثير، السيرة النبوية، ص 117.

وقد ذكره مترجموه من بين أجواد العرب، وقد بلغ منه الجود أن كان يحتال على ولده لما حجروا عليه بعدما أسن، فكان إذا أتاه الرجل ليعوده لطمه على وجهه، حتى يسأل تعويضاً عن ذلك من أبنائه فيعطوه من مال أبيهم؛ وفي ذلك يقول ابن قيس الرقيات:

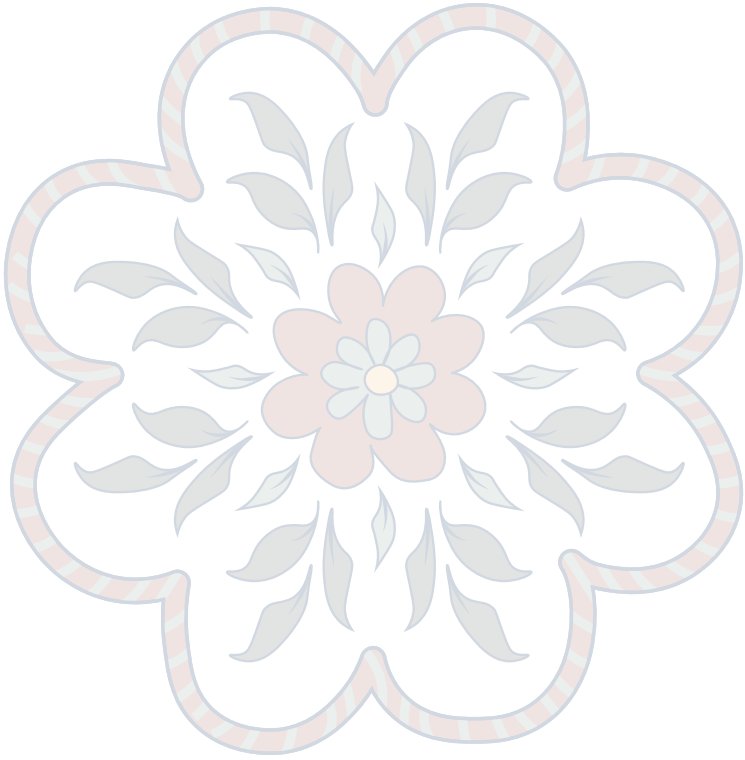
والذي إن أشار نحوك لطمًا
تبع اللطم نائلً وعطاءً⁽¹⁾

تلك مرحلة مهمة من حياة محمد (الإنسان)، رأينا فيها كيف ولد، وكيف ترعرع في مضارب بني سعد، قبل أن يعود إلى مكة، فيتعلم من دروس الحياة كيف يكون عظيمًا بشخصيته الفذة، فيقدره مجتمعه، ويؤاه منزلة الحكماء الذين يهتدى برأيهم في الملمات. فلم يكن اليتيم عائقًا له عن الوصول إلى حيث كان ينعم بتقدير مجتمعه، ولا كان الفقرُ مجازٍ له عن النجاح في حياته، ولا كانت عزيمته بالتي تضعف أمام قسوة بيئته التي عاش فيها.

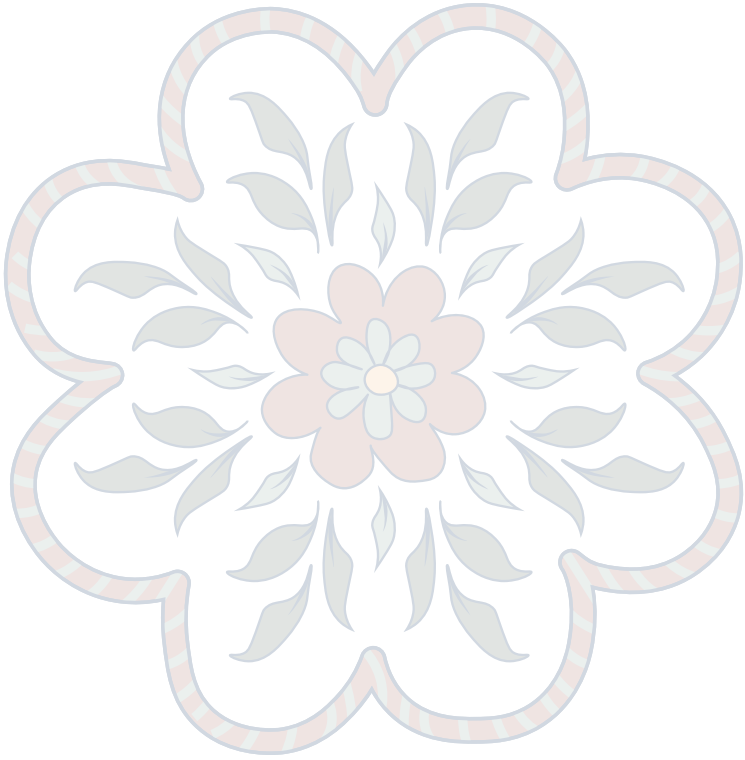
تعلّمنا هذه المرحلة من سيرته أن ما كان عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، تعلمه من مجتمعه، الذي كان يُقيم للقيم أعظم اعتبار.

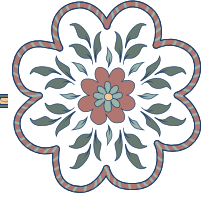
(1) - ابن حبيب، المحبر، ص 137-138.

فكانَ ما تبع ذلك في مرحلة التَّبوَّة والرَّسالة مِن تنزُّلِ هدايات
السماءِ عليه، تأكيدًا لهذه السَّيرة التي كان عليها بمكَّة.
وكانت غايةً بعثته الدَّعوة إلى فطريَّة الأخلاق، وحاكميَّة القيم..



حياة محمد النبي ﷺ





النُّبُوَّةُ وِبدءِ الوحي

• مسردُّ الأحداث:

يذكر أهل السِّيرِ أَنَّهُ لَمَّا قاربَ مُحَمَّدٌ ﷺ الأربعين من عمره،⁽¹⁾ بدأت تظهرُ عليه مخايلُ ما تعلَّقت به إرادة الله من اصطفائه نبياً رسولاً،⁽²⁾ فكانَ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ يغادرُ مَكَّةَ بين الحين والآخر، ليدخُلَ ميدانَ التَّفَكُّرِ في خلواته بغارِ حراءَ، فيمكثُ فيه الليالي والأيامَ، ولا يعودُ إلى مَكَّةَ إلاَّ لأجل التزوُّدِ لمثل ذلك.

وتذكرُ الرواياتُ أَنَّهُ كانَ يخلو بالغارِ شهراً من كلِّ سنةٍ، وأَنَّهُ كانَ يجعلُ أوَّلَ فعله بعد رجوعه من الغارِ كلَّ مرَّةٍ أن يطوفَ بالبيتِ

(1) - السَّهيلي، الرُّوضُ الأَنْفُ، 1/396، وانظر أقوالاً أخرى في ذلك عند: المقرئ، إمتاع الأسماع بما للنبي صلى الله عليه وسلم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1999م، ص 20-26؛ والضالحي، سبل الهدى والرُّشاد، 2/303-305.

(2) - انظر جملةً منها في: الضالحي، سبل الهدى والرُّشاد، 2/319.

سبعًا قبل أن يدخل بيته.⁽¹⁾

كان تفكره في الغار متعلقًا بما يراه حوله من مظاهر الإبداع والتناسق والجمال في الكون الفسيح ونظمه، فتدور في خلدك تلهم الأسئلة الوجودية الكبرى، عن طبيعة الخلق وحتمية وجود خالقٍ عليهم حكيمٌ خبيرٌ، جلّ عن أن يكون أحد تلك الأصنام التي يتحلّق حولها أهل مكة، وهي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا!

ولم يكن حبه للعزلة وميله إلى الاختلاء بالأمر الذي طرأ عليه غداة بلوغه الأربعين، بل كان له عادةٌ عُرف بها منذ صغره، فقد كان هادئ الطبع، لطيف العشرة، لا يميل إلى معاكسةٍ أو شجارٍ أبدًا.

وكان مما عُرف به الميل إلى المسالمة، وحسن المعاملة، وكراهية الظلم، فكان لأجل ذلك في قومه عزيزًا محترمًا.

كانت أمارات الاصطفاء تتوارد على محمد ﷺ، ولم يكن يزيدا مرّ الأيام إلا اتضاحًا،⁽²⁾ حتى حانت ساعة بدء الوحي، وهو

(1) - البلاذري، أنساب الأشراف، 1/105؛ وقد ذكر أن عبد المطلب "أول من تحنّث بحراء"، انظر: السابق، 1/85. ولا يبعد أنه ﷺ كان يقتدي بجده في ذلك.

(2) - انظر، الكلاعي، الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والنّثاة الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متحدثٌ بالغار، ذات ليلةٍ من أواخرِ شهرِ رمضانَ، وكانت -فيما ذكرت الرواياتُ- ليلةَ اثنين،⁽¹⁾ فكانَ ما قصَّت علينا عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها في قولها: "أولُ ما بُدئَ به رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلقِ الصُّبح، ثم حُببَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغارِ حراء، فيتحنَّث فيه -وهو التَّعبُد- الليالي ذواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غارِ حراء، فجاءه الملكُ فقال: "اقرأ"، قال: «ما أنا بقارئٍ»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلتُ: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطني الثالثة ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾»، فرجع بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجفُ فؤاده.

فدخل على خديجة بنتِ خويلدٍ رضي الله عنها فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فزَمِّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر:

عز الدين علي، ج. 1 (عالم الكتب، بيروت، ط. 1، 1997م)، 202؛ وانظر: الحلبي، إنسان العيون في سيرة النبي المأمون، ج. 1 (مطبعة محمد أفندي، مصر)، 239.

(1) - السهيلي، الرُّوض الأنف، مصدر سابق، ج. 1، 412.

«لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فقالت خديجة: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ".

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتُبُ الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: "يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك"، فقال له ورقة: "يا ابن أخي، ماذا ترى؟"، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: "هذا التاموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يُخْرِجَكَ قَوْمُكَ"، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْخْرِجِيْ هُمْ؟»، قال: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا".

ثم لم ينشأ ورقة أن توفي، وفتر الوحي⁽¹⁾.

كانت هذه قصة بدء الوحي مفصلة كما حدثت بها عائشة رضي

(1) - متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 3؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 252.

الله عنها، أرخت فيها بأدق ما يكون التأريخ لهذا الحدث الذي فصل بين مرحلتين من عمر محمد ﷺ؛ إذ وصفت مكان الحدث، وسياقه، وطبيعته، وما دار فيه من حوار بين النبي ﷺ وبين الملك جبريل عليه السلام، وما تبع ذلك من مساندة خديجة رضي الله عنها محمدًا عليه الصلاة والسلام، وتشبيتها إياه.

ذكرت عائشة في حديثها أنه بعد هذا اللقاء فتر الوحي، أي انقطع، ووردت الروايات بأنه خلال مدة انقطاعه لم يكن النبي ﷺ يرى من أمر الوحي ما خلا مشهد ملك يؤكده له أمر نبوته،⁽¹⁾ ثم نزلت المدثر، أو المزمّل على خلاف في الترتيب، فكان استئناف الوحي بعد تلك الفترة مبتدأ عهد الرسالة والبعث، الذي استمر فيه نزول القرآن مواكبًا للأحداث طيلة ثلاث وعشرين عامًا.

كانت خديجة أول من أسر إليه النبي ﷺ نبأ الوحي، فكانت لذلك أول المؤمنين بنبوته عليه الصلاة والسلام، وكان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أول من آمن من الصبيان؛ إذ لم يكن عمره قد تجاوزَ عشرَ سنين، وتبعه زيد بن حارثة، غلام خديجة الذي وهبته لزوجها محمد ﷺ، فكان في خدمته عليه الصلاة والسلام، ثم أبو

(1) - البلاذري، أنساب الأشراف، 1/109-110.

بكرٍ الذي كان له فضلُ دعوةِ ثلثةٍ من شبابِ مكّةٍ وأهلها، كالزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوفٍ، والأرقم ابن أبي الأرقم، وغيرهم. لم يكن هؤلاء المسلمون الأوائل إلاّ فئةً أغلبها من الشباب، لم يتجاوز عددهم الأربعين.

كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم معهداً تلقى فيه المسلمون الأوائل أولى التعاليم التي كان محمدٌ ﷺ يدعو إليها، ولا شك أنها لم تعد القيم الخلقية والمبادئ العقديّة التي كان ينزل بها الوحي في مرحلة الدعوة الأولى.

ولا شك أنّ النبي ﷺ كان يوصي هذه الثلثة بالمسالمة وتفادي أيّ تصادمٍ مع عامّة أهل مكّة وخاصّتهم، الذين كانوا على أشد ما يكون التمسك بمعتقداتهم، كما كان يحثهم على الإسرار في تعبدهم وقراءتهم لما ينزل من آي القرآن؛ يحكي البلاذري في ذلك أنّ سعيد بن زيد العدوي - وكان ضمن هذه الثلثة من المسلمين الأوائل - قال: "استخفينا بالإسلام سنة، ما نُصلي إلاّ في بيتٍ مُغلّقٍ أو شعبٍ خالٍ ينظرُ بعضنا لبعضٍ".⁽¹⁾

(1) - البلاذري، أنساب الأشراف، 1/116.

كما أورد بعض ما رُوِيَ مِمَّا حَدَثَ بِسَبَبِ إِنْكَارِ أَفْرَادٍ مِنْ أَهْلِ
 مَكَّةَ مَا رَأَوْهُ صَدْفَةً مِنْ مَظَاهِرِ التَّعَبُّدِ لَدَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ.⁽¹⁾
 وتذكر الروايات أنه ﷺ بعد هذه الحوادث دخل دار الأرقم مع
 القلة المباركة من المؤمنين الأوائل، فاستخفى فيه مدّة من الزمن، على
 خلاف بين تلك الروايات في كيفية هذا الاستخفاء، وفي مدّته،⁽²⁾
 غير أنّها كانت فرصة سانحةً للتربية على تعاليم الدين الجديد،
 والاستعداد للدعوة إليه.

انتهت هذه المرحلة التي كانت فيها الدعوة سرّيةً بتنزّل الأمر
 بالجهر بالدعوة؛ في قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾
 (الشعراء: 214) وقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾
 (الحجر: 94)

فما كان من النبي ﷺ إلا أن وقف على الصفا منادياً القوم إلى
 الاجتماع إليه، فوجه إليهم خطاب التّاصح المُشفق، الذي لا يكذبُ
 أهله؛ محدّراً ومنبّهًا: «أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا
 الجبل أكنتم مصدّقي؟» قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا! قال: «فإني نذيرٌ

(1) - السابق، 1، 117.

(2) - انظر: الحلبي، إنسان العيون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، 1427هـ، 319/1.

لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ».

ابتدأت بذلك مرحلة الدعوة الجهرية، وابتدأت معها فصول من الجدل الذي سرعان ما تطور إلى ضروب من التضييق والمحاصرة، وأنواع من المحاربة والإيذاء، كان أول من بدأ بها أبو لهب عم النبي ﷺ؛ إذ واجهه بقوله: "تبًا لك، ألهذا جمعتنا؟!"، ثم انصرف بنو عبد المطلب في أعقابهِ" (1).

اختلفت مواقف الناس من دعوة محمد ﷺ عقب جهره بها، لكن موقف الرّفِض لم يكن متعلقًا بشخصه، بل بدعوته التي استغربها المكّيون!

على أنّ من رفضوها لم تزل مكانته ﷺ عندهم مرعيةً محفوظةً؛ منهم عمّه أبو طالب الذي أقام على حمايته، والدّفاع عنه بجأه ومكانته، مع أنّه بقي على دينه ولم يسلم.

وقد خلّدت روائع أشعاره تلك الحماية وذلك الدّفاع، ومنها لاميته الرائعة التي يقول فيها:

(1) - انظر: البلاذري، أنساب العرب، 1/119-121.

خَلِيلِيَّ مَا أُذْنِي لِأَوَّلِ عَاذِلِ
بِصْغَوَاءِ فِي حَقِّ وَلَا عِنْدَ بَاطِلِ
خَلِيلِيَّ إِنَّ الرَّأْيَ لَيْسَ بِشِرْكَةٍ
وَلَا نَهْنِهِ عِنْدَ الْأُمُورِ الْبَلَابِلِ

إلى أن قال:

أُقِيمُ عَلَى نَصْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
أُقَاتِلُ عَنْهُ بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ⁽¹⁾
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَدِّبٌ
لَدَيْهِمْ وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
كَأَنِّي بِهِ فَوْقَ الْجِيَادِ يَقُودُهَا
إِلَى مَعْشَرٍ زَاغُوا إِلَى كُلِّ بَاطِلِ
وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ رَافِعُ أَمْرِهِ
وَمُعْلِيهِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ التَّجَادُلِ⁽²⁾

وقد بقي على هذه الحماية مدة حياته.

(1) - القنا: جمع قناة وهي الرمح أو كل عصا غليظة، والقنابل: جمع قنبل، وهو الرّجل الغليظ الشّديد

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، 1/272-280.

تتابعت السنون وتوالت الأعوام، ومحمد ﷺ لا يزيده إعراض المشركين عن دعوته وتكذيبهم إياه ومبالغتهم في إيذائه وتعذيب أصحابه إلا إصراراً على التبليغ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدع فرصةً تسنح إلا اغتنمها، داعياً إلى ربه بالحكمة والقول الحسن، ومجادلاً بالتي هي أحسن.

مضت الدعوة في مسيرة انتشارها محترقة القبائل، وتواردت أخباراً من يدخلون في الدين الجديد على أسماع كبراء قريش وزعمائها الرافضين له، والصادقين الناس عن سبيله، وكلما اشتد الصغظ على أبي طالب ليتخلى عن حماية ابن أخيه، كلما ازداد حرصه عليه ألا يُمس بسوء!

وليس مستبعداً أن يكون بعض من أسلموا بمكة من الأقوياء والشجعان والوجهاء كحمزة وعمر رضي الله عنهما قد قابلوا أذى المشركين في بعض الأحيان بردود لفظية، أو توعّدت قولية، لكنهم لم يتجاوزوا ذلك إلى مستوى الرد على العدوان بمثله؛ إذ لا يزال القرآن يتنزّل أمراً بالإعراض وكف الأيدي، طيلة سنوات المرحلة المكية.

أيقنَ ﷺ بعد سنتين من بدء الدعوة الجهرية ألا قبل لأصحابه -وهم قلة مستضعفون- بأهل مكة -وهم الكثرة والسواد الأعظم-، كما بدأ عليه الصلاة والسلام يدرك أنه لو بقي الوضع على ما هو عليه، لأوشكت قريش أن تثب عليهم، وتفتك بهم، فكان من بعد نظره، ومن مقتضى اللطف الرباني به وبجملة دعوته أن أشار عليهم بالهجرة إلى حيث يأمنون على أرواحهم، ويتفيؤون ظلال العدل والحريّة، ولم يكن ممّا حول مكة من أرض الله بلاد يُتمتع فيها بذلك ما خلا الحبشة.

فكان أن يممّ المؤمنون وجوههم شطرها، قاصدين اللجوء إليها، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

• الفوائد والعبر.

اشتمل ما تقدّم ذكره من أحداث بدء الوحي وما تلاه من مرحلة الدعوة السريّة وبداية الدعوة الجهرية على جملة من الفوائد أهمّها:

أنّ مبنى التبوّة على سنّة الاجتباء الرباني، فبمقتضاها اختير محمد عليه الصلاة والسلام لتنزل الوحي عليه؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: 75)، وقال سبحانه:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: 124)؛ فَإِنَّ لِلرَّسَالَةِ مَوْضِعًا مَخْصُوصًا لَا يَصْلُحُ وَضْعُهَا إِلَّا فِيهِ. (1)

وليس ما تقدّم على بدء الوحي من أحوال الاختلاء للتحدّث والتفكير إلا من جملة الأساليب التي اقتضت العناية الربانية أن يؤهّل بها محمد ﷺ لتحمل أمانة النبوة، والتهوؤ بأعباء تبليغ الرسالة، والقيام بمهمة الدعوة.

أنّ للعلم مكانة عظيمة في الإسلام؛ بدليل ابتداء الوحي بمطلع سورة القلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فكان الأمر بالقراءة وتحصيل أسبابها أول أمر نزل على النبي ﷺ.

وهي قراءة قرئت بها الاستعانة باسم الله، وجعل موضوعها صفحات الكتاب المنظور، توسلاً بها إلى معرفة الكون وتناسق نظميه، وإلى معرفة الخالق بآثار صنعته، الدالة على حكمته، والمنبئة بصفاته العلية.

وفي حذف مفعول (اقرأ) في الآية دلالة على الإطلاق والتعميم، فليست القراءة المأمور بها مقيّدة بنوع من الكتب في بعض المعارف

(1) - الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط. 1، 1981، 185/13.

والعلوم دون بعض، ولكنها عامّة مطلقة تتعلّق بكلّ ما يفيد الإنسان
ويُصلح الأكوآن!

ولا غرابة أن يكون للعلم في الإسلام أعظم اعتبار، ما دام
أوّل ما نزل من تكاليفه هذا الأمر بالقراءة وتحصيل وسائلها.

أنّ المجتمع العربيّ قبل الإسلام كان على وعي عميق بأهميّة
الفضائل الخلقية، فكان يُجلّ المتّصّفين بها، ويتفأّل خيرًا بما يستقبلون
من مراحل حياتهم.

فخديجة رضي الله عنها أثنت على محمّد ﷺ غداة نزول الوحي
عليه، وهي في موقف المساندة والتّثبيت، مذكرة إياه بمحاسن شمائله
وأخلاقه، التي عدّتها أعظم الدلائل على أنّ ما حدث له مع الملك لن
يكون إلاّ محمود الغبّ، مأمون العاقبة.

وما كان لخديجة أن تعدّ صلة الرّجيم ومساعدة المحتاجين من
جملة الفضائل لو لم يكن ذلك معروفًا في بيئتها المكّية التي وُلدت
ونشأت وتربّت فيها.

أنّ للعرب قبل الإسلام معرفة بما بين الأديان من وحدة مصدرها،
وكيفية نزول الوحي بها، فلاجل تلك المعرفة بادرت خديجة رضي الله

عنها بإصطحاب زوجها ﷺ - فور سماعها خبر لقائه بالملك - إلى ورقة ابن نوفل، الذي كان قارئاً وكاتباً، متنصراً، يقرأ الكتاب المقدس، ويعي معنى الوحي، ويدرك كيف كان يتنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأفاد من معارفه الدينية المسبقة ما جعله يُطمئن محمداً ﷺ بأن ما رآه لا يختلف عما كان يراه الأنبياء قبله، وأنه هو التاموس الذي أنزل الله على موسى عليه الصلاة والسلام.

قوة ما بين الأديان من الروابط والمشاركات، ويتجلى ذلك في وحدة أصل النبوة، وهو الوحي، وفي وحدة ما يشترط فيها من كمال نضج وحنكة، واستعداد لاكتساب الحكمة.

وقد جعل استكمال الأربعين سنة من العمر موعداً لذلك، وأمانة الاستعداد له وتحمل تبعاته؛ إذ النبوة والرسالة أمانة ترفع من أكرم بها لينتصب في مقام الأسوة معلّم اقتداء، ومنار اهتداء.

أنّ محبة الأوطان من القيم الأصيلة التي ترسخت في نفس محمد ﷺ، فلم يكن يرى شيئاً أشد على نفسه من الإخراج من وطنه، وحرمانه من تنشق هوائه، والارتواء بمائه، والتنعم بخيراته.

لقد تصور ﷺ أنه قد يتحمل تكذيب قومه له وإيذاءهم إيّاه،

لكنه لما سمع قول ورقة: "ولتُخْرِجَتْهُ" لم يملك نفسه حتى قال فزِعًا ورجلاً: «أَوْخَرِجِيَّ هَمْ؟!!»، وهي صيغة تُشعِرُ المخاطَبَ والسَّامِعَ أَنَّ الاستفهامَ على جهة الإنكارِ أو التَّفجّعِ للكلامِ أو التَّألمِ منه؛ وفي ذلك "دليلٌ على حبِّ الوطنِ وشِدَّةِ مُفَارَقَتِهِ على النَّفْسِ...؛ فلذلك تحرَّكتِ نَفْسُهُ عندَ ذِكرِ الخُروجِ منه ما لم تتحرَّكْ قَبْلَ ذلك".⁽¹⁾

أَنَّ الإسلامَ دعوةٌ سَلْمِيَّةٌ، تعتمدُ الإقناعَ منهجًا، وتزكِيَةَ الأنفُسِ وتهذِيبَ الأخلاقِ غايةً ومقصدًا، ولذلك ظلَّ النَّبِيُّ ﷺ طيلةَ المرحلةِ المكيَّةِ يحضُّ صحابته على المسالمةِ وحسنِ المخالقةِ، ودفعِ السيئةِ بالحسنةِ، فلم يأذنِ ﷺ لأحدٍ منهم أن يردَّ على العدوانِ بمثله، بل كان يأمرهم بالصَّبْرِ، ويذكرهم بما لاقى أتباعُ الأنبياءِ من صنوفِ الأذى في سبيلِ دينهم.

أهميَّةُ التَّفَاوُلِ في تحقيقِ النَّجَاحِ ونبيلِ المطالبِ، فقد كان النَّبِيُّ ﷺ موقفًا بنجاحه في مهمَّةِ تبليغِ رسالةِ ربِّه، حتى وهو في أشدِّ الظُّروفِ وأحلكِها.

ولم يكن إِيغالُ المشركينِ في إلحاقِ الأذى به عليه الصلاة

(1) - انظر: السَّهَيْلِيُّ، الرُّوضُ الْأَنْفُ، 1/413-414.

والسّلام وبصحبته الكرام رضي الله عنهم بالأمر الذي يثني عزيمتهم، أو يحملهم عن التّخلّي عن إيمانهم ومبادئهم، وإنّما كان مشجّعاً لهم على مواصلة الإصرار على بلوغ الغاية وتحقيق الهدف.

وقد روى البخاري من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: "شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟" قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيُشَقُّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمسَطُ بأمشط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّى هذا الأمر، حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضر موت، لا يخاف إلا الله أو الذّئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».⁽¹⁾

إنّ الإنجازات العظيمة لا يصل إليها إلا المتفائلون، ولا يحققها إلا من أوتوا همماً عاليةً لا تعرف المستحيل، وعزائم قويّة لا تضعف ولا تليّن.

التّفاؤُل يجعل الأمل البعيد قريباً، والغاية المستصعبة هيّنةً،

(1) - أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3612.

والهدف المستحيل ممكناً.

ومحمد ﷺ قد ضربَ أعظمَ الأمثلة في ذلك؛ إذ لم يكن يخطرُ
ببالِ أحدٍ يوم قام على الصفا ليجهر بالدعوة أنه سيأتي يومٌ يفتح فيه
مكة، وتضع قريشٌ بين يديه مفاتيح كعبتها!

لكنّ تسلّحه بالإيمان والصبر، واستعانتَه بالتفاؤلِ وبُعدِ التّظيرِ،
كلّ ذلك جعله يعودُ إلى مكة فاتحاً مسالماً، بعد أن غادرها مهاجراً
متخفياً!

فعلّمنا بذلك ﷺ كيف تُحوّلُ الأزماتُ إلى فرصِ نجاحٍ!

مكانة السيّدة خديجة رضي الله عنها في الإسلام، فقد كانت أوّل
من أخبره النبي ﷺ بخبر النبوة، وكانت أوّل من آمنَ به وصدّقه، ثم
رصدت ما لها وكلّ ما تتمتع به من جاهٍ، في سبيلِ حماية زوجها ﷺ
ونصرته.

لقد ضربت السيّدة خديجة رضي الله عنها أجملَ مثالٍ للمرأة
التي تساندُ زوجها وتدعمه بجميع إمكاناتها، لا سيّما في الظروف
العصيبة، والموقفِ المصيريّة التي يحتاجُ فيها إلى من ينصحه برأيٍ،
أو يشير عليه بمشورة صادقةٍ أو توجيهٍ خالصٍ.

ولقد عرف لها النبي ﷺ فضلها، فكان يُثني عليها، ويكثر من ذكرها، ويحيي ذكراها بعد مماتها؛ روى الإمام أحمد في مسنده، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء"، قالت: "فغرّت يوماً، فقلت: ما أكثر ما تذكُرُها حمراء الشّدق، قد أبدلك الله عزّ وجلّ خيراً منها، قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنّت بي إذ كفر بي الناس، وصدّقني إذ كدّبي الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عزّ وجلّ ولدها إذ حرمني أولاد النساء»⁽¹⁾.

شرف الرّسالة التي ابتدأ نزولها على محمّد ﷺ وعظّمها؛ إذ هي خاتمة رسالات السّماء، وخلاصة هداياتها، ولأجل انفتاحها على متجدّد العصور والأزمنة، اقتضت حكمه الله عزّ وجلّ أن يبدأ إنزالها في شهر رمضان، ثم يتتابع تنزّلها على مدى ثلاثٍ وعشرين سنةً، منجّمةً بحسب الوقائع والأحداث، حتى تتخذ الآيات والأحكام وظروف تنزلها أسساً لاستنباط ما يضمن للشرّعة تجدد راهنتها من القواعد والضوابط والأصول، التي لولاها لما استطاعت أن تسع ما

(1) - أخرجه أحمد في مسنده برقم: 24864، وأخرجه الشيخان مختصراً، انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم: 3821، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم: 2437.

لا يتناهى من مستجدّات الأحوالِ عبر متعاقبات الأزمنة والعصور.
ولعلّ في اختيار الغار وموقعه العالي من الجبلِ لبدء تنزيل هذه
الرّسالة إشارةً إلى علوّها وشرفها، بما تُوصِلُ إليه مَنْ آمنَ بها والتزم
بأحكامها، من السّموّ الرّوحيّ والارتقاء الخُلقيّ.

تلك إذّا هي قصّة بدء الوحيّ بتفاصيلها، وما تبعها من أحداث
الدّعوة في مرحلتها السّريّة وبداية مرحلتها العلنيّة، وما ترتّب على
ذلك من آثارٍ في المجتمع المكيّ، الذي ضاق ذرعًا بالدّعوة الفتيّة،
وبأتباعها الأوائل.

الهجرة إلى الحبشة

• مسرد الأحداث.

لَمَّا اشْتَدَّ أذى أهل مكة بأصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ - وكان جلّهم من
الشّبابِ والمستضعفين - أيقن عليه الصّلاة والسّلامُ ألاّ بقاءَ للدّعوة
ولا لحملتها إلّا بالهجرة إلى مكانٍ يأمنون فيه على أرواحهم، ويجدون
سعةً لممارسة شعائر دينهم.

ولم يكن فيما حول مكّة مكانٌ أنسب لذلك من الحبشة؛
فأهلها وملكها على دينٍ سماويّ، وهم أحرى بقبول الدّعوة وحماية

أهلها من قريش؛ قال ابن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ-»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام".⁽¹⁾

استجاب المؤمنون لهذا التوجيه النبوي، فخرج منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، على رأسهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت محمد ﷺ، نزلوا بأرض الحبشة فجاوروا بها خيرَ جارٍ، آمنين على دينهم، فلم يلقوا من أهلها أذى.⁽²⁾

قضى هؤلاء المهاجرون بالحبشة نحوًا من أربعة أشهر، فبلغهم نبأ إسلام أهل مكة، فقفلوا عائدين.

لكنهم فوجئوا ببطلان التبا الذي سمعوه، فلم يجدوا بداً من التحيل لدخول مكة، إما تخفياً وإما في جوار.

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 349/1.

(2) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 173/1.

ثم اشتدت بهم وطأة قريش، فأذاقوهم من الأذى ما لم يجدوه
منهم قبل هجرتهم الأولى، فأذن لهم النبي عليه السلام في الهجرة
إلى الحبشة من جديد، وبلغ عددهم هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً
وأحد عشر امرأة.⁽¹⁾

لم تكن قريش لتغفل عن هذا الحدث، فأوفدت فور علمها
به وفدًا إلى التجاشي وحاشيته، مطالبة إياه بإخراجهم من الحبشة،
وإرغامهم على الرجوع إلى بلدهم، فلم يرض التجاشي بذلك حتى
يتبين جليّة الأمر وحقيقته، فجيء إليه بالمهاجرين، فسألهم عن دينهم
الجديد، فتولّى الإجابة جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، فقال في
مقام التعريف بالدين وإعلان مبادئه: "أيها الملك! كتنا قومًا أهل
جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام،
ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، فكتنا على ذلك حتى بعث
الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه، فدعانا إلى
الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كتنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من
الحجارة والأوثان، وأمّرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلّة الرّحم،
ونهانا عن الفواحش... فصدّقناه وأمّنا به، واتّبعناه على ما جاء به من

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/176-177.

الله، فعدا علينا قومنا فعدّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان.. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك أن لا نُظلمَ عندك.⁽¹⁾

ثم تلا جعفرُ صدرَ سورة مريمَ، فتأثر التّجاشي إذ سمع ما قص الله تعالى فيها من نبيِّ مولد المسيح عليه السّلام، ثمّ قال: "إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة"، ثمّ التفت إلى مبعوثي قريش فقال: "انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون".⁽²⁾

لم ييأس مبعوثا قريش من استمالة قلب التّجاشي وإيغار صدره على المهاجرين اللّاجئين إليه، فعادا إليه يقولان: "إنّهم -أي: المهاجرين- يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيماً"، فأرسل إليهم يسألهم عن ذلك، فأجابه جعفر مرةً أخرى فقال: "هو عبد الله وروحه وكلمته ألّقاها إلى مريم العذراء البتول".⁽³⁾

فازداد إعجابُه بالدين الجديد، وتمسّكُه بالمهاجرين الذين لا ذوا بجواره، ورجع مبعوثا قريش خائبين.

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 176/1-179.

(2) - السّابق.

(3) - ابن هشام، السّيرة النبوية، 326/1.

أقام المهاجرون بأرض الحبشة في أمنع جوارٍ، متفيتين ظلال
عدل النجاشي، حتى بلغهم نبأ هجرة النبي إلى المدينة، فرجع منهم
ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمان نساءً إلى مكة، وتأخر رجوع الآخرين
إلى سنة سبع من الهجرة، فوفدوا على المدينة ولحقوا بأهلها من
المسلمين. (1)

كانت الهجرة إلى الحبشة أول سفارة يخرج فيها أصحاب محمد
ﷺ إلى خارج جزيرة العرب، وقد كان من مظاهر نجاحها أن عاد مع
جعفر ابن أبي طالب إلى مكة وفد من نصارى الحبشة، قدموا ليفهموا
مبادئ الدعوة وتعاليم الدين الجديد، فما لبثوا أن آمنوا جميعاً؛ لما رأوا
من أحوال محمد ﷺ وأخلاقه.

وقد ورد أنّ أبا جهل أقبل عليهم يقول: "ما رأينا ركباً أحق
منكم!... أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل، فلم تطمئن
مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال!"، فردوا
عليه قائلين: "سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم
ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً"، وفي ذلك نزل قول الحق تبارك
وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا يُتْلَىٰ

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/177.

عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿52-55﴾ (القصص: 52-55) لم تبلغ البعثة سنتها العاشرة إلا وقد بدأت أنوارها تغم ما حول الجزيرة، فقد بلغ نبؤها الحبشة، وكان من خبر نجاح البعثة إليها ما ذكر، ولا شك أنّ الركبان قد سارت بذلك نحو مراكز التجارة شمالاً وجنوباً، فبدأت الأصداء تردّد في كلّ مكان.

واقترضت حكمة الله أن تكون هذه السنة سنة تمحيص وابتلاء للرّسول الكريم، ففرض أن يتوفّى فيها من كان له نصيرين، زوجته خديجة، وعمّه أبا طالب، وكان ما بين وفاتيهما -فيما قال أهل السير- شهر وخمسة أيام.

وجد النبي ﷺ نفسه وحيداً في مواجهة مجتمعٍ أطبق أشرافه على معاداته، فلم يعد له من دون الله حامٍ ولا نصير، ووجدت قريش الطريق ممهّدة أمامها لتنال منه ﷺ ما لم تكن تجد إليه سبيلاً في حياة أبي طالب!

وليس شيءٌ أصعب على المرء من أن يتحمّل أمانةً لا يملك إلا

أن يسلك في سبيل أدائها كل مسلكٍ، مهما كان ما يحقّ به من
المصاعب والمخاطر.

تلك هي حال محمد ﷺ، وقد حمّل أمانة التبليغ، فلم يكن له
مخلصٌ إلا أن يواصل سيره في مسالك الدعوة ودروبها مصطبراً على
ما يلقاه من صنوف الأذى والعدوان!

رأى عليه الصلاة والسلام أنه لو استنصر ببعض من كانوا حول
مكة من قبائل العرب لربما وجد فيهم من يضمن له الحماية حتى
يبلغ رسالة ربه، فخرج إلى الطائف يرجو من أهلها ثقيف أن يقبلوا
ما جاء به ويناصروه، فجلس إلى سادتهم يدعوهم إلى ذلك، فلم
يكونوا بأحسن ردّاً من قريش، حتى إنهم أغروا به غلمانهم وسفهاءهم
يسبونه ويصيحون عليه، بل رموه بالحجارة حتى شجوا رأسه الشريف!

لم يجد عليه الصلاة والسلام في طريق عودته من الطائف منزلاً
أو مستراحاً، حتى وصل إلى بستانٍ لعبتة بن ربيعة، عمد إليه وقد
أنهكه التعب، فاستظلّ بشجرة عنبٍ، ثم رفع يديه إلى السماء يدعو:
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي وَقَلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ،
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟

إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

تذكر الروايات أنه لقي ببستان عتبة غلاماً اسمه عداس، وأنه كان من نينوى، سمع النبي يسمي الله قبل أن يأكل، فرأى في ذلك شيئاً بما تعلمه من دينه ببلدته نينوى، قرية النبي يونس عليه السلام، فكان ذلك سبباً في إسلامه.

ولم يستطع النبي ﷺ أن يدخل إلى مكة بعد رجوعه من الطائف إلا في جوار مطعم بن عدى، ولم يكن مسلماً، وإنما حملة على ذلك ما كان يتصف به من خصال الشهامة والمروءة وحفظ الجوار.

وكان النبي ﷺ في هذه المرحلة أشد ما يكون احتياجاً إلى ما يهون عليه أثر ما لقي بمكة وبالطائف، فيشاء الله تعالى أن يكرمه ويثبته، فكان الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم كان المعراج إلى السماوات العلى.

والإسراء والمعراج رحلتان أخبر القرآن الكريم بأولاهما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء: 1) .

أما المعراج فوردت الإشارة إلى بعض تفاصيله في قول الله تعالى في سورة النجم: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا رَآغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (سورة النجم: 1-12) .

وغاية ما تعنيه الرحلتان تثبيته ﷺ، والتأكيد على رفعة منزلته عند ربه عز وجل، وعلى عظم قدره عند إخوانه الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

أصبح محمد ﷺ يحدث الناس بالإسراء، فلم تكن مواقفهم من ذلك إلا مثل ما كانت يوم إخباره

إياهم بابتداء نزول الوحي عليه، فمن مصدق ومن متردد، وتراجع

بعض من كان قد أسلم بلسانه، ولم يقرّ الإيمان في قلبه!

لقد كان الإسراء امتحانًا لمن اجتمع حول محمد ﷺ، تمايزت به مراتبهم وأقدارهم، وقد نجح فيه أبو بكرٍ أيّما نجاح؛ حدثت بذلك بُنَيُّته عائشةُ أمّ المؤمنين رضي الله عنها فقالت: "لما أُسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث بذلك، فارتدّ ناسٌ كانوا آمنوا به وصدّقه، وسعى رجالٌ إلى أبي بكرٍ فقالوا: "هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أن أُسري به الليلة إلى بيت المقدس"، قال: "وقد قال ذلك؟"، قالوا: "نعم"، قال: "لئن قال ذلك فقد صدق"، قالوا: "أو تصدّقه؟" قال: "نعم، إنّي لأصدّقه فيما هو أبعدُ من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غُدوةٍ أو رَوْحةٍ"، فلذلك سمي أبو بكرٍ "الصدّيق" (1).

لم يجد اليأسُ سبيلًا إلى نفس النبي الكريم ﷺ، رغم ما حاول أعداؤه أن يثنوه عن دعوته، أو يُعصّوا من صوته، أو أن يحطّوا من قدره عند الناس.

كان عليه الصلوة والسلامُ يتحيّن سوانح الفرص في تبليغ رسالة ربّه، عاقداً أمله على من يفتدون إلى مكّة في مواسم التجارة والحجّ،

(1) - الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، کتاب معرفة الصحابة، رقم: 4461؛ قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي فقال: «فيه محمد بن كثير الصنعاني؛ صدوق كثير الغلط».

فيلتقي بهم، ويحدثهم مرغبًا إليهم في الإسلام، وطالبًا احتضان الدعوة وحمایتها، فمن رافضٍ ومن مشرطٍ نيل مكاسبٍ ومطامحٍ من وراء النصرة، ومن مبالغٍ في إساءة الرد عليه.

ولم يكن أحدٌ بأشدَّ عليه من عمه أبي لهبٍ الذي كان كلما رآه يحدث قومًا نادى فيهم: "لا تطيعوه فإنه صابئٌ كذابٌ!".

فيردّون على رسول الله أقبح ردّ، ويؤذونه أشدّ إيذاءً، ويقولون: "أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك!"⁽¹⁾

بقي ﷺ مقيمًا على دعوة القبائل وعرض الإسلام عليها كلّ سنةٍ بمجنته وعكاظٍ ومي، طالبًا الإيواء والنصرة، حتى لقي عليه الصلاة والسلام وفدًا من أهل يثرب، وكانهم أتوه على قدرٍ، فساقهم السعد إلى لقياه ﷺ، فأظهر الله بهم أمره، وأعزّبه قدرهم.⁽²⁾

كان ذلك اللقاء إيذانًا بإشراق شمسين عهدٍ جديدٍ، هو العهد المدني، حيث لاحت أعلام رسالة الإسلام، دالّة على مقصده في تكريم الإنسان، وتحقيق العمران، واستدامة صلاح الأكوان.

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/184.

(2) - السابق، 1/185.

• الفوائد والعبر.

اشتمل هذا الفصل من السيرة العطرة على جملة دروس وعبر نجملها فيما يأتي:

مقصدية القيم في الإسلام، ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما أشار على صحبه بالهجرة إلى الحبشة طلباً لما افتقدوه من قيمتي العدل والأمن بالمجتمع المكي، وقد ظهرت آثار ذلك في حوادث كثيرة حفل بها تاريخ هذا المجتمع قبل الإسلام.

ولم يكن حلف الفضول الذي شهدته النبي ﷺ مُشيداً به إلا ردة فعلٍ من ذوي النيات الطيبة والمساعي الحميدة، أثارها مشكلة فقدان تلك القيمتين وما ترتب على ذلك من انخرام السلم الأهلي بمكة.

وبين القيمتين ترابطٌ متين؛ إذ لا تختل قيمة العدالة إلا فقد الأمن، وأجلى مظاهر ذلك فقدان اضطهاد المختلف في الدين والمعتقد؛ إذ يتخذ ذلك الاختلاف ذريعةً إلى استحلال الحرم، وخفر الدّم، واستباحة المهج والأرواح!

ولذلك جاءت دعوة الإسلام لإقامة ميزان العدل، وما يتفرغ

عنه من قيم الرّحمة والبرّ والإحسان، وجميعها بمثابة شروطٍ يتوقف على وجودها تحقيق معنى الأمن الشّامل، وما يتجسّد فيه من معاني الكرامة، كالحرّيّة والمساواة والاحترام.

إنّ نشدان هذه المعاني القيميّة والأخلاقيّة هو ما اقتضى من النّبّي الكريم أن يوجّه أصحابه إلى أن يولوا وجوههم شطر الحبشة؛ لما اشتهر به ملكها من الإيمان بقيمة العدل، والحرص على توفير الكرامة لكلّ من يقيم على أرضه وبلاده، فقد كان ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، ولا يُضطهدُ بسبب دينه أحد!

فكان الذي دعا النّبّي ﷺ إلى هذا التّوجيه، ما علمه من أنّ أهل الحبشة على دين سماويّ، والأديان السّماويّة بينها من مشترك القيم ما يمكن أن يتّخذ أساسًا للتّقريب بين أتباعها، وتمهيد سبل التّعاون والتّعايش والاندماج الاجتماعيّ فيما بينهم.

وفي ذلك درسٌ بليغٌ للأُمّة المسلمة ألاّ تضيق ذرعًا بالاختلاف؛ إذ هو سنّةٌ كونيّةٌ، وضرورةٌ وجوديّةٌ، ومظهرٌ لعظمة الحكمة الإلهيّة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (سورة الرّوم: 22).

وكما قال عز وجل كذلك في أمر الدين: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ
خَلَقَهُمْ﴾ (سورة هود: 119) .

فالأصل أن يتعاشر الناس آمنين على أرواحهم وهم يمارسون
شعائرهم التَّعبديَّة في أوطانهم، كما تملي عليهم ذلك ضمائرهم،
وتقتضيه منهم دياناتهم، من غير أن يكره أحدٌ منهم على ما لا
يرتضيه.

وقد قال الحق تعالى في ذلك: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
(سورة البقرة: 256)، وقال جلّ علاه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي
الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾
(سورة يونس: 99).

بهذه الآيات برهن القرآن الكريم على حقيقة دعوة الإسلام،
بأصرح الألفاظ وأقواها دلالةً على أنّ مقصد مقاصده أن يعيش
الإنسان مكرماً منعماً، غير مكره في دين، ولا مضيق عليه في دنيا.
لقد كانت تجربة الهجرة إلى الحبشة مبعث أمل في نفوس
المهاجرين؛ إذ أيقنوا بعدها بإمكان تطبيق التسامح الديني في أرض

الواقع متى تهيّأت أسبابُ ذلك وتوفّرت دواعيه، كما كان نموذج المجتمع الحبشيّ مثالا طمح النبيّ عليه الصّلاة والسّلام إلى الاحتذاء به، فكانت أساس تجرّبه في بناء مجتمع التعدديّة بالمدينة غداة هجرته إليها.

ثم لم يزل عليه الصّلاة والسّلام متمسّكاً بهذا التّموج، حريصاً على حسن تمثّله، حتّى تجلّي ذلك في مواقف ضرب فيها أروع الأمثلة في تقديره لقيمة التّسامح واحترامه للاختلاف.

ومن ذلك كتابه ﷺ إلى أهل نجران - وكانوا نصارى-، وفيه: "ولنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمّة محمّد النبيّ ﷺ على أموالهم، وأنفسهم، وأرضهم، وملّتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكلّ ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغيّر أسقف من أسقفية، ولا راهب من رهبانية، ولا كاهن من كهانته...".⁽¹⁾

ويروي ابن إسحاق في سيرته أنه "لما قدّم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يُصلّون في مسجده، فأراد التّاس منهم، فقال رسول الله ﷺ:

(1) - أبو يوسف القاضي، كتاب الخراج، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، 1420هـ، ص 85.

«دعوهم»، فاستقبلوا المشرق، فصلّوا صلاتهم⁽¹⁾.

فدل ذلك على ما لقيمة التسامح عند النبي ﷺ من عظيم الاعتبار، وعلى ما لها من أهميّة في حفظ قيمتي العدل والأمن اللتين بهما استقرار المجتمعات واستدامة أمن الأوطان.

أصالة التعامل الإيجابي مع المختلف في الدين، وذلك مظهر قيمة التسامح؛ إذ لا يتصور لها وجود إلا بهذا النمط من التعامل، الذي يقوي الرابطة الأخويّة بين البشر.

إن هذا النمط من التعامل ترجمان المشاعر الإنسانيّة النبيلة، التي هي أصل ما ينبغي أن يربط بين الناس من العلاقات.

فقد تعامل النجاشي مع المهاجرين اللاجئين إليه بمقتضى ضميره الإنساني، الذي كان لديانته النصرانيّة عظيم الأثر في جعله يقظاً، يستحضر قيم المحبة والرحمة التي كان السيّد المسيح عليه السلام مضرّب المثل في التحليّ بها والدعوة إليها؛ كما أدرك المهاجرون أن هذه القيم نفسها هي التي ما فتى محمّد ﷺ يدعو إليها وينادي بها.

فكانت الحبشة ملتقى مشترك القيم بين الديانتين، النصرانيّة

والإسلام!

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 1/158-159.

يعلّمنا ذلك أنّه متى تمحّض القصدُ وصدقت النّيّات في احترام القيم والوفاء بها فإنّ ذلك لا يبقى أيّ اعتبارٍ للاختلاف في الشّعائر ومناهج التّعبدِ بها!

ولذلك لم يجد المهاجرون أيّ حرج في أن يشاهدوا أهل الحبشة متعبّدين في كنائسهم، ولم يضيّقوا ذرعًا بمشاهدة ما زُيّنت به تلك الكنائس من التّمائيل والصّلبان، ما داموا مؤمنين بالله مُكبرين ما جاءت به الرّسل من التعاليم الخُلقيّة والمعاني القيميّة.

وفي ذلك درسٌ بليغ للمسلمين، في احترام الأديان ورموزها، ومراعاة ما لها من قدسيّة وحُرمةٍ عند المؤمنين بها.

فرسالة الإسلام لم تأت لهدم كنيسة ولا لتحطيم تمثالٍ، وإنّما جاءت لتُحرر النفوس من عبادة كبريائها، وتسلّط أهوائها عليها!

ولم يكن من قصد الإسلام زرعُ مشاعر الكراهيّة في نفوس المتديّنين به، ولا تغذيّتها بمفاهيم البراء، ومعاداة أهل الكفر، وجهادِ المخالفين، ولا مقاطعتهم لمجرّد كونهم مختلفين.

قصّة النّجاشيّ تعلّمنا ألاّ شيء من ذلك يصحّ عدّه من تعاليم

الإسلام!

فقد كانت بين التجاشي وبين النبي ﷺ صلةٌ وُدٍّ واحترامٍ، زكَّتها هداياهُ التي بعثَ بها إليه عليه الصلاةُ والسلامُ، من جملتها خُفَّانٌ وحلَّةٌ، وقارورة طيبٍ، وثلاث عَنَزَاتٍ -وهنَّ العِصِيُّ- أهدى ﷺ عمرَ بن الخطَّابِ إحداها، وأهدى عليًّا الثانيَّةَ، وأمَّسك لنفسه الثالثَةَ، فكان بلالٌ يمشي بها بين يديه ﷺ في العيد، حتى يأتي المصلَّى فيركُزها بين يديه فيصليُّ إليها ﷺ. (1)

كما أهدى إليه حلقةً فيها خاتم ذهبٍ، فأخذه النبي ﷺ بعودٍ -وإنه لمُعْرِضٌ عنه-، ثم دعا بابنة ابنته أمامة فقال: «تحَيَّ بهذا يا بُنَيَّةُ». (2)

وروى جابرٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ أهدى إليه راهبٌ من الشَّامِ جُبَّةً، فأرسل بها إلى التجاشي؛ "وكان قد أحسن إلى من فرَّ إليه من أصحابِ محمدٍ ﷺ". (3)

لم يكن اختلاف الدين مانعًا من أن يَمَحَّصَ محمدٌ عليه الصلاةُ والسلامُ التجاشيَّ بَرَّةً وصلته، بل والدعاء له والصلاة عليه يوم مات في رجب من السنة التاسعة.

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 3/235.

(2) - سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب النهي عن خاتم الذهب، رقم: 3644.

(3) - أخرجه أحمد في المسند، رقم: 14738.

يذكر المحدثون وأصحاب السير أنه ﷺ نعه فقال: «مات اليوم رجلٌ صالحٌ، فقوموا فصلّوا على أخيكم أوصحة واستغفروا له»، فصلّى عليه صلاة الغائب.⁽¹⁾

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة آل عمران: 199).⁽²⁾

لقد وعت المجتمعات المسلمة هذا الدرس، فلزمت التأسّي بالنبي ﷺ في حسن تعامله مع المختلف معتقدًا، وكانت لهم ممارساتٌ حفظتها كتب التاريخ، فاشتهر بها العلماء قبل غيرهم.⁽³⁾

الوفاء من أعظم القيم الخلقية التي اتّسم بها محمد ﷺ، ومن أخصّ ما اشتهر به من الصفات التي لازمته طيلة حياته عليه الصلاة

(1) - انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 235/3، وصحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة أربعًا، رقم: 1333-1334؛ وكتاب المناقب، باب موت النجاشي، رقم: 3877-3881.

(2) - انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طبية، الرياض، ط. 1، 1997، 194/2.

(3) - انظر نماذج في ذلك عند: الطرطوشي، أبو بكر، سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط. 1، 1994، 589/2-590؛ والونشريسي، المعيار العربي، تحقيق د. محمد حجي وآخرين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، 111/11؛ وابن خليل، اختصار القدر المعلن في التاريخ المحلى لابن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959، ص 156.

والسّلام؛ حتى إنّ حسانَ بن ثابتٍ رضي الله عنه أثنى بها عليه فقال
في مقام المنافحة عنه ﷺ، رادًّا على بعض من هجاه:

هَجَوْتُ مَبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
أَمِينَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

لقد عرفَ النَّبِيُّ ﷺ للنَّجاشِيِّ فضلَهُ؛ إذ آوى الدَّعوةَ وحملَتها
من الصَّحب الأكرمين، وآمنهم من أذى قريشٍ، وأحلَّهم بالمحلِّ
الأمنع من جواره.

فكانت هداياهُ التي بعث بها إليه عنوانَ التَّعريفِ، بما له عنده
ﷺ من قدرٍ مُنيفٍ.

ثم كان ثناؤه ﷺ عليه، واستغفاره له، وإقامة صلاة الجنابة عليه
عقبَ وفاته أعظمَ تكريمٍ وتشريفٍ.

روى البخاريُّ من حديث أبي هريرة قال: "نعى لنا رسول الله
ﷺ النَّجاشِيَّ صاحب الحُبشة يومَ الذي مات فيه فقال: «استغفروا
لأخيكم»".⁽¹⁾

(1) - كتاب الجنائز، باب موت النَّجاشي، رقم: 3880.

وروى مالك عن ابن شهابٍ من حديث سعيد بن المسيّب أنّ
أبا هريرة رضي الله قال إنّ النّبيّ ﷺ صَفَّ بهم بالمصلّي فكَبَّرَ عليه
أربعًا.⁽¹⁾

فكان التّجاشيّ أوّل من أقيمت عليه صلاةُ الغائبِ؛ إكرامًا له،
ولما له من سابقة النّصرة والإيواء لصحبِ محمّدٍ عليه الصّلاة والسّلام.
وقد خصّه ﷺ حال نعيه والإعلام بوفاته بوصف الصّلاح؛
قال: «توفي اليوم رجل صالحٌ من الحبش، فهلّموا فصلّوا عليه».⁽²⁾
إنّ مبعثَ قيمة الوفاء هو ما يكون بين النّاس من البرّ والخير،
فتتحرك في نفوسهم مشاعر الامتنان والعرفان، وتشيع بينهم المحبّة
والإحسان.

• المواطنة الإيجابيّة مبدأ أصيلٌ في الإسلام.

لم يكن اختلاف دين النّجاشيّ بمانع المهاجرين إليه اللّاثنين
به من أن تتعلّق به قلوبهم محبّةً له وعرفانًا بجميله، ولا بمقتضِ
السّلوک السّليّ تجاه قضايا وطنه ومجمّعه، فقد انخرط هؤلاء المهاجرون

(1) - كتاب الجنائز، ما جاء في التّكبير على الجنائز، رقم: 771.

(2) - أخرجه البخاريّ من حديث جابر، كتاب الجنائز، باب الصّفوف على الجنائز، رقم: 1320، وأخرج أحمد في
المسند برقمك 14150.

في القضايا التي تهّم النّجاشيّ ووطنه ومجتمعه، حرصاً على استقرار ملكه، وصلاح أمر رعيتّه، والإسهام في ما يحقق ذلك بحسب الإمكان.

يدلّ على ذلك أنّهم لمّا علموا بنحبر رجلٍ كان ينازعه الملك اهتمّوا بذلك أيّما اهتماماً؛ قالت أم سلمة رضي الله عنها: "فوالله ما علمتُنا حزناً حزناً قطُّ كان أشدَّ علينا من حُزْنِ حزناه عند ذلك؛ تخوّفاً أن يظهر ذلك الرجل على النّجاشيّ، فيأتي رجلٌ لا يعرف من حقّنا ما كان النّجاشيّ يعرف منه!".

فما لبث أن خرج إليه النّجاشيّ، فكان المهاجرون يدعون له بالظهور على عدوّه، والتمكين له في بلاده.

ثم إنّم بعثوا الزبير بن العوّام فاستطلع لهم الخبر، وعادهم مبشراً بانتصار النّجاشيّ، وهلاك عدوّه.⁽¹⁾

ليس لهذا الخبر من معنّى إلاّ أنّ قيمة المواطنة الإيجابيّة كانت من أولى القيم التي وعّاها المسلمون الأوائل وحرصوا على الوفاء بها، ولولا ذلك لما كان منهم ذلك الاغتمام، ولا ذلك الاجتهاد في الدّعاء بالتصّر للنّجاشيّ، رغم ما بينهم وبينه من الاختلاف في الدّين.

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 3/235.

إنّ مفهوم المواطنة الإيجابية لا ينحصر في نطاق أهل الدّين الواحد بحيث يكون مقصوراً على أهل الإسلام فيما بينهم، بل إنه مفهوم أخلاقيّ يترجم معنى الوفاء، في علاقة المواطن بوطنه أو بلد إقامته، وليس من الوفاء ولا من محاسن الشّيم أن يتفياً المرء ظلال الأمان والرّخاء في بلدٍ، ويتنكّر له بالتزامه السّلبية في التعامل مع قضاياها! وإنما الواجب عليه أن يهتم بمختلف شؤونه، ويحرص على تحقيق مصالحه، وحفظ مكتسباته، ويسهم في تحقيق نهضته ورقية وازدهاره.

الأخوة الإنسانية مقصدُ الشرائع السماوية كلّها، فالدين واحدٌ، والشرائعُ شتى.

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (سورة الشورى: 13).

وقد كانت الحكمة من الإسراء والمعراج بيان هذه الحقيقة وزيادتها تأكيداً،⁽¹⁾ ولذلك ورد في رواياتها اجتماعه بالأنبياء عليهم

(1) - انظر جملة وافرة من فوائد الإسراء والمعراج عند الصّالحيّ، سبيل الهدى والرّشاد، 3/149-277.

الصلاة والسلام في بيت المقدس، ثم لقاءه بهم مرّةً أخرى، في معرجه إلى السماوات العلى، فكلّها دلائلٌ على ما بين الإسلام وبين غيره من الأديان من الاتساق والاتلاف.

وفي تحيته إياهم وتحيّتهم إياه بالسّلام إشارةٌ إلى أنّ الأديان جميعاً في جوهرها رسائل سلامٍ تحملُ بشائر الرّحمة والمحبّة والسّعادة للعالمين. فدعواتهم كلّها كانت فيما بين أرضين: أرض الطّهارة والقدس، وأرض الحُرمة والأمان، والجامع بين الأرضين الاتّصاف بالبركة، ومعناها وفرّة الخير.

فكان الإسراء تذكيراً بهذه الصّلة بين الأنبياء والمرسلين، وبهذا الاتّساق بين دعواتهم، وإيداناً بأخذ التّبيّ الخاتم مشعل التّبوّة والدّين، من حيثُ تُركّ في زمن عيسى عليه السّلام، وهو الذي انتهت دعوته برفعه ممّا حول بيت المقدس.

ولِعِظْمْ شعيرة الصّلاة وما لها من أثر في تقوية الصّلة بالله تعالى، اختصّت بفرضها ليلة الإسراء، فجاءت جامعةً لمختلف ما يتعبّد به أهل الدّيانات السّماوية من أفعال التّلاوة والتّرتيل والقيام والرّكوع والسّجود والجلوس والدّعاء.⁽¹⁾

(1) -الصّالحيّ، سبل الهدى والرّشاد، 3/2-4.

فكانَ الجمعُ سمةً لسائر ما نزل بعد فرضية الصلاة من الشرائع والأحكام، لا يكادُ يختلف عما شرع في الديانات السابقة قبل الإسلام إلا في سماتٍ خاصةٍ كالسهولة واليسر.

الهجرة إلى المدينة المنورة

• مسرد الأحداث.

مضت على النبي ﷺ سنواتٌ وهو يدعو إلى ربّه، غير عابئٍ بما يلاقي من أذى قومه بمكة؛ استهزاءً به، وتوعداً له بالتعذيب تارةً، وبالقتل تاراتٍ أُخر.

وكان كلما حلّ موسمٌ من المواسم، تحيّن الفرصة الملائمة للقدوم على القبائل، داعياً إياها إلى توحيد الله ونصر دعوته، حتى كانت السنّة الحادية عشر من البعثة، وبينما هو ﷺ يعرض نفسه ودعوته على القبائل؛ إذ لقي رهطاً من الخزرج عند العقبة، بين منى ومكة، فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الإيمان.⁽¹⁾

ذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق أنه ﷺ سألهم أول ما

(1) - انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 76-71/2.

جلس إليهم أهُم من موالي يهود يثرب، قبل أن يعرض عليهم الإسلام، ويفصح لهم عمّا يريد. (1)

ولعلّ سؤاله إيّاهم عن ذلك، غايته معرفة مدى اتّصالهم بأهل الكتاب؛ رجاء أن يكونوا على سابق معرفةٍ بمعنى التّبوّ والرّسالة، وعلى اطلاعٍ بما كان أهل الكتاب يتحدّثون به عن قرب زمن ظهور التّبّي الخاتم، فيكون ذلك سبباً في قبولهم الدّعوة وإيمانهم بها.

لَمَّا فَقه هؤلاء الرّهط حقيقة دعوته ﷺ، وما تدعو إليه من الاتّحاد على كلمة التّوحيد، رجوا أن يكون ما يأملون من زوال الإحن بينهم وبين الأوس على يد صاحب الدّعوة عليه الصّلاة والسّلام؛ قالوا: "إنّا تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشّرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فنسندم عليهم فندعوهم إلى أمرِك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدّين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك".

فرجعوا إلى قومهم سفراء، حاملين دعوة الإسلام، راجين أن تنفتح له القلوب، فيكون به انتهاء ما بينهم من العدوات والحروب.

(1) - السابق، 3/76-77.

انصرفوا مُواعدين النَّبِيِّ الْكَرِيمِ أَنْ يَقَابِلُوهُ فِي الْمَوْسِمِ بَعْدَ عَامٍ،
أي: فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ.

لَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا لَقِيَ بِالْدَّعْوَةِ بَيْنَ أَيْدِي الرَّهْطِ الْخَزْرَجِيِّينَ
كَانَ عَلَى دِرَايَةٍ بِحَالِ النَّفُوسِ الَّتِي جَرَّبَتْ أَحْوَالَ الْفِتَنِ وَأَهْوَالَ الْحُرُوبِ،
فَأَيَّقَنَ أَنَّ نَفُوسَ أَهْلِ يَثْرِبَ لَا تَتَرَدَّدُ فِي قَبُولِ أَيِّ دَعْوَةٍ تَجْتَمِعُ عَلَيْهَا
الْقُلُوبُ، فَتُبَدَّلُ خَوْفُهَا أَمْنًا، وَاضْطْرَابُهَا اسْتِقْرَارًا وَاطْمِئْنَانًا.

مَضَتْ السَّنَةُ فَوَافِيَ الْمَوْسِمِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ، لَقُوا
النَّبِيَّ ﷺ حَيْثُ التَقَى بِهِ الرَّهْطُ الْأَوَائِلَ قَبْلَ عَامٍ، لَقَوْهُ بِالْعَقْبَةِ،⁽¹⁾
فَبَايَعُوهُ ﷺ عَلَى مَا عُرِفَ بَعْدُ بِبَيْعَةِ النَّسَاءِ.⁽²⁾

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَبَنُوذَهَا عَنْ عِبَادَةَ بْنِ
الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: "كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «تَعَالَوْا بَايَعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا
تَزْنُوا، وَلَا تَأْتُوا بِبَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي
فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ

(1) - انظر في تحديد موضع العقبة: الأزرقبي، أخبار مكة، ص 764.

(2) سُمِّيَتْ بَيْعَةُ الْعَقْبَةِ بَيْعَةَ النَّسَاءِ؛ لِأَنَّ بَنُوذَهَا هِيَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ عَلَيْهَا الْبَيْعَةَ مِنَ
النِّسَاءِ، كَمَا فِي آيَةِ 12 مِنْ سُورَةِ الْمُتَحَنِّنَةِ.

شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارةً له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»، قال عبادة:
"فبايعناه على ذلك".⁽¹⁾

غرس ﷺ هذه القيم في نفوس هؤلاء الرهط، فكانت فيها كالغراس يشتد احتياجه أول أمره إلى من يتعهد بحسن الرعاية حتى لا يببس ويدبل فيموت!

ولا شيء أقدر على رعاية غراس القيم وحسن استنباتها من ربها بالقرآن والعلم؛ ولذلك انتدب النبي الكريم مصعب بن عمير فأرفقه بالرهط اليثريين مقرئاً ومعلماً، فكان يعرف ب: "مقرئ المدينة".⁽²⁾

كان غراس القيم الذي استودعه النبي قلوب اليثريين كالبذرة ألقى بها في أرض خصبة، فتعهدا الزارع بالرّي، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج!

أزهى الغراس المبارك بأرض يثرب، فكانت حصيلته جمعاً كبيراً

(1) - متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الانصار، رقم: 18؛ وأخرجه مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم: 1709.

(2) - الصالحى، سبل الهدى والرشاد، 271/3.

من المسلمين، خالط بشاشة الإيمان قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم، وانقادت إلى شُعبه وخصاله جوارحهم، فجاؤوا مع مصعب ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، ليحجّوا في موسم السنة التي تلت سنة انتدابه لمهمة التعليم والإقراء بيثرب.

يحكي كعب بن مالك قصة اللقاء الأول لهذا الرّهط المبارك بالرّسول الكريم ﷺ فيقول: "فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحجّ - وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها - نمنا مع قومنا في رحالنا، حتّى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلّل تسلّل القطا مستخفين، حتّى اجتمعنا في الشّعب عند العقبة...، ننتظر رسول الله ﷺ، حتّى جاءنا ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب، فتكلّم القوم وقالوا: خذ متّاً لنفسك ولربك ما أحببت... فتكلّم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثمّ قال: «أَبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ».

فأخذ البراء بن معرور⁽¹⁾ بيده ثمّ قال: "نعم، والذي بعثك بالحقّ

(1) - ذكر أنّ من مناقبه أنّه أوّل من استقبل الكعبة بصلاته، وكان ذلك منه محض رأي استحسّنه، وقد عدّ بعض الأنصار ذلك مفخرة فقال: وَمِنَّا الْمُصَلِّي أَوَّلَ النَّاسِ مُقْبِلًا - عَلَى كَعْبَةِ الرَّحْمَنِ بَيْنَ الْمَشَاعِرِ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص 88؛ والصالحي، سبل الهدى والرّشاد، 279/3.

نبياً لنمنعك مما نمنع منه أُررنا، -يعني: أعراضنا وحرمنا- فبايعنا يا رسول الله، فحننُ والله أبناءُ الحروبِ وأهلُ الحلقةِ -يعني السلاح- ورثناها كابرًا عن كابرٍ".

فطلب منهم ﷺ أن يقدموا من بينهم نقباء، لينوبوا عن قومهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، فخطبهم ﷺ قائلاً: «أَنْتُمْ كَفَلَاءُ عَلَى قَوْمِكُمْ كَكَفَالَةِ الْخَوَارِيِّينَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي».(1)

فلما بايعوه ﷺ قال: «ارْفُضُوا إِلَيَّ رِحَالِكُمْ».(2)

طابت نفس النبي ﷺ بما رأى من ثمرات عمل مصعبٍ وقد جمع الله به قلوب أهل يثرب على الإسلام، فأيقن أن الله مُعِدُّ لدعوته خيراً من أهل مكة الذين أبوا أن يقبلوها، وتمالؤوا على محاربتها، وبالغوا في التضييق عليها، والعدوان على حملتها.

كان نبأ البيعة بارقة أملٍ في فضاء مكة، الذي أظلم في أعين المؤمنين المستضعفين؛ إذ رأوا يثرب أرض الخلاص المنشود، والتصر الموعود، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في الهجرة إليها فأذن لهم، وبدؤوا

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، ص 92.

(2) - الصالحى، سبل الهدى والرشاد، 284/3.

يستعدّون مُسرّين بما عزموا عليه من ذلك؛ قال عليه الصّلاة والسّلام: «قَدْ أُرِيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبْحَةَ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ»⁽¹⁾، وَهُمَا الْحَرَّتَانِ،⁽²⁾ هجر أو يثرب؛ فهاجر من هاجر قبل يثرب حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ثم هاجر إليها عامّة من كان هاجر إلى أرض الحبشة.⁽³⁾

وفدوا على يثرب أرسلًا، بعضهم في إثر بعض، فأوهم الأنصار وأحسنوا استقبالهم، وأكرموا وفادتهم، واحتفوا بهم أيّما احتفاء واحتفال.

لم يمضِ إلّا زمن يسير حتّى لم يبق بمكّة أحدٌ غير رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ، وعليّ، أو من منعه من الهجرة مانعٍ عجزٍ أو ضعفٍ أو مرضٍ.⁽⁴⁾

ثمّ أذن لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الهجرة، فذهب منتصفَ النهار إلى بيت أبي بكرٍ، فلما رآه، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلّا لأمرٍ حدّث.

(1) - الصّالحيّ، سبل الهدى والرّشاد، 313/3.

(2) - أي: حرّة واقم وحرّة الوبرة، وهما سلسلتا صخور سوداء تحيطان كالفكين بالمدينة المنورة.

(3) - الصّالحيّ، سبل الهدى والرّشاد، 313/3.

(4) - ابن هشام، السّيرة النبويّة، ص 121.

جلس رسول الله ﷺ على سرير أبي بكرٍ ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ»، فقال أبو بكر: «الصَّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قال: «الصَّحْبَةُ».(1)

فبكى أبو بكر من الفرح.

لم يكن أبو بكرٍ بالذي يتهاون في أمرٍ متيقنٍ حدوثه؛ فلذلك كان قد استعدَّ للسَّفر براحتين، واستأجر دليلاً ماهراً خريئاً، عُرف بعبد الله بن أرقط؛(2) ليكون هاديهما في مسالك الطريق.(3)

تذكر الروايات أنَّ قريشاً لما رأَت مكة وقد كادت تخلو من أتباع محمد ﷺ، توقَّعت أن يلحق بهم عليه الصلاة والسلام؛ إذ لا يمكن أن يتخلف عنهم ويؤثر ما هو فيه من ضيق وشدة، على ما صار إليه أصحابه بيثرب من السَّعة وطيب المُقام.

ذكر أهل السير أنَّ قريشاً تنادت إلى دار الندوة للتداول والتشاور فيما يصنعون؛ حتى يحولوا دون هجرة محمد ﷺ، فاستقر رأيهم على اقتحام بيته ليلاً؛ لتقتله سيوف العرب على أيدي رجالٍ يكونون

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/194.

(2) - في بعض كتب السير: عبد الله بن أريقط، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/196.

(3) - ابن كثير، البداية والنهاية، 3/218.

على عدد القبائل، ويتفرَّق دمه فلا يجد بنو عبد المطلب سبيلاً إلى طلب الثَّأر، فيرضوا بالدية! (1)

يشير القرآن الكريم إلى هذا الاجتماع في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: 30).

رأى رسول الله ﷺ مكانهم، ولعله علم بما اجتمع عليهم أمرهم، فقال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي وتسح ببردِي هذا الحضرمي الأخر فتم عليه، فإنه لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه منهم»، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام. (2)

كان أمره إياه بذلك حرصاً على أن يؤدي عنه الودائع، التي كانت عنده للناس إذا هاجر؛ إذ لم يكن بمكة أحدٌ عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه وأمانته عليه الصلاة والسلام. (3)

خرج ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه مهاجرين إلى يثرب،

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 2/335؛ وانظر: الصَّالِحِي، سبل الهدى والرَّشاد، 3/326.

(2) - السهيلي، الرُّوض الأَنْف، 4/178.

(3) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/135.

وتحسباً لتعقب قريش إياهما عمداً إلى غار ثور - جبلٍ بأسفل مكة -
فدخلاه وتواريا فيه ثلاث ليالٍ⁽¹⁾.

قالت عائشة رضي الله عنها: "وجهزناهما أحبّ الجهاز، وصنعنا
لهما سُفرةً في جرابٍ"، فقطعت أسماء بنت أبي بكرٍ قطعةً من نطاقها
فأوكتت به الجراب، وقطعت أخرى فصيرته عصاماً لقم القربة، فبذلك
سُميت ذات النطاقين⁽²⁾.

مكث علي بن أبي طالب بمكة حتى أدّى عن رسول الله ﷺ
الودائع التي كانت عنده للناس، ثم لحق برسول الله ﷺ فنزل معه في
دار كلثوم بن هدم⁽³⁾.

رصدت قريش عقب استيقانها من انفلات النبي ﷺ من
قبضتها جائزة مائة ناقةٍ لمن يدها على مكانه، وكاد يظفر به بعضُ
الرّصدة المتعقبين، لكنّ عناية الله حالت دون ذلك⁽⁴⁾.

وَقَايَةَ اللَّهِ أَعْنَتْ عَن مُضَاعَفَةٍ
مِنَ التَّرْوَعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطْمِ.

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 2/335.

(2) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/196.

(3) - ابن هشام، السيرة النبوية، 2/342.

(4) - ابن هشام، السيرة النبوية، 2/339.

وكانَ ممَّا دَبَّرَ أبو بكرٍ للاحتماء من قريشٍ أنَّ ابنته أسماء كانت تأتيهما إذا أمسيا بما يطعمان، وأنَّ راعي غنمه عامر بن فهيرة كان يأتيهما بتلك الغنم عشاءً ليشربا من لبنها، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث التي قضياها في غار ثور.⁽¹⁾

وفي ليلة الاثنين غرة ربيع الأول سنة 1هـ، وبعد ثلاثة أيام في الغار، أتى الدليل الخريث ابن أرقط بالراحتين، فخرج بالنبي ﷺ وصاحبه، سالكا طريق ساحل البحر الأحمر، وهو طريق غير معتاد لقاصد يثرب، تمويهاً على الرصدة المتعقبين.

ثم بعد ثمانية أيام من المسير، وفي يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 من النبوة، وهي السنة الأولى من الهجرة، الموافق 23 سبتمبر سنة 622م، نزل رسول الله ﷺ بقاء، وكان بلغ الأنصار أنه ﷺ مهاجر إليهم، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرون قدومه، فإذا اشتد الحر رجعوا، وذات يوم وهم منقلبون إلى بيوتهم طلع رجل من اليهود إلى أطم - وهو البناء المرتفع - فبصر برسول الله ﷺ، فصاح بأعلى

(1) - الصالح، سبل الهدى والرشد، 3/344.

صوته: "يا بني قَيْلَةَ!"⁽¹⁾ هذا جدُّكم قد جاء!".⁽²⁾

خرج المسلمون مسرعين، مهلِّلين ومكبرين، ليستقبلوا الوافِدَ الكَرِيمَ ﷺ، فرحينَ بقدمه، ثم نزل ﷺ في بني عمرو بن عوفٍ بقباء، ومكث بها أربعة أيام، أسسَ أثناءها مسجد قُباء.

وفي اليوم الخامس، وهو يوم الجمعة، ركب ﷺ وأبو بكر ردفه، فأدركتُه الجمعةُ في بني سليم بن عوف، فصلَّى عندهم أوَّلَ جمعةٍ وخطب فيهم، وهم مائة رجلٍ.

ولما دخل رسول الله ﷺ يثربَ تنافس أهلها في استضافته، فكان كلُّ شريف من أعيان قبائلها يمسك بخطام ناقته ويقول: "هلمَّ إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمنعَةِ"؛ فلم تبرُكْ به ناقتهُ إلا في الموضع الذي أسس فيه مسجده، وكان مَرَبِدًا لغلامين يتيمين من بني النجار، ثمَّ سارت غيرَ بعيد، لتبرُكْ عند دار أبي أيُّوب خالد بن زيد.

نزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب رحله، فوضعه في بيته، وسأل عن المرَبِدِ: «لِمَن هو؟» فقال له معاذ بن عفراء: «هو يا

(1) - هي جدَّة الأنصار واسمها: قَيْلَةُ بنت كاهل بن عُذرة بن سعد بن هذيم، انظر: الكلبي، نسب معدِّ واليمن الكبير، عالم الكتب، بيروت، 2004، 364/1.

(2) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/134.

رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي، وسأرضيهما
منه»، فاتخذة مسجدا. (1)

مكث ﷺ عند أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، مُسْهِمًا
بيده في ذلك؛ (2) لِيُرْغَبَ المسلمِينَ في العمل، فَعَمِلُوا فيه جميعًا،
المهاجرون والأنصار؛ فأُشْدَ قَائِلٌ منهم:

لَسْنَا قَعَدْنَا وَالتَّيِّبِ يَعْمَلُ
لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ (3)

وأُشْدَ غَيْرُهُ رَجَزًا فَقَالَ:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ
فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ (4)

بُنِيَ المسجد باللَّيْنِ، وَرُفِعَ أُسَاسُهُ بالحجارة، وَسُقِفَ بالجريد،
وَجُعِلَتْ عُمْدُهُ جُدُوعًا. (5)

(1) - ابن سيّد النَّاسِ، عيون الأثر، 313/1.

(2) - انظر: الديار بكرى، تاريخ الخميس في أحوال أنفُس النّفيس، مؤسسة شعبان، إبيروت، د ط، د ت، ص 350.

(3) - ابن سيّد النَّاسِ، عيون الأثر، 313/1.

(4) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 138/1.

(5) - ابن سيّد النَّاسِ، عيون الأثر، 315/1.

ثم تلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ حتى لم يبق بمكة منهم أحد.

تلك هي رحلة الهجرة، بمهداتها ومقدماتها وأهم تفاصيلها منذ لحظة الإذن بها إلى أن تم الاستقرار بيثرب وثبتت الإقامة فيها.

وجد النبي ﷺ نفسه غداة وصوله إلى يثرب أمام مجتمع متعدد الأعراق والديانات، لا شيء يجمع أطيافه ما خلال الوطن والأرض! فكيف تعامل ﷺ مع هذا المجتمع؟ وكيف استطاع أن يجعل التعددية التي اتسم بها عامل غنى لا عنصر تخريب؟

ثم كيف أدمج العنصر الوافد الجديد -عنصر المهاجرين- فصهره مع المكونات الأخرى في "بوتقة" المجتمع المدني؟

تلك جملة من الأسئلة التي سيجيب عنها تاسع محاور الكتاب بإذن الله.

• الفوائد والعبر:

إن حادثة الهجرة النبوية الشريفة انطوت على جملة من الفوائد

والعبر أهمّها:

• فطريّة حبّ الوطن.

فقد تجلّى ذلك في صنيعة ﷺ يوم فارق مكّة؛ إذ وقف على الحزورة وقال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك»⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن الوطن هو مكان ولادة الإنسان وإقامته، فكلما فارقه حنّ إليه، وكلّما ارتحل عنه اهتمت بين جوانحه مشاعر الشوق إليه؛ اعترافاً بفضلته عليه؛ إذ أكّته في فنائه، ونمّاه بخيراته وغذائه، فوجب أن يكون برّه به لا يقلّ رتبةً عن برّه بأبويه، وأن تكون غيّرته على عرضه كغيّره عليه.⁽²⁾

وَلِلْأَوْطَانِ فِي دَمِ كُلِّ حُرٍّ

يَدٌ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْتَحَقٌّ

الوطنُ أغلى ما يحرص عليه الإنسان في هذه الحياة؛ إذ فيه مفاخره ومآثره، وفيه موارده ومصادره.

(1) - البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د ت، 444/2.

(2) - يراجع في هذا الباب كتاب الحنين إلى الأوطان للجاحظ، وكتاب الحنين إلى الأوطان لابن المرزبان البغدادي.

منه كان، وبه يكون، وفيه ماضيه وحاضره ومستقبله، وفيه بالأمس أصوله، وفيه اليوم إخوته وأقاربه، وفيه غداً فروعه وأحفاده. هو المجال الذي يمارس فيه اعتزازه بقيمه ومبادئه، وأفكاره وعقائده؛ ولذلك استحق منه أعمق الحب وأجل التقدير.

وما ذلك إلا دليل على قوة الارتباط به وصدق الانتماء إليه.

ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على المدينة بعد أن استقر فيها، باذلاً النفس والنفس في سبيل حمايتها، مبادراً إلى كل ما من شأنه أن ينميها ويحفظ استقرارها.

وفي ذلك أعظم دلالة على ما لمحبة الأوطان في الإسلام من شريف مرتبة وعظيم اعتبار.

• أهميّة التربية على الوطنيّة الصادقة في حفظ الأوطان و تنميتها؛

فمن حقّ الوطن أن ينشئ الآباء أبناءهم على قيمة الانتماء إليه، ومحبتة، والوفاء له؛ كفاء ما يمتّعهم به من الأمن والرّخاء ورغد العيش.

وقد امتنّ الله على أهل مكّة بنعمة ما أعدّ لهم من الوطن الآمن المستقرّ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (القصص : 57).

فتنشئة الأطفال على معنى الوطن وقيمته، وتربيتهم على استشعار واجب الوفاء له من أكد الواجبات على الآباء؛ إذ الطفل لا ينشأ إلا على ما نشأ عليه أبواه، كما قال أبو العلاء المعرّي رحمه الله:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا
عَلَى مَا كَانَ عَوَدَهُ أَبُوهُ
وَمَا دَانَ الْفَتَى بِحِجِّي وَلَكِنْ
يُعَلِّمُهُ التَّدِينُ أَقْرَبُوهُ

وذلك أوحّد السبيل إلى استدامة ما تستقرّ به الأوطان من الانتماء إليها والاعتزاز بها.

• أهمّية القيم ومقصديّتها في الإسلام.

فقد كان الوفاء بها مقتضى أوّل ما بايع عليه النبي ﷺ الأنصار في العقبة الثانية؛ إذ إنّما كانت بيعةً على الإيمان والأمانة والعفة والمسالمة والصّدق والطّاعة، وكلّها قيم خلقيةً فضليّة.

وفي ذلك إشعارٌ مبكّرٌ بمقصديّة القيم في الرّسالة الخاتمة، وإعلامٌ بأنّ كلّ ما تلا هذه البيعة من عهد الإيواء وميثاق التّصرة إنّما كان

وسائل إلى التَّحَقُّقِ بِالْقِيمِ، وإلى بثِّها والدَّعوة إليها.

ومن أعظم ما يُوَكِّدُ هذا المعنى من أحداث الهجرة النبوية:

أ. التزمُ النَّبِيُّ ﷺ بقيمة الأمانة وحرصه على الوفاء بها، حتى وهو محاصرٌ بأعدائه المتربِّصينَ به، فلم يجد ذلك مسوغاً لأن يضيِّع ما استودعه النَّاسُ من أماناتٍ، ولذلك خلَّف وراءه عليّاً لينوب عنه في ذلك!

وما ترك ﷺ بعدُ مجالاً لغيره أن يُضربَ به المثلُ في التمسك بقيمة الوفاء!

ب. تمسك النَّبِيُّ ﷺ بقيمة التسامح، وقد تجلَّى ذلك في تعامله مع عبد الله بن أريقط، الذي اتخذهُ دليلاً في طريق الهجرة، فاستأمنه على روحه وعلى مصير دعوته، مع علمه ببقائه على دينه!

فدلَّ ذلك على أنَّ الإسلام لا يقيم لاختلاف المعتقد اعتباراً في كلِّ ما تترتب عليه مصالح النَّاسِ، سواء أكانت دينيةً أم دنيويةً.

وذلك معنى التسامح في أجلى مظاهره وأسمى تمثلاته.

-الدين رسالة سلامٍ، وعاملُ وحدةٍ، وسببٌ للتأليف وحفظ وحدة

المجتمعات الإنسانية.

لذلك حرص النبي ﷺ على التآليف بين قلوب أهل يثرب بدعوتهم إلى الإسلام، مبيّنًا لهم ألاّ سبيل إلى حسم الخلاف وقطع أسباب الفتن والحروب إلاّ بالاستجابة لدعوته؛ إذ هي دعوة تأليف، لا دعوة تعنيف، ورسالة سلام لا سبب خصام!

بين عليه الصلاة والسلام غداة هجرته إلى يثرب أن ليست الرسالة الخاتمة إلاّ دعوة إنسانية، تسعى إلى حفظ حقوق الإنسان في تأمين حياته، وضمان حرّيته، وحفظ خصيصة التعدّدية والتنوّع في الوسط الاجتماعيّ الذي يعيش فيه.

ولأجل ذلك لم يشترط ﷺ في البيعة توحيد الانتماء الدينيّ لعامة أهل يثرب، بل عدّ وجود العنصر اليهوديّ فيها مكسبًا بالغ الأهمّيّة في تصديق دعوته وتيسير سبيل قبولها والإقبال عليها.

- أهمّيّة الصحبة في حياة الإنسان.

فهي أقوى سببٍ لحفظ الأخوة الإنسانية ومدّ ظلّها على العلاقات بين الأفراد.

فالإنسان ضعيف بنفسه، وإنما قوّته باشتداد أزره بأخيه، كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿سَدَسُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ﴾ (القصص : 35).

فجعل لموسى الغلبة بأخيه وأتباعه.

وقد أثبت القرآن الكريم في قصة الهجرة الصحبة لأبي بكر رضي الله عنه، لما كان رفيقاً في الهجرة لمحمد ﷺ؛ قال تعالى مخلداً تلك الصحبة، ومثنيا على تلك الرفقة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة : 40).

ومدحه بها حسان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدة التي يقول

فيها: (1)

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِنْ أُخِي ثِقَةٍ
فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
التَّالِي التَّالِي المَحْمُودَ مَشْهُدُهُ
وَأَوَّلَ النَّاسِ طُرًّا صَدَّقَ الرُّسُلَا

(1) - حسان بن ثابت، الديوان، تحقيق عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2006، ص 188-189.

وَالثَّانِي اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ
 طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجَبَلَ
 وَكَانَ حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا
 مِنْ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعِدْ بِهِ رَجُلًا
 خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَبْقَاهَا وَأَرَأُفَهَا
 بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا
 عَاشَ حَمِيدًا لِأَمْرِ اللَّهِ مُتَّبِعًا
 لِهَدْيِ صَاحِبِهِ الْمَاضِي وَمَا انْتَقَلَ

وقد حرص علماء التربية على معنى الصّحبة لما له من عظيم الأثر في إصلاح النفوس وتحليلتها بالفضائل والقيم؛ قال أبو عبد الرحمن السّلمي: «فالألفة أوجبّت الأخوة، والأخوة أوجبّت حسن العشرة وكريم الصّحبة، واللّه يوفقك لذلك من يشاء من عباده، ويعينهم على ذلك بفضلِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ...، وَعَلِمَ أَنَّ أَدَبَ الصّحْبَةِ وَحُسْنَ الْعِشْرَةِ عَلَى وُجُوهِ...، وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحْفَظَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ حَقَّ أُخُوَّتِهِ، وَحُسْنَ صُحْبَتِهِ وَعِشْرَتِهِ»⁽¹⁾.

(1) - السّلميّ، آداب الصّحبة، تحقيق: مجدي فتحي، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط 1، 1990، ص 137.

وبعد، فقد كانت الهجرة النبوية إيذاناً ببداية تاريخ جديد للعرب وللإنسانية جمعاء، بما أسَّسَتْه من بداية العهد المدني، الذي أُرسِيَتْ فيه قواعدُ حضارةٍ راقيةٍ، عمَّت أنوارُها أرجاءَ الكون، ولا يزال يتفياً ظلَّها العالمون.

صحيفة المدينة وأسس العيش المشترك

• مسرد الأحداث

ذكرنا في الدرس الماضي خبر هجرته ﷺ إلى المدينة، ووصوله إليها، فبعد أن بنى عليه الصلاة والسلام المسجد، واستقر في دار هجرته، بادر إلى كتابة وثيقة تعدُّ أوَّل دستورٍ في الحضارة العربيَّة ينظِّم قواعد العيش المشترك في مجتمع التعدديَّة، عُرفت ب: "وثيقة المدينة".

فإذا كان بناء المسجد قد أسهم في محو آثار ما كان بين الأوس والخزرج من التباعد والعداء، فإنَّ المجتمع اليثريّ يشتمل على عناصر بشريَّةٍ أخرى مستقلةٍ عن الحيَّين، لا تربطها بهما إلاَّ آصرةُ الانتماء للأرض، وأمَّا الدِّين فلهم فيه مذاهبٌ ومناجٍ شتى!

لقد وعى النبي ﷺ منذ لقائه الأول بأهل يثرب أن إدخال الدين الجديد عليهم لا يمكن أن يكون عنصراً وحدة ما لم يُعزز بعهدٍ (ميثاق/اتفاق) يكفل التعايش بينهم، ويعرفهم بمبدأ التسامح ويلزمهم التعامل الإيجابي مع ظاهرتي الاختلاف الديني والتنوع العرقي.

كتب الرسول عليه السلام بذلك وثيقة المدينة التي كان من أهم نتائجها توحيد المجتمع المتعدد الأطياف، في إطار المواطنة الجامعة، المتأسسة على الولاء الوطني، الذي لا تؤثر فيه اختلافات الأعراق والأديان!

• ونص هذه الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلِحَقِّ بِهِمْ...
إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ.

الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَبْعَتِهِمْ⁽¹⁾ يَتَعَاقَلُونَ.
 وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رَبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، كُلُّ طَائِفَةٍ
 تَفْدِي عَانِيَهَا⁽²⁾ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...
 وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي
 فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ.
 وَأَنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ.
 وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً⁽³⁾ ظَلَمَ
 أَوْ إِثْمًا أَوْ عُدْوَانًا، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا،
 وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ...
 وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَذْنَاهُمْ.
 وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ دُونَ النَّاسِ.
 وَإِنَّهُ مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّ لَهُ التَّصَرَّ وَالْأَسْوَةَ عَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا
 مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ.

(1) - الرِّبْعَةُ وَالرِّبَاعَةُ: الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها . انظر: الخشنّي، الإملاء المختصر في شرح غريب السَّيَر، تحقيق د. عبد الكريم خليفة، دار البشير، عمّان، ط. 1، 1991، 2 / 13.

(2) - العاني: الأسير.

(3) - الدسيسة يراد بها هنا: ما ينال منهم من ظلم.

وَإِنَّ سَلَامَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ...

وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبَيِّءُ⁽¹⁾ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ

وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ...

وَإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةً مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ
دِينُهُمْ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُؤْتَعُ إِلَّا نَفْسُهُ وَأَهْلُ
بَيْتِهِ...

وَإِنَّ بَطَانَةَ يَهُودَ كَانُوا نَفْسِهِمْ.

وَإِنَّهُ لَا يُخْرَجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ....

وَإِنَّهُ لَمْ يَأْتُمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفَةٍ وَإِنَّ التَّصَرُّفَ لِلْمَظْلُومِ.

وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ.

(1) - يبيء: يمينع ويكف، انظر: الخشنبي، الإملاء المختصر، 2/13.

وَإِنَّ يَثْرَبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ.

وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ.

وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةً إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا.

وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادَهُ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَتَقَىٰ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ.

وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ فُرْيُشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا.

وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَىٰ مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَىٰ صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ.

عَلَىٰ كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبَلَهُمْ.

وَإِنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، مَعَ الْبِرِّ الْمَحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ.

وَإِنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَىٰ نَفْسِهِ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ.

وَإِنَّهُ لَا يَجُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَأَئِمٍّ.

وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ
وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (1)

بهذه الوثيقة استطاع محمد ﷺ قطع أسباب التنازع التي تفتت
من عضد المجتمع اليثربي؛ بما فيها من إشعارٍ بأهميّة الاعتداد
بالمشركات، والتسامح في جوانب الاختلاف.

بيد أنّ انخراط المهاجرين في المجتمع المدنيّ استدعى التفكير
فيما يكفيهم لأمر معيشتهم؛ إذ لم تكن لهم بالمدينة أموالٌ ولا
ضياغٌ، فكان من عميق نظر النبي ﷺ، أن فكّر في استثمار رصيد
القيم الأصيلة التي يكبرها المجتمع العربيّ، في التعامل مع هذه
القضيّة، فأبرم عليه الصلوة والسلامُ عقود الإخاء بين المهاجرين
والأنصار، وقد بلغت آثار هذا الإخاء مبلغ تنزيل كلّ من كان بينهم
منزلة الأخوة في النسب، حتّى ربّب عليها حكم التوارث، فلم يكن
بينه وبين الأخوة النسبيّة كبير اختلاف!

فجعل النبي ﷺ أبا بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين،

(1) - انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 143/2-145.

وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، وأبا عبيدة بن الجراح، وأبا طلحة أخوين، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوين، وأخي بينه ﷺ وبين علي بن أبي طالب.

وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في تجسيد هذه الأخوة، في تقبلهم إياها بقبول حسن، جاعلين اقتسام الأموال والأرزاق شاهد صدقٍ على ذلك.

روى البخاري أن رسول الله عليه السلام آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال الربيع لعبد الرحمن: "إني أكثر الأنصار مالا، فأقسّم مالي نصفين..."، قال: "بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟".

فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضلٌ من أقطٍ وسمنٍ، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرة، فقال النبي عليه السلام: «مَهَيْمٌ؟» قال: «تزوجت». قال: «كَمْ سُقْتِ إِلَيْهَا؟»، قال: «نواة من ذهب»⁽¹⁾.

(1) - أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه؟ رقم: 3937، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك من قليل وكثير، رقم: 1427.

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: "اَقْسِمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا التَّخِيلَ"، قَالَ: «لَا»، فَقَالُوا: «تَكْفُونَا الْمُؤُونَةَ»⁽¹⁾ وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ»، قَالُوا: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».⁽²⁾

وروى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبدلة،⁽³⁾ فقال لها: "ما شأنك؟" قالت: "أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا".⁽⁴⁾

ثُمَّ لَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ صَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: "كُلْ، فَإِنِّي صَائِمٌ"، قَالَ: "مَا أَنَا بِأَكَلٍ حَتَّى تَأْكُلَ!" قَالَ: فَأَكَلَ.

فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. قال: "نَمْ"، فنام. ثم ذهب يقوم فقال: "نَمْ". فلما كان من آخر الليل قال سلمان: "قم الآن"، فصلبًا. فقال له سلمان: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ".

(1) - تكفوننا المؤونة: أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها.

(2) - رواه البخاري: الأدب المفرد، باب المواساة في السنة والجماعة، رقم: 561.

(3) - متبدلة: لابسة ثياب البدلة وهي المهنة، أي تاركة لباس الزينة.

(4) - حاجة في الدنيا: أي ومنها زينة المرأة لزوجها وهو لا يأبه لذلك.

فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ».(1)
 إن المؤاخاة في أصلها آصرة إنسانية، توثقها الأسباب المادية،
 فلذلك رتب عليها الإسلام التوارث، مقدماً إياها على حقوق القرابة،
 حتى إذا اكتمل الاندماج بين المهاجرين والأنصار، وتحقق التكافل
 بينهم، نزل قول الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
 كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 75).

فُنسخ ما كان قبل من أثر المؤاخاة في الميراث، وأصبح التوارث
 بالنسب وذوي الرحم.(2)

وهكذا باتت قيمة الإخاء متجلية في المجتمع المدني، وقد
 امتزجت بها عواطف المحبة، بأخلاق الإيثار والتكافل والتآسي.

إن جمع النبي ﷺ بين عقدي المؤاخاة ووثيقة المدينة كان من
 حُسن سياسته وتديبره للشأن العام؛ إذ لم يرَ بناء المسجد لوحده
 كفيلاً بتوحيد المجتمع، ومحو أسباب ما يفتت عضد الجماعة من
 الاختلافات العصبية العرقية والدينية!

(1) - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف، رقم: 6139.

(2) - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط 1، 1981، 221/15.

لم يكن هذا ناشئاً عن تفرقة بين الناس بحسب الأديان، بقدر ما كانت غايته التوعية بأهميّة أصرة الأُخوة من حيث ما يرتّب عليها من تفعيل القيم الفضلى، بتمثّل مقتضاها من محاسن الأخلاق ومكارم الشيم!

فبناء المسجد وما تبعه من عقد الإخاء بين المهاجرين والأنصار لم يكن إلا بمثابة مخطّط استعجاليّ، غايته علاج أزمة الخلاف العرقيّ بين الأوس والخزرج، كما لم تكن وثيقة المدينة إلاّ إعلاناً للمبادئ التي تقوم عليها رسالة محمد ﷺ، التي يمكن تلخيصها في تحقيق الأُخوة الإنسانيّة، من طريق دعوة الناس جميعاً إلى تمثّل مفهومها، والحرص على تجلّية آثارها في واقعهم المعيش.

إنّ هذه الوثيقة جسّدت وعياً مبكّراً بالأفق الكونيّ الذي ينبغي أن تتسامى الإنسانيّة جمعاء إلى بلوغه، وفاءً بقيمها السامية التي تشترك جميعاً في إكبارها وإعلاء شأنها، وهي قيم الخير والمحبة والتضامن والسلام.

ومن الإشارات المهمّة التي تؤكّد ذلك، ختم العهد النبويّ بخطبة حجة الوداع، التي وُجّه فيها الخطاب إلى الناس جميعاً؛ «أيّها الناس

إنّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»⁽¹⁾.

فكانّ عقد الإخاء ووثيقة المدينة قاعدتان أسّس عليهما محمّد عليه الصّلاة والسّلام مشروع دعوته في عهدها المدنيّ، بما أراد لها أن تكون عليه من الاتّسام بالكونيّة، والتّوجّه بخطاب القيم إلى الإنسان في سائر أرجاء المعمور.

فإنّما كانت المؤاخاة والوثيقة نقطتي انطلاقٍ نحو العالميّة، نشرًا للدّعوة في العالمين، وإحياءً لما بينهم من آصرة الأُخوة التي تقتضيها الفطرة، وتفرضها وحدة الأصل والمعاش والمصير!

• الفوائد والعبر

اشتمل هذا الفصل من السّيرة العطرة على جملةٍ من الفوائد والعبر تفصيلها على التّحوّ الآتي:

أهميّة المواطنة في تدبير الاختلاف.

فقد دمج النّبّي ﷺ عناصر المجتمع المدنيّ في بوتقة هذا المفهوم الذي رسّخه بوثيقة المدينة.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجّة النّبّي صلى الله عليه وسلّم، رقم: 1218.

لقد جسدت هذه الوثيقة حقيقةً نظرةً لإسلام إلى الاختلاف،
ومنهجاً في التعامل معه واستيعابه بما لا يترتب عليه إضراراً بأيّ
عنصر من عناصره.

ويعدّ ما اشتملت عليه من بنودٍ حجّةً دامغةً في أصالة هذا
المفهوم، وما ينبني عليه من مشروعية الولاء للوطن، والتّحالف بين
مختلف أهل الأديان من أجل تحقيق التّعايش السّعيد في حضنه،
وتحت وارف ظلّه.

إنّ المواطنة - كما تجلّيها وثيقة المدينة - مجمّع قيم الفضيلة؛ إذ
إنّها شعوراً بالإنسانيّة في أكمل صورها، واعتداد بأصرة الأخوة التي
تنبني عليها.

وليست أمةً بأقدر على استشعار معنى هذه الأصرة من العرب،
وهم الذين اشتهروا بتعظيم أوامر القرابة، وجعلها أساساً للتّضامن
والتناصر والتّوادّ، حتّى ضمّنوا ذلك أشعارهم، فخلّدتهم قصائدهم
وعباراتهم، ومن عيون ما ورد عنهم في ذلك:

أ. قول أبي خراش الهذلي في رثاء فقيده:

وَلَمْ يَكُ فَظًّا قَاطِعًا لِقَرَابَةٍ
وَلَكِنْ وَصُولًا لِلِقَرَابَةِ ذَا رُحْمٍ

ب. قول حُجَيَّةَ بنِ الْمُضَرَّبِ⁽¹⁾ فيما يكون بين الإخوة من التآزر
والتناصر:

أخوك الذي إن تدعهُ لِمِلْمَةٍ
يُجِبُّكَ وَإِنْ تَغَضَّبَ إِلَى السَّيْفِ يَغْضَبُ يَغْضَبِ

ج. قول دريد بن الصَّمَّةِ:⁽²⁾

دَعَانِي أَخِي وَالْحَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِفُعْدُدِ
أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلَبَانِهَا
بِثَدْيِي صَفَاءٍ بَيْنَنَا لَمْ يُجَدِّدِ

ما ذكر من أن بعضهم سئل: ما تقول في موت الأخ؟ قال: قُصَّ
الجنَّاح!⁽³⁾

(1) - شاعر عربي مخضرم، من نصارى كندة، انظر: الأمدى، أبو القاسم الحسن، المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم والقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، ط. 1، 1991، ص 242-241؛ والإصبهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، د ت، 200-202/20، والتبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2000، 721/1-723.

(2) - شاعر عربي مخضرم، مات على دينه يوم حنين سنة 8 هـ، انظر أخباره في: الإصبهاني، الأغاني، 5-33/10.

(3) - ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، د ط، 1925، 92/3.

• أن الإيمان بقيمة التسامح شرط التحقق بالمواطنة.

ذلك أن النبي ﷺ ضمّن وثيقة المدينة عباراتٍ تفيّد ارتفاع فوارق الدين بين أبناء الوطن الواحد، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن يهود بني عوفٍ أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم».

فليس اختلاف الدين عائقاً من التآخي في الولاء والانتماء للوطن.

يزكي هذا أن الوثيقة وردَ فيها التّصّ على تساوي أهل المدينة جميعاً أمام واجب الدفاع عن الوطن متى دهمهم الأعداء؛ «وإن بينهم التّصّر على من دهم يثرب».

ولأجل ذلك ورد في كتب السير خبرٌ مخبريق اليهودي، الذي نهض بنفسه وماله مجاهداً مع المسلمين في غزوة أحد، فقاتل حتى قُتِل، فكان له الثناء على صنيعه، وتخليد ذكره، على لسان أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام؛ إذ قال فيه: «مخبريق خير يهود»⁽¹⁾.

إن المواطنة لحمّة مقدّسة، متى ربطت بين أبناء الوطن برباط الأخوة، فإنهم يتساوون فيما لهم من حقّ الانتماء إليه، وفيما عليهم

(1) - انظر: ابن سعد، الطبقات الكبير، 1/502، والسهيبي، الروض الأنف، 6/12.

من واجبات خدمته والدِّفاع عنه، وليس للدين في ذلك إلا التشجيع والتأييد!

ولا أدلّ على ذلك من صنيع النبي ﷺ بماله - وكان قد أوصى له به قبيل بدء القتال-؛ إذ جعله عليه الصلاة والسلام أوقافاً بالمدينة لله،⁽¹⁾ بل كانت أول وقف بالمدينة.⁽²⁾

ليس شيء أشرف من خدمة الوطن، لا سيما بالدِّفاع عن حماه، وبذل التَّفيس والتَّفيس في سبيل تنميته ورفعته رايته، وذلك ما سمت إليه همّة مخيريق، فاستحق أن يُرفع قدره ويخلّد ذكره في العالمين.

• أن احترام الأديان منهج سليم لمجتمع عادل.

ذلك أنّ وثيقة المدينة احتفت بقيم التضامن وما يتفرّع عنها من أخلاق التعاون والتناصر والتآزر، التي تعين على تقبّل الاختلاف في الدين، ما دام الإيمان بالأخوة الإنسانية والولاء للوطن قد اطمأنت إليه النفوس وتألّفت عليه القلوب!

(1) - انظر: النُميري، ابن شُبّه، أخبار المدينة النبوية، تحقيق: عبد الله بن محمد الدويش، دار العليان، ط. 1، 1990، 171/1-169.

(2) - ابن كثير، السيرة النبوية، 73/3، وانظر: ابن حزم، جوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر، د ط، د ت، 164.

إنّ هذا الإيمان هو الذي يكفل للنّاس أن يعيشوا بسلام،
آمنين على أرواحهم، متمتّعين بحريّتهم في ممارسة شعائر دينهم، مطمئنين
على أعراضهم وحرمهم، في حضان الوطن الذي يسع ما فطرت عليه
الخليقة من التّنوع والاختلاف.

- أنّ دولة الإمارات العربيّة المتّحدة لما بادرت إلى دعوة أهل
الأديان إلى التّحالف على القيم المشتركة بين بني الإنسان، كانت على
إرث من هدي التّبيّ ﷺ؛ إذ ليست وثيقة الأخوة الإنسانيّة؛ إلاّ تجلّيًا
معاصرًا لروح وثيقة المدينة.

لقد أحيى نهج محمد ﷺ بهذه الوثيقة الخالدة، التي كان الفضل
فيها لرجل السّلام، وينبوع الإنسانيّة، القائد الحكيم، سيدي صاحب
السّموّ الشيخ محمد بن زايد آل نهيان - حفظه الله -، الذي أرسى بها
أسس التّجديد الرّشيد لمناهج فهم الدّين نصوصًا ومقاصد، وفق الرّؤية
الأصيلة، التي تجمع بين الفقه الصّحيح للتّصوص والمعرفة الدّقيقة
بالواقع.

ولا أدلّ على عظم قدر هذه الوثيقة، من اعتماد الجمعية العامّة
للأمم المتّحدة بالإجماع اليوم الذي صدرت وهو 4 فبراير، يومًا دوليًا

للأخوة الإنسانية، ضمن مبادرة قدمتها كل من دولة الإمارات العربية المتحدة ومملكة البحرين وجمهورية مصر العربية والمملكة العربية السعودية.

وقد كان صدورها برعاية كريمة من قبل صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، وصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم رئيس مجلس الوزراء، وهو اللقاء الذي أسفر عن التوقيع على "وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك".

وقد صيغت هذه الوثيقة العالمية لتكون بمثابة مرجعية للبشر جميعاً؛ حتى يعمّ السلام وتُدرأ عن الناس أسباب النزاع، وليتحالف أهل الأديان على المشتركات، ويتسامحوا في مواطن الاختلافات؛ اعتماداً على نصوصهم الأصيلة، وانطلاقاً من مبادئهم السامية، التي لا تعدو قيم الخير والفضيلة والإحسان، ويتحمّلوا أمانة توعية البشرية بوحدة مصيرها ومسارها، التي تجعلها كركاب سفينة واحدة؛ إذا خرقتها بعض الركاب فلن يكون مآل الجميع إلا الغرق!

ومن البنود المهمة التي تتبين فيها المبادئ والقيم المشتركة، التي تمثل روح وثيقة المدينة ما يأتي :

- أنّ التعاليم الصحيحة للأديان تدعو إلى التمسك بقيم السلام وإعلاء قيم التعارف المتبادل والأخوة الإنسانية والعيش المشترك، وأن الحرية حق لكل إنسان: اعتقادا وفكرا وتعبيرا وممارسة.

أن العدل القائم على الرحمة هو السبيل الواجب اتباعه للوصول إلى حياة كريمة، يحق لكل إنسان أن يتمتع بها، وأن الحوار والتفاهم ونشر ثقافة التسامح وقبول الآخر والتعايش بين الناس، من شأنه أن يسهم في احتواء كثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية التي تحاصر جزءا كبيرا من البشر.

- أن حماية دور العبادة من معابد وكنائس ومساجد، واجب تكفله كل الأديان والقيم الإنسانية والمواثيق والأعراف الدولية، وكل محاولة للتعرض لدور العبادة، واستهدافها بالاعتداء أو التفجير أو التهديم، هي خروج صريح عن تعاليم الأديان، وانتهاك واضح للقوانين الدولية.

- أن الإرهاب البغيض الذي يهدد أمن الناس، سواء في الشرق

أو الغرب، أو في الشمال أو في الجنوب، ويلاحقهم بالفرع والرعب وترقب الأسوأ، ليس نتاجا للدين -حتى وإن رفع الإرهابيون لافتاته ولبسوا شاراته-، بل هو نتيجة لتراكمات الفهوم الخاطئة لنصوص الأديان وسياسات الجوع والفقر والظلم والبطش والتعالي.

- أن مفهوم المواطنة يقوم على المساواة في الواجبات والحقوق التي ينعم في ظلها الجميع بالعدل؛ لذا يجب العمل على ترسيخ مفهوم المواطنة الكاملة في مجتمعاتنا.

- أن العلاقة بين الشرق والغرب هي ضرورة قصوى لكليهما، لا يمكن الاستعاضة عنها أو تجاهلها؛ لتتلاقح الحضارتان عبر الحوار.

- أن الاعتراف بحق المرأة في التعليم والعمل وممارسة حقوقها السياسية ضرورة ملحة، فيجب العمل على تحريرها من الضغوط التاريخية والاجتماعية المنافية لشوابت عقيدتها وكرامتها.

- أن حقوق الأطفال الأساسية في التنشئة الأسرية، والتغذية والتعليم والرعاية، واجب على الأسرة والمجتمع، وينبغي أن توفر وأن يدافع عنها، وألا يحرم منها أي طفل في أي مكان.

- أن حماية حقوق المسنين والضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة والمستضعفين ضرورة دينية ومجتمعية يجب العمل على حمايتها بتشريعات حازمة وبتطبيق المواثيق الدولية الخاصة بهم.⁽¹⁾

وبعد، فقد كانت هذه نظراتٍ فاحصةً لمواطن الاعتراف بأحداث السيرة العطرة في مبدأ العهد المدني.

وهو عهد لم يهتم فيه النبي ﷺ بشيء كاهتمامه بخدمة الإنسان، والرقي به إلى مستوى تحمّل مسؤولية الاستخلاف والبناء والإعمار.

فلم تكن المرحلة المدنية إذاً إلا سعيًا حثيثًا إلى بناء مجتمع الفضائل والقيم، الذي يؤمن بقيمة الإنسان، ويسعى إلى إيلائها ما تستحقّه من عظيم الاعتراف والتكريم.

وحيث إنّ ذلك التكريم لا يتصورُ تحقّقه إلا في وطنٍ يلتئم فيه شأن المجتمع، أسّس ﷺ مفهوم المواطنة، الذي يجسّد قيم الولاء والمساواة والكرامة والأخوة، وتسع دائرته ما تضيق عنه الاعتبارات الفئويّة، المنبنيّة على العصبية العرقية، أو الدنيّة.

لم يلبث محمّد ﷺ في هذه المرحلة إلا نحو سنتين، حتى استجدّ

(1) - ينظر نص الوثيقة كاملا في جريدة البيان بتاريخ :: 04 فبراير 2019.

من الأحداث ما اقتضى منه الدفاع عن حمى الوطن، وعن حُرمة المجتمع الجديد.

فما هي تلك الأحداث؟ وما نتائجها؟ وما الفوائد والعبر التي يمكن أن تستخلص منها؟

ذلك ما سيتكفل المحور العاشر ببسط القول فيه.



نماذج من دفاع النبي ﷺ عن المدينة

يقتضي منّا الحديثُ في هذا الدرس من دروس السيرة العطرة، والذي عنوانه ب: "نماذج من دفاع النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة" بالتقديم بمقدّمة تمهيديّة عن مصطلح شاع استعماله في أدبيّات السيرة، فعُنوانتُ به بعض مصادرها، وكثُرَ ورودُه في كثيرٍ من فصولها، إنّه مصطلح "الغزوات".

لقد أطلق علماء الحديث والسّير هذا المصطلح على الحروب التي حضرها النبي صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم، ولا يلزم أنّه باشر فيها القتال بنفسه عليه الصّلاة والسّلام.⁽¹⁾

ولو دققنا التّظّر في جميع تلك الحروب من حيث سياقات وقوعها وأسبابُ نُشوبها، لمّا وجدنا لها علاقةً بمفهوم "الحروب الدّينيّة"، ولا بالقصد إلى نهب أموال النّاس وسلبهم إيّاها باعتبارها غنائم! بل نجدها حروباً دفاعيّةً غايتهُ صيانةُ حُرْم الوطن والعرض وحرّيّة التّدين عن عدوان من اشتدّ حرصهم على انتهاكها، وقويّت رغبتهم في استباحتها والاعتداء عليها.

(1) - الزّرقاني، شرح المواهب اللّديّة، دار الكتب العلميّة بيروت، ط. 1، 1996م، 2/220.

ومن أظهر الأدلة على ذلك تأخر مشروعية الجهاد بالمعنى الخاص (وهو القتال أو الغزو) إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة؛ لما استجد آنذاك من واجب المحافظة على المكاسب الجديدة التي ترتبت على الهجرة، وهي وجود الوطن الحاضن، وتأسس المجتمع المتماسك، ولا يمكن أن تتأق تلك المحافظة إلا بالمرابطة في ثغور الوطن وحراسة المجتمع، دفعاً لأي عدوانٍ واقع، وتحسباً لأي عدوانٍ متوقع.

ولا تجد أياً من الغزوات التي حفظتها كتب السيرة وأحصاها أصحابها إلا منتظمةً بحسب هاتين الغايتين. فهي تكون إما ردّاً على حروب بدأها غير المسلمين ضدّ النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه، وإما ردّاً فعلياً مباشر على مكائد تُحاك ضدّ المسلمين لأخذهم بغتةً أو على حين غرّة، وفي الجدول الآتي أمثلة لكلا النوعين:

اسم الغزوة	تاريخها	سببها	غايته
غزوة أحد	السنة الثالثة من الهجرة	خروج قريش للعدوان على المسلمين انتقاماً منهم بسبب انتصارهم في غزوة بدر ⁽¹⁾ .	دفع عدوان واقع
غزوة الأحزاب (الخندق)	السنة الخامسة من الهجرة	تأليب بعض زعماء يهود بني النضير جموع القبائل لحصار المدينة واستئصال شأفة المسلمين ⁽²⁾ .	دفع عدوان واقع
غزوة حنين	السنة الثامنة من الهجرة	استعداد هوازن وثقيف لقتال النبي صلى الله عليه وسلم بعد نجاحه في فتح مكة ⁽³⁾ .	دفع عدوان واقع
غزوة المريسيع	السنة السادسة من الهجرة	تخطيط بني المصطلق للعدوان على المسلمين بقيادة الحارث ابن أبي ضرار ⁽⁴⁾ .	دفع عدوان متوقع

(1) - الواقدي، المغازي، 1/101.

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، 277.

(3) - ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/150.

(4) - ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/93.

دفع عدوان متوقّع	تحالف بين يهود خيبر وبين قبيلة غطفان على العدوان على المسلمين. ⁽¹⁾	السنة السابعة من الهجرة	غزوة خيبر
دفع عدوان متوقّع	عدوان ملك بصرى على الحارث بن عمير الأزدي، مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم إليه. ⁽²⁾	السنة الثامنة من الهجرة	غزوة مؤتة

وعلى هذه التماذج فليُقَسَّ غيرها ممَّا عَدَّ من "غزوات" النبي صلى الله عليه وسلم، التي لا دلالة فيها على حربٍ عدوانيةٍ أو هجوميةٍ، ولا شيء فيها من إرهاب الآمنين، ولا من سلبِ أموالهم، أو بدئهم بقتالٍ يُكرهون به على تركِ أديانهم، أو إرغامهم على الدخول في الإسلام!

إنَّ هذا المبحث من السيرة العطرة يكتنزُ دروسًا تجلِّي حقائق الرسالة المحمّدية في جوانبٍ إيمانيةٍ وأخلاقيةٍ عديدةٍ يطول بتتبّعها المقام، لكن يسعنا أن نقف على نماذج ثلاثةٍ منها من حيث أحداثها وما يتشتمل عليه من نفيس المعاني ولطيف العبر، فليُبَسِّط القول فيها على النحو الآتي:

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 616.

(2) - الواقدي، المغازي، 2/755.

• مسرد الأحداث

لَمَّا عَقَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَهْدَ الْإِخَاءِ وَالْمَوَاطَنَةِ الشَّامِلَةَ بَيْنَ كُلِّ أُطْيَافِ الْمَجْتَمَعِ بِالْمَدِينَةِ، تَعَايَشَ أَهْلُهَا وَتَأَسَّوْا عَلَى خَيْرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَ عَلَيْهِ أَهْلُ بَلَدٍ مَنْظَّمٍ دَسْتُورِيًّا وَقَانُونِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا؛ إِذْ اتَّضَحَتْ فِيهِ صُورَةُ الْوَاجِبَاتِ الْمَشْرُوكَةِ، وَمَعَالِمِ الْحَقُوقِ وَالْحُرِّيَّاتِ الْمَشْرُوعَةِ، فَلَمْ يُعَدْ شَيْءٌ يَهْدِدُ الْمَجْتَمَعَ الْمَدِينِيَّ مِنْ دَاخِلِ بَنِيَّتِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ مَتَطَلِّبَاتِ الْعَيْشِ تَتَغَيَّرُ بِاسْتِمْرَارٍ، وَجَدَ الْمُهَاجِرُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَا تَرَكَوهُ خَلْفَهُمْ عَقِبَ هِجْرَتِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي سَلَبَهَا مِنْهُمْ الْمَكِّيُّونَ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَنَاهَى إِلَى عِلْمِهِمْ أَنَّ الْقَرَشِيِّينَ بَدِئُوا يَمُولُونَ بِهَا قَوَافِلَهُمُ التَّجَارِيَّةَ شِمَالًا نَحْوَ الشَّامِ، أَوْ جَنُوبًا نَحْوَ الْيَمَنِ، وَأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ رَغِبُوا فِي اسْتِعَادَتِهَا مِمَّنْ هَجَّرُوهُمْ وَحَرَمُوهُمْ مِنْهَا.

ذَكَرَ أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ قَافِلَةً تِجَارِيَّةً يَتْرَأْسُهَا أَبُو سَفْيَانَ قَادِمَةٌ مِنَ الشَّامِ، وَأَنَّهَا قَدْ مُوَلَّتْ بِمَا خَلَّفَهُ الْمُهَاجِرُونَ بِمَكَّةَ عِنْدَ هِجْرَتِهِمْ، فَعَزَمَ عَلَى اعْتِرَاضِهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ فِيهَا عَوْضًا عَنْ بَعْضِ مَا سُلِبَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُهَاجِرِينَ.⁽¹⁾

(1) - السهيلي، الروض الأنف، 60/5.

فخرج ﷺ في غير وفرةٍ من العدد أو العدد؛ إذ لم يكن يتوقع أن ينتهي خروجه بمواجهة مسلحة!

بلغ أبا سفيان خروج النبي ﷺ فأرسل على جناح السرعة بريدًا إلى قريش، يستنهضهم ليخرجوا إليه، فيحموا تجارتهم.

نزل المبعوث إلى قريش بمكة فأبلغهم الخبر، فعزموا على الاستجابة لاستنجاهه!

ثم بدا لأبي سفيان أن يغير طريق قافلته، فكان ذلك سببًا في عدم ملاقاته محمدًا صلى الله عليه وسلم وصحبه، فأرسل إلى قريش يطمئنهم بسلامة قافلته، ويشير عليهم أن يقرّوا بمكة فلا يخرجوا؛ إذ لم يعد هناك شيء يقتضي منهم ذلك. (1)

لما أدرك النبي ﷺ نجاة قافلة أبي سفيان عاد مع من كانوا معه إلى المدينة.

تذكر الروايات أنّ أبا جهل عمرو بن هشام كان قد ثارت في نفسه الحمية فأبى لقريش إلا الخروج لقتال محمد ﷺ ومن خرج معه، فتجهّز القوم للخروج في طقوس احتفالية، غير عابئين بتلك

(1) - ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ط 2، 1403 هـ، ص 104.

الثلة القليلة من المسلمين، في معركة أروا أنها محسومة لصالحهم لا محالة.

وقد سجّل القرآن الكريم ذلك في قول الله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: 74).

لم يعد خروج قريش كما أراد أبو سفيان أن يكون، مجرد دورية لحماية القافلة العائدة من الشام، ولكن صار نفيراً عاماً لوأد الدين الجديد، بمحضنه الجديد، مع حمايته الذين قبلوه واعتنقوه!

عَلِمَ ﷺ أَنِئذٍ الْمَوَاجِهَةُ مَعَ جَيْشِ الْمُكَيِّينَ وَاقِعَةٌ لَا مُحَالَةَ!

في هذه الظروف -التي تقتضي دواعي الفطرة والعقل والدين معاً- أن يجارب النبي وصحبه الكرام دفاعاً عن أنفسهم ووطنهم، نزل الإذن بالقتال في قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 39).

لم يكن النبي ﷺ بالذي يُلزمُ النَّاسَ ما لا يلزمهم؛ إذ لم تكن البيعتان اللتان أخذهما من أهل يثرب إلا لحماية دعوته، كما أنّ ظواهر ألفاظ وثيقة المدينة لا تشمل حالة الخروج منها وتجاوز حدودها.

لذلك استشار عليه الصلاة والسلام من كان معه من أصحابه، فتكلم باسم المهاجرين المقداد بن الأسود، قال: "يا رسول الله امض لِمَا أمرك الله فنحن معك!"

ظل ﷺ ينظر إلى الأنصار (أصحاب الأرض) ويقول: «أشيروا عليّ أيها النَّاس!»!

فقال له سعد بن معاذ: "إيَّانا تُريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نُخِيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك العَماد لفعلنا".⁽¹⁾

أيقن عليه الصلاة والسلام بعد سماعه كلام المهاجرين والأنصار أنّهم فقهاء مغزى البيعتين والوثيقة، وأنّ ثمرّة المواطنة والتربية عليها قد بدأت تؤتي أكلها؛ إذ صدروا جميعاً عن وعي بأنّ

(1) - المقيزي، إمتاع الأسماع، 94/1.

للوطنِ حرمةً يتجاوزُ واجبُ الدِّفاعِ عنها حدودَه، فحيثُما وُجدَ المرءُ،
وُجدَ معه حبُّ وطنه، وصاحبُه واجبُ الدِّفاعِ عنه والغيرةُ عليه!

استخلف رسول الله ﷺ عبد الله ابن أم مكتوم إمامًا ليصلي
بالتَّاس في المدينة، واستعمل عليها أبا لبابة الأنصاري، ثم سار بجيشه
- وكان عدده ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا -، ولم يكن معهم من
الخيَل إلا فرسان، وسبعون بعيرًا، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير
الواحد!

مضى عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ بهم حتى نزلوا ببدر. (1)

وفي ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، من السَّنة
الثَّانية للهجرة، بات رسول الله ﷺ وصحابته يتضرَّعون إلى الله عزَّ
وجلَّ بالدعاء، يستنصرونه ويستغيثون به، وكانت ليلةً غائمةً أمطرت
فيها السَّماءُ، فاستبشر النَّبيُّ ﷺ بذلك؛ وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿إِذْ
يُعَشِّيَكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمُ
بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
الْأَقْدَامَ﴾. (الأنفال: 11).

(1) - سميت بذلك لوقوعها قرب بئر حفرها رجلٌ غُضَارِيٌّ اسمه بدر، انظر: الزبيري، نسب قريش، تحقيق: لبيضي
بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط. 3، ص 12.

دارت رحى المعركة منذ اللحظات الأولى لصباح اليوم السابع عشر من رمضان، فثبت المسلمون مع رسول الله ﷺ في ساحتها، وقد ارتفعت معنوياتهم بما قوّوا به إيمانهم من صادق الدعاء، وما رأوه من هطول الغيث المدرار!

ثم انتهت المعركة بانتصارهم، ففرّت من القرشيين بقيّة سقّط في أيديهم، وأقام عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام في بدر، ثم رجع إلى المدينة.

وككلّ حربٍ لا بدّ أن تكون لموقعة بدرٍ نتائج، وأهمّ تلك النتائج أسرُ عددٍ من أفراد الجيش القرشيّ، وقد استشار النبيّ ﷺ أصحابه في أمرهم، فأشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يأخذ منهم فدية من المال، فأخذ ﷺ برأيه.

بعث أهل مكة في فداء أسراهم، فمنّ رسول الله ﷺ على عدد منهم ولم يأخذ فيهم فدية، فأسلم بعضهم بسبب ذلك.

فكان ذلك من عظمة النبيّ الكريم ﷺ، كصنيعه حين قيل أن يكون الفداء من بعض الأسرى تعليمُ أبناء المجتمع المدنيّ كيف يكتبون ويقرؤون، فعلم كلّ واحد منهم عشرةً من أولئك الأبناء.

كان لقصة بدر وانتصار المسلمين فيها أثرٌ كبير في تقوية شوكتهم وإكسابهم الهيبة من كل عدو يترصد بهم في المدينة ومن حولها، بل كان لها أثر عظيم في التاريخ، ولذلك سماها الله تعالى بيوم الفرقان في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (الأنفال: 41).

لم تكن موقعة بدرٍ عند المسلمين استعراضًا للقدرات العسكرية، ولا أثرًا للاغترار بالقوة، وإنما كانت دفاعًا عن حرمة النفس والوطن والدين.

لم تياس قريش من محاولة وأد الدعوة وقتل حملتها وأمنائها، فكانت لأجل ذلك تحاول اغتنام كل فرصة تراها سانحةً.

ولأمرٍ أو لآخر قديمٍ نفر من زعماء يهود بني النضير مكة في سؤال من السنة الخامسة يستعدون أهل مكة على النبي ﷺ، ويستدعونهم لقتاله بالمدينة، ثم صنعوا مثل ذلك مع قبائل عربيةٍ أخرى، كغطفان، فاجتمعت بسبب ذلك جيوشٌ عدّة قبائل، مُجمعةٌ أمرها على مداومة المدينة ومحاصرتها واقتحامها، فيما سُمي "غزوة الأحزاب".

لما بلغ رسول الله ﷺ خبر الأحزاب وقريش، ندب المسلمين وأخبرهم الخبر، وشاورهم في الأمر: أيمكث بالمدينة أم يخرج إليهم؟ فاتفقوا على البقاء في المدينة والأخذ بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي اقترح حفر خندق حول المدينة لتحسينها، والاحتماء داخلها.⁽¹⁾

شارك الرسول ﷺ الصحابة الكرام في حفر الخندق، وعمل المسلمون في ذلك مجتهدين، وقد استغرق العمل في ذلك ستة أيام. أقبلت الأحزاب مع قريش وغيرها من القبائل بمجمع يعرف بالأسياح، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلع،⁽²⁾ فضربوا عسكرهم، ووجد الأحزاب الخندق فاصلاً بينهم وبين جيش المدينة فاحتاروا؛ إذ لم يكن ذلك من خطط الحرب التي خبروها قبل!

ذهب زعيم بني النضير حُي بن أخطب يستميل بني قريظة لينضموا إلى قريش وحلفائها، فما لبثوا أن وافقوا بعد ممانعة مبدئية، وبتلك الموافقة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ!

(1) - المقرئزي، إمتاع الأسماع، 266/9.

(2) - الحلبي، إنسان العيون، 421/2.

وجد المسلمون أنفسهم محاطين بالعدوّ من أمامهم ومن خلفهم، واشتدّ البلاء عليهم، وانتابهم الخوف على مصير نسائهم وأولادهم.

أقام رسول الله ﷺ بضعا وعشرين ليلةً، لم يكن بينه وبين الأحزاب حرب إلا الرمي بالنبل والحصا، ما خلا ما كان من بعض الرجال الذين حاولوا اقتحامَ الخندق من جهة ضيقة منه، فردهم المسلمون على أعقابهم.

لم تنفرج كربة الأحزاب إلا بعد أن ساق الله رجلاً من غطفان، اسمه نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، جاء معلنا إسلامه لرسول الله ﷺ، فقال: إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فخذل عتّا ما استطعت، فإن الحرب خدعة»⁽¹⁾.

استطاع نعيم بسياسة ودهاء أن يززع ثقة الأحزاب فيما بينهم، فأثار الشكوك في نفوس بعضهم تلقاء بعض.

ذهب إلى بني قريظة فأقنعهم بعدم القتال مع قريش وغطفان حتى يعطوهم رهائن، ثم مضى إلى قريش وقال لهم: إن يهود قد ندموا

(1) - البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط 1، 1988، 3/445-446.

على نقض العهد، وأنهم سيطلبون منكم رهائن يقومون بدفعها لمحمد، وذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك، فلما بعثت الأحزاب وقريش إلى اليهود لأجل قتال محمد طالبوهم برهائن، فكان الطلب سبباً في تصديق قريش وغطفان كلام نعيم!

وبرفض قريش وغطفان طلب يهود صدق هؤلاء أيضاً قول نعيم، فتخاذل الفريقان، ودبت فيهم الفرقة، وخارت عزائمهم.⁽¹⁾

وقد كان النبي ﷺ - مع الاستعانة بحيلة نعيم - كثير التوجه إلى ربّه بالدعاء على الأحزاب؛ يقول: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، إِهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمِهِمْ وَزَلِّهِمْ».⁽²⁾

وكذلك كان المسلمون يدعون الله تعالى قائلين: «اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَأَمِنْ رِوَعَاتِنَا».⁽³⁾

تؤكد تفاصيل غزوة الأحزاب طبيعة المعارك التي اقتضت الضرورة من النبي عليه الصلاة والسلام خوضها، وهي كونها عبارة عن حروب دفاعية، غايتها حماية النفس والوطن والدين!

(1) - التيمي، سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ص 113.

(2) - متفق عليه من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

(3) - الدياربيكري، تاريخ الخميس، 491/1.

كما أكّدت له عليه الصّلاة والسّلام أنّ القيم والأخلاق أهمّ
ضامنٍ للوفاء بالمواثيق والعهود، وأنّه متى نُقضت كان من الحزم
استعمال الحنكة والدّهاء؛ إذ لا يكون التّمسك بالمواثيق آتئذٍ إلّا
ضرباً من السّداجة والغباء!

إنّ تعاقب الأحداث الدّالة على حرص قريش على كراهية محمّد
ﷺ ومحاربتة والسّعي في القضاء عليه، لم يكن ليثنيه عن مبادئه
وقيمه وعن وفائه لوطنه الأصليّ مكّة؛ لذلك عزم ﷺ على الاعتمار في
السّنة السادسة من الهجرة، في شهر ذي القعدة منه.

كان عليه الصّلاة والسّلام قد أري في المنام أنه دخل هو وأصحابه
المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، فأخبر
المسلمين بذلك، وخرج الجمع يوم الاثنين غرة ذي القعدة من السنة
المذكورة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وساقوا الأنعام لينحروها هدايا عقب
اعتمارهم؛ ليعلم النّاس أنه لم يخرج محاربا وإنما خرج معتمرا.

كان من مقاصد اعتماره ﷺ في هذه السّنة أن يواصل سياسة
اليد الممدودة للصّح والسلام، ولم يكن يرى شيئا ممّا مارسوه ضدّه
من مكائد ووسائل ومحاولات القتل والاستئصال مسوّغا أن يتخلّى

عن مبادئه التي يؤمن بها، والتي هي أساس دعوته ومقصد مقاصدها!
 لما وصل الرسول ﷺ عُسفان بلغه أن قريشا وحلفاءها أجمعوا
 على منعه من دخول مكة، وبعثت خالد بن الوليد بمائتي فارس لأجل
 ذلك، فسلك ﷺ بأصحابه طريقا وعرة، فما كان من خالد إلا أن
 رجع وأخبر قريشا بصنيع محمد عليه الصلاة والسلام.⁽¹⁾

لم تملك قريش إلا أن تستجوبه ﷺ عن سبب قدومه مكة،
 فأخبر مبعوثهم أنه لم يأت محاربا وأنه إنما جاء زائرا للبيت ومعتبرا،
 وأنه في الصلح أرغب منه في الحرب.

رجع المبعوث بالخبر إلى قريش، فخشوا أن يكون السماح
 لمحمد بمراده سبباً لهم بين العرب يعيرون بها؛ قالوا: والله لا يدخلها
 علينا عنوة أبدا، ولا تحدث عنا العرب أبدا!.

ثم توالى رسلهم لاستطلاع حقيقة الأمر ومنتهى ما تعلق به
 قصد النبي الكريم، فلم تكن الرسل تُشير عليهم إلا بالتخلى بينه
 وبين ما قصد إليه.

بعث عليه الصلاة والسلام - بدوره - عثمان بن عفان إلى قريش

(1) - الكلاعي، الاكتفاء، 1/464.

ليؤكد لهم أنه إنما يريد زيارة بيت الله الحرام، وأنه لا نية له في القتال، فبلغ عثمانُ قريشًا بما حُمِّل، وعرضوا عليه الطواف بالبيت، لكنه رفض ورسول الله ﷺ ممنوع.

حبست قريش عثمانَ وأُشيعَ أنَّه قُتِلَ، فكادت الحرب تنشب بين الفريقين بسبب ذلك.⁽¹⁾

دعا ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَبَايِعُونَهُ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى الْمَوْتِ، فَسَمَّيْتَ "بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ"، وَفِيهَا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: 18).

سارعت قريش -بعد أن بلغها نبأ البيعة- ببعث سهيل بن عمرو لأجل عقد الصلح، وجرى بينه وبين رسول الله ﷺ كلام طويل انتهى بعقد الصلح على الشروط الآتية:

- أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين.

- أن يرجع الرسول ﷺ في هذا العام دون دخول مكة، ويدخلها العام القادم، فيقيم ثلاثة أيام.

(1) - السهيلي، الرُّوضُ الْأَنْفُ، 64/7.

- أنه من أحب من قبائل العرب أن يدخل في عهد محمد دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

وقد دخلت خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش.

- أنّ من أتى محمداً من قريش هارباً وجب عليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من أتباع محمد هارباً لم يجب عليهم رده عليه.

ونصّ هذا الصلح ما يأتي: "هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه، ومن أتى قريشاً ممّن مع محمد لم يردّوه عليه، وأنّ بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعهده دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش وعهد قريش وعهدهم دخل فيه...، وأنتك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها".

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو؛ إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه، دخل الناس في ذلك عليهم أمر عظيم حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه وضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد قد لحت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: «صدقت» فجعل يبتزه بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني"، فزاد الناس ذلك إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»⁽¹⁾.

لم يكد المسلمون يظلمون على شروط هذا الصلح حتى أنكرها بعضهم، لا اعتراضاً على إبرام النبي ﷺ لها وقبوله بها، ولكن لما فيها من ضرر وعدم إنصاف!

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 2/318.

فدخلهم بذلك أمر عظيم، وكان صدهم عن الطواف بالبيت أشدّ تأثيراً في قلوبهم، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، الذي سأل رسول الله ﷺ أسئلة إنكارٍ واستفهام، فكان من جملة ما قاله رسول الله ﷺ يومئذٍ: «والله لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرّات الله إلا أعطيتهم إياها».⁽¹⁾

لقد رأى المسلمون في شروط الصلح تنازلاً، وأما الرسول فرأى فيها فتحة ونصراً، وكذلك كان؛ فقد نزلت عليه وهو في الطريق سورة الفتح التي أولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: 1) تبشّر بالنصر المبين.

وقد اطمأنت نفوسهم بذلك بعدُ، كما قرّت عيونهم بمحمود ما ترتّب عليه من العواقب.

• الفوائد والعبر

اشتمل هذا الفصل من السيرة العطرة على جملة من الفوائد والعبر نُفصلها فيما يأتي:

(1) - ابن حزم، جوامع السيرة، ص 208.

- مقصدية القيم في الإسلام.

ذلك أنّ النبيّ عليه الصّلاة والسّلام -الذي انتصبَ في مقام الهدايةِ إلى حقيقة مراد الله عزّ وجلّ من عباده- لم تكن تحركاته وأفعاله طيلة حياته إلاّ امتثالاً لمقتضى القيم وتجسيداً لما يتّسق معها من أنماط التّعامل والمخالقة.

فهو ﷺ دائم السّعي في سبيل إعلاء القيم وترسيخ مقتضى الإيمان بها في النفوس، وذلك بلسان الحال قبل لسان المقال.

رأيناه في هذا الفصل من سيرته ﷺ ينشد تحقيق قيمة العدالة بخروجه إلى بدرٍ؛ إذ لم يكن لقريش أن يخلو لهم الجوّ فيتمتّعوا بما غصبوا من أموال المهاجرين وأرزاقهم، فيتاجروا بها ويستفيدوا من عائداتها دونهم، كما رأيناه في غزوة الأحزاب يدرك قيمة الوفاء بالعهود، وأنّ نقضها أعظم خيانة على الإطلاق، كما رأيناه مرّةً ثالثةً في صلح الحديبية يمدّ يده بالصّلح إلى من كان هلاكه وفشل دعوته أحبّ إليهم من كلّ شيء، ويقبل بالشّروط المجحفة ما دام الرّجاء قويّاً في أن تعصم الدّماء وتضع الحرب أوزارها، وتوصل الأرحام، وينعم النّاس بالأمن والاستقرار.

فكان من جوانب عظمة شخصيته ﷺ تقديره للقيم، وحرصه على تفعيلها، وسعيه إلى التوافق والتحالف عليها؛ إذ بها دوام استقرار المجتمعات وأمن الأوطان.

- أنّ للسلّم في سلّم القيم مرتبة عليا، فهو أسمى من كلّ القيم جميعاً.

ذلك أنّه حاضرٌ لها، لا وجودَ لها بدونه، ومتى اختلّ عاد أثر ذلك عليها بالتّقص والإبطال.

لذلك نظرت إليه الشريعة نظرتها إلى كليات المقاصد، فجعلته شرطاً لتحقيقها.

ولذلك ورد الأمر به في القرآن الكريم مختصاً بتعبير لم يستعمل فيما سواه من تكاليف الشريعة؛ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (البقرة: 208).

فكانّ السلّم حصنٌ أمر المؤمنون بالدخول فيه؛ احتماً به من سائر ما من شأنه أن يكدر صفو عيشتهم من فتن الحروب.

ثمّ أكّد هذا الأمر بالتهي عن ضده وهو الحرب، معبراً عنه

باتِّباع طريق الشَّيْطان، التي لا يجادلُ أحدٌ في سوء عاقبتها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: 208).

وقد تجلَّى عِظم اعتناء النَّبيِّ ﷺ بامثال أمر الدَّخول في السَّلم في مواقف عديدةٍ منها موقفه من صلح الحديبية حين أنكر عليه بعض الصَّحابة القبولَ ببعض شروطها المجحفة؛ فقال: «والله لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرَمات الله إلا أعطيتهم إياها»⁽¹⁾.

وذلك من عظيم حنكته ﷺ وعمق تقديره لعواقب الأمور؛ وقد صدق من قال:

السَّلمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ
وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَهْوَالِهَا جَرْعُ

فلا شيء أوسع للمجتمعات من دائرة السَّلم، ففيها يهنأ العيشُ ويكون للإنسان معنى!

3. أن ما سمي بالغزوات لم يكن حروباً ابتدائيةً مقصوداً بها انتهاكُ حُرْمِ الأعراس والأوطان، ولا إزهاق الأرواح وإهلاك النفوس، وإنما كانت تدابير دفاعيةً اقتضتها الضرورة.

(1) - ابن حزم، جوامع السيرة، ص 164.

فلم يكن قط من أمر غزوةٍ إلا وقد سبقها عدوانٌ من أعداء الدعوة، الذين يتربصون الدوائر على الدوام.

وجميع تلك الغزوات إنما كانت على هذه الشاكلة من غير استثناء.

ومما يؤكد ذلك ما في آيات القتال من التصريح بكونه إنما شرع لردّ العدوان؛ كقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190).

ومن الجلي ما تفيدُه صيغةُ المفاعلة في قوله: (وقاتلوا) من الدلالة على سبق حصول العدوان الواقع أو المتوقع من الأعداء، فذلك شرطٌ في مشروعية أي محاربة أو قتال!

ولأجل ذلك كان مناط مشروعية القتال إنما هو حصول العدوان، ومن شروطه تعيينه بأمر الإمام ولي الأمر، الذي يمثله الآن رئيس الدولة، فلا يجب جهاد ولا قتال إلا بأمره.

وقد علمنا هدي النبي ﷺ في غزواته هذا المعنى؛ إذ لم يكن يسمح بأي قتال فرديٍّ أو جماعيٍّ إلا بأمر منه عليه الصلاة والسلام، وبعد تقديره لما يمكن أن يترتب عليه من مصالح ومفاسد.

• أهميّة الاستشارة في مهمّات الأمور.

فقد رأينا ﷺ يستشير قبل الخروج لبدري، وعند علمه بمداهمة الأحزاب المدينة، وعند مسيره للعمرة عام صلح الحديبية، فدلّ ذلك على تواضعه ﷺ، وعلى حزمه وعزمه، وحسن تقديره لمهمّات الأمور. والمشورة من أهم مجالي قيمة الأمانة؛ إذ «المستشار مؤتمن»، فلا يحسنُ تطلّبها إلا من أمين!

• الوفاء بالالتزامات والعهود من غير إثقالٍ ولا إعنات.

فالمسلمون عند شروطهم، والله تعالى أمر بالوفاء بالعهود فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: 1).

وليس من الوفاء في شيء استيفاء ما فوق مقتضى العهود، ولا إثقال المعاهدين بما لم يتفق عليه حال عقدها؛ فإنّ ذلك إعناتٌ بهم وتخريجٌ عليهم.

لذلك رأينا النبي ﷺ يسأل صحابته عن رأيهم قبل أن يخرج لبدري؛ حتّى لا يكون إخراجهم بمثابة إلزامٍ لهم بما لم يلتزموا به.

• عِظَم ما للعلم من أهميّة في الإسلام.

يتبين ذلك في قبوله ﷺ بالتعليم فداءً للأسرى، فكان العلمُ
ثمنًا عديلاً للحرية، ولم يبلغ أحدٌ قطُّ في تعظيم قدر العلم وتعليمه
هذا المبلغ!

إن هذا الصنيع من محمدٍ ﷺ نجد فيه ما يحفزنا على الجدِّية في
سبيل العلم طلبًا وأداءً، فهو نعم العُدَّة لعَدِّ، وبه ترتقي الأمم لتتسمَّ
ذُرَى المجد والحضارة.

• أن الإيمان ملتجأ المؤمن حال نزول الملمات به.

فإذا دهمت الخطوب، احتمى بإيمانه، وأمارة ذلك حسن توجهه
بالدعاء إلى ربه عزَّ وجلَّ؛ تصديقًا بوعدِهِ إذ قال في محكم كتابه:
﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60).

وقد كان عليه الصلاة والسلام دائم اللجأ إلى ربه، جاعلاً
تعويله عليه زاده وعُدته، وأخلاق بمن كان كذلك أن يعيش آمناً
سعيداً!



رسائل النبي ﷺ إلى الملوك

• مسرد الأحداث

كان من جملة ما دلّ عليه هديُّ النبي ﷺ في تعامله مع الأحداث التي أعقبت استقراره بالمدينة، مكانة السلم في دعوته عليه الصلاة والسلام؛ إذ لم يبادر قطُّ بالانخراط في مواجهة أو قتال، وإنما كانت جميع حروبه دفاعيةً، يحمي بها حمى الوطن، ويصون حُرمة العرض، ويحفظ حقّه في حرّية التدين.

كان العالم من حوله عليه الصلاة والسلام حديث العهد بهذه المعاني والمبادئ، وكان حرصه على تمثيلها وتنزيلها واقعًا معيشًا بمثابة فتح لآفاق جديدة في النظر إلى حقيقة الوجود الإنساني والغاية منه.

ولعلّ إقبال كثيرٍ من مستوطني جزيرة العرب على الدخول في الإسلام، -كسلمان الفارسي- إنما كان من آثار الإعجاب بهذه النظرة الجديدة للكون والحياة، والتي بلغت من الرقيّ الفكريّ والحضاريّ أعلى المراتب وأقصى الآفاق.

ووعيًا من النبي عليه الصلاة والسلام بحاجة البشرية إلى هذه المعاني النفيسة والمبادئ السامية، توجّهت عنايته إلى بثّها في العالم، داعيًا إليها، وإلى الاقتداء بتجربة مجتمع المدينة في تنزيلها.

ولم يكن عليه الصلاة والسلام بالذي يقصد إلى مخاطبة الأقسام والشعوب، ببعث الرسل إليهم دون استئذان السلطة القائمة في كل منها؛ إذ لا يعني ذلك إلا سعيًا في الفتنة، وقصدًا إلى هدم النظم القائمة، التي بها استقرار تلك الأقسام والشعوب.

لذلك قصر عليه الصلاة والسلام رسائله وبعوثه على عظمائهم، فوجهها إليهم حاملة اسم السلام، مبتدئًا إياهم بتحيةة السلام، معرفًا إياهم أن غاية مطلوبه أن ينعموا بالسلام!

ذكر أهل التاريخ والسير أنه ﷺ بدأ في بعث الرسل إلى أولئك العظماء بعد رجوعه من صلح الحديبية الذي اتفق فيه مع قريش على هدنة مدتها عشر سنين.

فبعث عليه الصلاة والسلام سفراء من أصحابه، محملاً إياهم كتبًا يدعوا فيها إلى الإسلام والسلام.

فلم يترك عظيمًا من عظماء الأمم والأقوام إلا أرسل إليه مبعوثًا،⁽¹⁾ وقد أورد ابن حنبل في الأنصاري أسماءهم، ومن جملتهم:

اسم المبعوث	اسم المبعوث إليه	تاريخ الرسالة

(1) - ابن هشام، السيرة النبوية، 607/2؛ وقد ألف أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن حنبل الأنصاري

أواخر عام 6 هـ	النجاشي ملك الحبشة	عمرو بن أمية الضمري الكناني ⁽¹⁾	2
أواخر عام 6 هـ	هرقل قيصر الروم	دحية بن خليفة الكلبي ⁽²⁾	3
أواخر عام 6 هـ	المقوقس ملك مصر	حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ⁽³⁾	4
أواخر عام 6 هـ	الحارث بن شمر الغساني ملك الغساسنة بالشام	شجاع بن أبي وهب الأسدي ⁽⁴⁾	5
أواخر عام 6 هـ	هوزة بن علي الحنفي ملك اليمامة	سليط بن عمرو العامري القرشي ⁽⁵⁾	6

(ت783هـ)، كتابا في هذا الموضوع سماه : المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي؛ وقد طبعته دار الكتب ببيروت، 1985، بتحقيق الشيخ محمد عظيم الدين؛ وقد خص هذه الرسائل ابن طولون الدمشقي بكتاب سماه: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، وقد حققه محمود الأرنؤوط، وطبعته مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987.

(1) - المصباح المضي، 1/231.

(2) - السابق، 1/211.

(3) - السابق، 1/202.

(4) - السابق، 1/215.

(5) - السابق، 1/217.

أواخر عام 6 هـ	المنذر بن ساوى العبيدي في البحرين	العلاء بن الحضرمي ⁽¹⁾	7
أوائل عام 7 هـ	كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس	عبد الله بن حذافة السهمي ⁽²⁾	8
أواخر عام 8 هـ	جيفر وعبد ابنا الجلندي في عمان	عمرو بن العاص القرشي السهمي ⁽³⁾	9
أواسط عام 8 هـ	عظيم بصرى في الشام	الحارث بن عمير الأزدي ⁽⁴⁾	10
عام 9 هـ	الحارث بن عبد كلال الحميري في اليمن	المهاجر بن أمية القرشي المخزومي ⁽⁵⁾	11

(1) - السابق، 230/1.

(2) - السابق، 220/1.

(3) - السابق، 231/1.

(4) - السابق، 206/1.

(5) - السابق، 256/1.

أواخر عام 9 هـ	الحارث وشرحبيل ونعيم بنو عبد كلال	معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي ⁽¹⁾	12
أواخر عام 9 هـ	الحارث بن عبد كلال وإخوته	أبو موسى الأشعري ⁽²⁾	13
أواخر عام 10 هـ	الحارث بن عبد كلال وإخوته وبنو الحارث بن كعب في نجران	عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي ⁽³⁾	14
عام 11 هـ	ذو الكلاع وذو عمرو في اليمن	جرير بن عبدالله البجلي ⁽⁴⁾	15

وقد حرص النبي ﷺ على احترام أعراف مراسلة هؤلاء العظماء،
فخاطبهم بصفاتهم، مقرأ لهم بما تقتضيه مقاماتهم من عبارات
التعظيم والإكبار، وقد اتخذ ﷺ خاتماً ليختم به تلك الرسائل،
نقش عليه محمد رسول الله.

(1) - السابق، 249/1.

(2) - السابق، 223/1.

(3) - السابق، 234/1.

(4) - السابق، 195/1.

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، ف قيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلاَّ بختام، فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقتة فضة، ونقش فيه محمد رسول الله. (1)

• ومن نصوص تلك الرسائل:

رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، وهو الممثل للدولة البيزنطية في الإسكندرية ومصر:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْمُقَوِّسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾». (2)

(1) - متفق عليه: رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب السير، باب دعوة اليهود والنصارى، رقم: 2938؛ ومسلم في الصحيح، كتاب اللباس والزينة، باب في اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتماً لما أراد أن يكتب إلى العجم، رقم: 2092.

(2) - ابن طولون، إعلام السانلین، ص 81.

وختم الكتاب، فخرج به حاطبٌ حتى قدم عليه الاسكندرية،
فانتهى إلى حاجبه، فلم يلبثه أن أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ،
وقال حاطب للمقوقس لما لقيه: "إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه
الربّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم
منه، واعتبر بغيرك ولا يعتبر بك".

قال: هات، قال: "إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خيرٌ منه وهو
الإسلام، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش...،
ولعمري ما بشاراة موسى بعيسى بن مريم إلا كبشارة عيسى بمحمد
ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل،
وكل نبي أدرك قومًا فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن
أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به".

فقال المقوقس: "إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر
بمزهود فيه، ولا ينهى إلا عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال،
ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبيء، والأخبار
بالنجوى، وسأنظر".

ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ: "بسم

الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك...، والسلام عليك.⁽¹⁾

لقد ابتدأ النبي ﷺ رسالته بالبسملة ثم عرف بنفسه فذكر اسمه واسم أبيه، وبعد ذلك ذكر لقب المرسل إليه بناء على مكانته عند قومه، فلذلك قال: «عظيم القبط»؛ إحقاقا لمكانته ومنزلته بين رعيته واعترافًا بفضله، ولم تمنعه مكانته كني أو ممثل للإسلام أن يعظمه.

ويلاحظ في هذه الرسالة كذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «أسلم تسلم»، ومعناها: "إن أسلمت سلمك الله في الآخرة"؛ فلذلك أتبع الرسول ﷺ كلمته هذه بقوله: «أَسْلِمُ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ». فهي قرينة على أن المراد بالسلامة التجارة في الآخرة، لا التهديد بالحرب في الدنيا.

وقوله: «إن توليت فعليك إثم القبط» فالقبط هم رعية المقوقس،

(1) - ابن طولون، إعلام السائلين، ص 83.

وهي لفظة تطلق على المصريين قديما، ومعنى ذلك : إن لم تسلم فإن عليك إثم القبط كافة؛ لأنه إن أسلمت كانوا أقرب إلى الإسلام، وكان احتمال إسلامهم كبيرا، ولكن إن لم تسلم فمن الصعب جدا أن تُسلم الرعية، فلذلك كان عليه إثمهم.

كما نلاحظ أن حاطب بن بلتعة رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ ختم قوله "ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به"، وفي ذلك إشارة إلى المقوقس بأن الدين الذي جاء به عيسى ومحمد وسائر أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام دين واحد، وهو دين الله تعالى.

وفيه بيان أن الدين الإسلامي لا ينفي تشريعات من سبق من الرسل الذين أرسلهم الله فجميعها تخرج من مشكاة واحدة.

والظاهر من كلام حاطب أنه على علم بالدين النصراني وبتعاليمه، فكأنه بمقولته هذه يدعو المقوقس بأن يتبع عيسى بن مريم والإنجيل الذي يدعو إلى اتباع آخر الأنبياء والرسل الذي جاء وصفه فيه.

ويظهر لنا من رد المقوقس على حاطب رضي الله عنه أنه عظم النبي ﷺ ووقع في نفسه شيء من الإيمان بنبوته محمد ﷺ، فإنه أثنى

على النبي ﷺ، وأهداه هدايا يعبر بها عن عمق تقديره له واحترامه إياه.

رسالة النبي ﷺ إلى هرقل: (1)

وهي أشهر الرسائل التي أرسلها النبي محمد ﷺ إلى الملوك، وحمل هذه الرسالة صحابي من الرعيّل الأوّل، شابّ فطنٌ، جميل الصورة، هو دحية بن خليفة الكليبي رضي الله عنه.

أمره ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ قال: "التمسوا لنا هنا من قومه أحدا نسألهم عنه". (2)

قال ابن عباس: "فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدّموا تجارا، وذلك في الهدنة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش، قال: فأتانا رسول قيصر، فانطلق بنا حتى قدمنا إيلياء، فأدخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه عليه التاج، وحوله عظماء الروم.

(1) - ابن طولون، إعلام السائلين، ص 67-80.

(2) - جلال الدين السيوطي، الخصائص الكبرى، دار الكتب الحديثة، 116/2.

فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الذي يزعم أنه نبي؟
قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبا، وليس في الرّكب يومئذ رجل
من بني عبد مناف غيري، قال قيصر: أدنوه مني، ثم أمر بأصحابي
فجعلوا خلف ظهري، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا
أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وإنما جعلتكم
خلف كتفيه لتردّوا عليه كذبا إن قاله.

قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء يومئذ أن يأتروا علي كذبا
لكذبت عليه، ولكني استحيت فصدقت وأنا كاره.

ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت:
هو فينا ذو نسب.

قال: قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت:
لا.

قال: هل كان من آباءه ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشرف التّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: فهل يزيدون أو ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟
قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة لا ندري ما
هو فاعل فيها.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف حربكم وحربه؟ قلت: دول وسجال.

قال: فما يأمركم به؟ قلت يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك
به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم
ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال هذا القول منكم أحد قبله، فزعمت أن لا،
فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتي بقول قيل
قبله.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال،
فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس
ويكذب على الله.

وسألتك: هل كان من آباءه ملك قلت: لا، فقلت: لو كان من
آباءه ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقلت: ضعفاؤهم،
وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون، فزعمت أنهم
يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل يرتد أحد سخطة
لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط
بشاشة القلوب لا يسخطه أحد.

وسألتك، هل قاتلتموه، فقلت: نعم، أن حربكم وحربه دول
وسجال، يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى، وكذلك الرسل
تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة.

وسألتك: ماذا يأمركم به، فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

وهو نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه فيكم،

وإن كان ما أتاني عنه حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقيته، ولو كنت عنده لغسلت قدميه.

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقريء، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين،⁽¹⁾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾».

قال أبو سفيان: فلما قضى مقاله وفرغ من الكتاب، علت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا، فلما خرجت أنا وأصحابي وخلصنا قلت لهم: قد أمر أمر ابن أبي كبشة،⁽²⁾ هذا ملك بني الأصفر يخافه!

(1) - للعلماء في بيان المراد بهم أقوال أشهرها أنهم الفلاحون، وهو معنى بعيد؛ إذ إن من الروم من هو فلاح ومن هو بخلاف ذلك، وقيل: إنهم أتباع أريوس، وهو رجل مجدد جاء ليعيد الديانة المسيحية إلى ما كانت عليه من التوحيد، وقد مات قبل مبعث النبي محمد ﷺ ب 200 عام، انظر: القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 84-83/2.

(2) - أي عظم أمر ابن أبي كبشة ويقصد به النبي صلى الله عليه وسلم ويقال إن أبا كبشة جد النبي من أمه وبعضهم يقول من بيت مرضعته.

قال: فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل
الله عليّ الإسلام.⁽¹⁾

وأُتبع البخاري هذه الرواية بأن هرقل أمر بطارقه فاجتمعوا
في دسكرته،⁽²⁾ كان ذلك في حمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع
فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت
ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى
الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من
الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي أنفاً أختبر بها
شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان
ذلك آخر شأن هرقل.⁽³⁾

• الفوائد والعبر

اشتمل هذا الفصل من السيرة العطرة على جملة فوائد وعبر
منها:

- أن الإسلام لا يهدم الأوضاع القائمة، ولا يُجُلُّ بمراتب الناس

(1) - ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/326.

(2) - الدسكرة: المكان الذي يكون به القصر وبيوتات الخدم.

(3) - ابن طولون، إعلام السائلين، ص 73، وانظر: السيوطي، الخصائص الكبرى، 2/117-132.

ومنازلهم، دلّ على ذلك صنيع النَّبِيِّ ﷺ مع سائر من كتب إليهم من العظماء.

• وقد حرص عليه الصلاة والسلام على ذلك لغايتين:

أولاهما: بيان أن الإسلام لا يسعى إلى الإخلال بما ارتضاه الناس لأمر معاشهم من الأنظمة، ولا إلى زعزعة ثقتهم في ولاة أمورهم، وإنما يقصدُ إلى حفظ تلك الأنظمة، ويؤكدُ على احترامها، ويدعو إلى توثيق عرى الولاء والطاعة بين الأمراء والمأمورين؛ لعظم أثر ذلك في حفظ الأمن والاستقرار.

ثانيهما: إيضاح أن التسامح قيمة عظمى في الإسلام، ومقتضاها الاعتراف للناس بمنازلهم، أيًا ما كانت عقائدهم وأديانهم.

فلم يكن عليه الصلاة والسلام يرى اختلاف الدين مانعًا من معاملة العظماء بما يستحقون، فقد خاطب كلاً منهم بما يتناسب مع ما لهم عند أقوامهم من رفيع مكانة وعظيم منزلة، وقد عظم أثر ذلك في نفوسهم، فكانت ردودهم في غالب الأحوال إيجابيةً، حتى إنّه كان منهم من أرفق الجوابَ بهديا قيّمة، تعبيراً عن حسن التقدير والإجلال له عليه الصلاة والسلام.

• أهميّة الصّـلح وأولوئـيته عند التنازع ونشوب الصّـراعات.

إنّ الصّـلح وسيلةٌ لاستدامة السّـلم، ولو بالتنازل عن بعض الحقوق.

فقد كان اتّفاق الحديبية فتحا عظيما على التّاس، نـعموا بسببه من السّـلم والاستقرار بما لم يكن ليصلوا إليه لو سلـكوا طريق الحرب.

بفضل هذا الصّـلح استطاع النّبـيّ عليه السّـلام أن يبدأ مرحلة جديدة في إبلاغ الرّسالة، وذلك بعد تحقيق السّـلام مع قريش وقبائل العرب، حيث وجد عليه السّـلام الفرصة السانحة لتبليغ الدّين إلى التّاس جميعا عربهم وعجمهم، فانتقلت بذلك الرّسالة المحمدية من حيز الجزيرة العربيّة إلى العالم بالانفتاح على الأمم والشعوب في مشارق الأرض ومغاربها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: 158)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبا: 28)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

• عراقة التمسك بالقيم الخلقية عند العرب.

ذلك أن أبا سفيان عندما وقف أمام هرقل لم يكن قد أسلم بعد، ومع ذلك وجد من أخلاقه وازعًا له عن أن يكذب على النبي ﷺ.

فالحياء وهو أعظم الأخلاق وأسامها رتبةً كان مانعًا له عن الكذب رغم عداؤه إياه عليه الصلاة والسلام؛ قال أبو سفيان: "فوالله لولا الحياء يومئذ أن يأتروا علي كذبا لكذبت عليه، ولكني استحيت فصدقت وأنا كاره" (1).

وقد كان هذا الخلق من أخص سمات النبي ﷺ، ومن أهم ما أوصى المؤمنين أن يتحلوا به، وقد روى البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال: «الحَيَاءُ بِضَعَةٌ وَسُتُونٌ شُعْبَةٌ، وَالْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ» (2).

• أن القيم الخلقية هي جوهر الإسلام.

ذلك أن أبا سفيان لما سأله عظيم الروم عن المعالم الكبرى لدين النبي ﷺ ودعوته، ذكر أمورًا معظمها مفاهيم أخلاقية، كالعفاف، والصدق، والصلوة، والأمانة والوفاء بالعهد.

(1) - السيوطي، الخصائص الكبرى، 116/2.

(2) - متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم: 9، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم: 35.

ولا شك أنّ ورودَ هذه المفاهيم في مقام التعريف بالدين والدعوة له بالغ الأهمية في الدلالة على أنّ جوهر الدين وغاية غايته إنّما هو التربية على هذه المعاني والمفاهيم، وأن بقية الشعائر هي في حكم الوسائل والأسباب.

وإنّ اعترافَ أبي سفيان بذلك دليلٌ على تسليمه - كغيره من أهل مكة - بسموّ هذه القيم، وبمعرفتهم إيّاها، وبإقرارهم بعظم مكانتها، وبأنّها كانت من جملة ما يؤمنون به من نفيس القيم ومحمود الخصال.

• تناسب الإسلام مع غيره من الأديان فيما تدعو إليه من تعاليم الفضيلة وقيم الخير.

ولأجل ذلك لم ينكر غالبٌ من راسلهم النبي ﷺ شيئاً مما دعاهم إليه، وذلك أثرٌ من وحدة الدين، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ۖ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: 13).

فالدين واحدٌ بما يدعو إليه من قيم الإيمان وأخلاق الفضيلة،

ورسالات الأنبياء يؤكد بعضها بعضاً، وتتسق تعاليمها فيما يحقق
سامي مقاصد الدين وغاياته.

وبعد، فهذه مرحلة البعث والمراسلات من سيرة النبي عليه
الصلاة والسلام، وما تضمنته من لطيف الإشارات إلى حقيقة الدين،
وسعيه إلى ضمان الاستقرار و استبقاء الأمن وتحقيق السلام
للمجتمعات والأمم والشعوب.

وقد كانت لرسائله عليه السلام إلى الملوك والأمراء آثاراً ظاهرة
في التمهيد لدخول الناس في دين الله أفواجا، لا سيما بعد عام فتح
مكة، فجاءت بعدها السنة التي عُرفت بسنة الوفود، وذلك ما سيبيِّن
في المحور القادم.



فتح مكة وعام الوفود

• مسرد الأحداث

كان فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، حين نقضت قريش شروط عهد الحديبية الذي أبرمته مع رسول الله ﷺ، حيث أعانت حلفاءها بني بكر بالسلاح والكرّاع والمال، على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، في حرب كانت بينهما، عند مكان يقال له الوتير.⁽¹⁾

أدركت قريش خطورة ما بدّرَ منها من نقض الصلح الذي كان يجمعها بالمسلمين، فأسرعت بإرسال أبي سفيان إلى رسول الله ﷺ من أجل تجديد ذلك الصلح.

قدم أبو سفيان المدينة ليعرض على رسول الله ﷺ طلب قريش ورغبتها في تجديد الصلح، فأعرض عنه ولم يجبه، ثم كَلّم في ذلك كبار الصحابة ليتوسطوا له عنده، مثل أبي بكر الصديق، وعثمان، وعلي بن أبي طالب، فرفضوا جميعاً، وعاد أبو سفيان إلى مكة خائباً.⁽²⁾

(1) - السهيلي، الروض الأنف، 191/7.

(2) - التميمي، سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ص 158.

بدأ الرسول ﷺ يتجهّز للخروج إلى مكة دون أن يخبر المسلمين بوجهته، وكان خروجه من المدينة يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر، وأرسل إلى مَنْ حوله من العرب: أَسْلَمَ وَغِفَارَ وَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وغيرهم، فالتقى كلهم في الظهران - مكان بين مكة والمدينة - وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف.

بعد فشل أبي سفيان في تجديد الصلح ظلت قريش تتحسس أخبار المسلمين، فهي تعلم أنهم سيقبلون على أمر ما، وهكذا أرسلت أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الأخبار.

ولما أقبلوا رأهم حرس من المسلمين وقبضوا عليهم وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ، وإذ ذاك أسلم أبو سفيان بعدما أقنعه العباس عمّ النبي ﷺ الذي كان قد أسلم قبله.

وطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يجعل لأبي سفيان شيئاً لأنه رجل يحب الفخر، فقال رسول الله ﷺ مستجيباً: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يُجْبَسَ أبو سفيان عند مضيق الوادي حتى تمر عليه القبائل معها رايتها، فكلما مرت عليه قبيلة سأل عنها أبو سفيان وأخبر، فقال مخاطباً العباس: "ما

لأحد بهؤلاء قبلاً ولا طاقةً، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً! ... فقال العباس: "يا أبا سفيان إنها النبوة"، قال : "فنعم إذن".⁽¹⁾

ثم رجع أبو سفيان إلى مكة مسرعاً، ودخلها وصرخ بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن".

قالوا: "قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟" قال: "ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن".

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.⁽²⁾

قسم الرسول ﷺ من معه من المسلمين أربعة أقسام، يدخل كل قسم من إحدى جهات مكة، وجعل على كل قسم قائداً، وهم: خالد بن الوليد، والزيبر بن العوام، وأبو عبيدة ابن الجراح، وسعد بن عباد، وأوصاهم أن لا يقتلوا إلا من قاتلهم، وأن لا يريقوا دمًا.

ولم يحدث قتال بين المسلمين وقريش إلا مناوشة خفيفة وقعت

(1) - ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، 1/217.

(2) - السهيلي، الروض الأنف، 7/214.

بين خالد وبعض الشباب، وقتل من رجال خالد اثنان، وأصيب من جانب قريش اثنا عشر رجلاً.⁽¹⁾

ثم دخل رسول الله ﷺ البيت الحرام خاشعاً، متواضعاً، مطأطأ رأسه، شاكرًا ربه، وهو يتلو سورة الفتح ويرجع في قراءتها، وطاف بالكعبة راكباً، واستلم الركن، ثم خرج وأعطى مفتاح الكعبة عثمان بن طلحة من بني شيبه تأكيداً لاستمرار الحجابة فيهم، واستلم الحجر وطاف غير مُحْرَم.

وأمر رسول الله ﷺ بلائاً الحبشي فصعد الكعبة وأذن فوقها، وأقبل الناس على رسول الله ﷺ وهو أخذ بعضادتي باب الكعبة ينتظرون ماذا هو فاعل بهم، فخطب فيهم، وكان مما قاله في خطبته: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده... يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»؛ ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ...﴾ الآية (الحجرات: 13)، ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم»، قال: «فإني أقول لكم كما

(1) - ابن حزم، جوامع السيرة، ص 184.

قال يوسف لإخوته : ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْنَا﴾ (يوسف: 92) اذهبوا
فأنتم الطلقاء»⁽¹⁾.

فأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فتقدم الرجال فبايعوا
رسول الله ﷺ، ثم بايعت النساء على الشروط المعروفة. الآ

وبعدما تمّ الفتح المبين للمسلمين خشي الأنصار أن يختار
رسول الله عليه السلام المقام بمسقط رأسه ومُنطَلَق دعوته، وتحدّثوا
بذلك فيما بينهم، فطمأنهم ﷺ قائلا: «مَعَاذَ اللَّهِ، المحيا محياكم،
والمماتُ مماتُكم»⁽²⁾.

فهذا ما كان من حديث فتح مكة الذي كان تمهيدا لتيسير
قدوم القبائل من أطراف الجزيرة العربيّة إلى المدينة المنورة للسؤال
عن الإسلام، ولقاء نبيّه عليه الصلاة والسلام، فيما سمي بعام الوفود،
الذي وافق السنّة التاسعة من الهجرة النبويّة.

ومن تلك الوفود: وفد تميم، وعبد القيس، وبنو حنيفة، ونجران،
والأشعريين وأهل اليمن، ودؤيب، وطّيء.

(1) - القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/110.

(2) - العامري، بهجة المحافل وبغية الأماثل، 1/163.

ومنها وفودُ أهل اليمن، والأزد، وبني سعدٍ هُدَيْمٍ من قُضَاعَةَ،
وبني عامر بن قَيْسٍ، وبني أسد، وبَهْرَاءَ وَخَوْلَانَ وَمُحَارِبِ وبني الحارث
بن كعب وِعَامِدِ وبني الْمُنتَفِقِ، وسَلَامَانَ، وبني عَبْسٍ، ومُزَيْنَةَ، ومُرَادِ،
وزُيَيْدِ، وكِنْدَةَ، وذِي مِرَّةٍ، وَعَسَّانِ، وبني عَيْشِ.

وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ يستقبلُهُم استقبَالًا حَسَنًا، فيكرم وفادَتَهُم،
ويوصي بهم خيرًا وإحسانًا، ومن نماذج ذلك الاستقبال قصةُ وفد
الأزد، -وكان النَّبِيُّ ﷺ قد بعث إليهم العلاء بن الحضرمي معلمًا
ومصدقًا (أي عاملاً مكلفًا بزكاتهم)- فلما وفدوا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ،
سألوه أن يبعث معهم رجلًا يُقيم أمرَهُم، فأرسل إليهم عليه الصلاةُ
والسَّلَامُ مخربةَ العبدِيّ؛ لكونه أحرى النَّاسِ بأن يسيرَ بهم أحسنَ
السَّيرِ؛ إذ سبق أن منّوا عليه وأحسنوا إليه يوم وقع بأيديهم أسيرًا في
بعض أيامهم قبل الإسلام،⁽¹⁾ وفي ذلك دليل على ما كانوا يتميزون به
من قيمِ الشَّهامةِ وخصالِ المروءةِ والكرمِ.

وقد خصَّهم النَّبِيُّ ﷺ عليه الصلاةُ والسَّلَامُ بدعاءٍ مباركٍ أن يجمع
اللَّهُ كلمَتَهُم وأُفْتَهُم.⁽²⁾

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 303/1.

(2) - السابق.

ومن نماذج ذلك أيضًا قصّة بني تميم، لما قدموا فدخلوا المسجد وأخذوا ينادون رسول الله ﷺ من وراء حجراته بصوت عال فيه غلظة وجفاء: يا محمد اخرج إلينا، فتعامل معهم النبيّ عليه وسلم برفق ولين، وخرج إليهم فقالوا: "يا محمد جئناك نفاخرُك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا"، قال: «قَدْ أَذِنْتُ لِحَاطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ»، فقام عطار بن حجاب فقال: "الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ، وهو أهله الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالاً عظيما، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدّة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدّد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرّف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا"، ثم جلس.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس أخي بني الحارث بن الخزرج: «قُمْ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ»، فقام ثابت فقال: "الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قطّ إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خيرته رسولًا أكرمه نسبا

وأصدق حديثاً وأفضله حسَباً، فأنزل عليه كتاباً، وائتمنه على خلقه؛ فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمته، أكرم الناس أحساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعلاً، ثم كان أول الخلق إجابةً، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن، فنحن أنصارُ الله ووزراءُ رسوله⁽¹⁾.

ومن نماذج تلك الوفود كذلك عبد القيس: وهم قبيلة كبيرة من قبائل العرب، كانت لهم وفادتان على رسول الله ﷺ، الأولى قبل فتح مكة؛ إذ جاؤوا في وفد من ثلاثة عشر رجلاً، فيهم أشج عبد القيس، واسمه المنذر بن عائد وهو الذي قال له النبي ﷺ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ»⁽²⁾.

لما قدموا على النبي عليه السلام رحّب بهم، فسألوه عن الإيمان والأشربة.

روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتُوا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟ - أَوْ مِنَ الْوَفْدِ؟» - قَالُوا: رَيْبِعَةٌ. قَالَ:

(1) - النميري، ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة السيد حبيب محمد أحمد، جدة، 1399هـ، 2/529.

(2) - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم: 25.

«مَرَحَبًا بِالْقَوْمِ، أَوْ بِالْوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى»، فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَضَلَّ، نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟»، قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ».

وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْخُنْتَمِ وَالذُّبَابِ وَالتَّقْيِيرِ وَالمُزَقَّتِ، وَرُبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ، وَقَالَ: «أَحْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»⁽¹⁾.

وأما الوفادة الثانية فهي التي قدم فيها الجارود بن المعلّى العبدى على رسول الله عليه السلام عام الوفود، بعد أن كتب رسول الله عليه السلام إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم، فاستجابوا لكتاب النبي عليه السلام، وجاءوا فرحب بهم عليه السلام وأجرى عليهم الضيافة.

(1) - رواه البخاري، كتاب العلم، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم وقد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم، رقم: 87، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه، رقم: 24.

روى أنس بن مالك قال: "لما قدم أهل البحرين وقدم الجارودُ وافدا على رسول الله ﷺ فرح به وقربه وأدناه".⁽¹⁾

وكان الجارودُ نصرانيا، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، ورغبه فيه، فقال: "يا محمدُ، إنِّي قد كنتُ على دين، وإنِّي تاركُ ديني لدينك، أفتضمنُ لي ديني؟"، قال: فقال رسول الله ﷺ: «نعم، أنا ضامنٌ أنْ قد هدأك اللهُ إلى ما هو خيرٌ منه».

قال: فأسلم وأسلم أصحابه.

ثم سأل رسول الله ﷺ الحُمَْلانَ، فقال: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ.⁽²⁾

ومنها كذلك وفد بني سعد: فقد بعثوا رجلا منهم يقال له ضمامُ بنُ ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ ليسأله عن الإسلام.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "بينما نحنُ جلوسٌ مع النبي ﷺ في المسجدِ، دخل رجلٌ على جمَلٍ، فأناخه في المسجدِ ثمَّ

(1) - رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: 2108.

(2) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 86/7.

عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِيُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمُشَدَّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ».

فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَانِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِنْ وِرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامٌ بِنِ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ⁽¹⁾.

(1) - أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم، وقوله تعالى: «وقل رب زدني علما»، رقم: 63، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين، رقم: 12.

ثُمَّ خَرَجَ ضِمَامٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِنُسْتِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، قَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ! اتَّقِ الْبَرَصَ، اتَّقِ الْجُذَامَ، اتَّقِ الْجُنُونَ!

قال: ويلكم! إنهما والله ما تضران وما تنفعان، وإن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وأنهاكم عنه، قال: فوالله، ما أُمسى من ذلك اليوم في حاضرتيه من رجلٍ ولا امرأةٍ إلا مُسليماً، قال ابن عباس: فما سمعنا بوافدٍ قطُّ كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.⁽¹⁾

• الفوائد والعبر

اشتمل هذا الفصل من السيرة العطرة على جملة دروس أهمها:

- أنَّ الوفاء خلق المسلم الذي لا يجيد عنه أبداً، قد ظلَّ مُحَمَّدٌ ﷺ وفيَّاً بعهد الحديبية، ملتزماً بمقتضياتها، غير مستحلٍّ نقضه، حتى إذا كانت قريشٌ أول الطرفین بداراً إلى النّقض لم يجد عليه الصّلاة والسّلامُ بَدْءاً من الحرب؛ إذ أبانوا بذلك عن رغبتهم في الرجوع إليها والدّخول فيها.

(1) - رواه أحمد في مسنده، رقم: 2381، والحاكم في المستدرک، کتاب المغازي والسرايا، رقم: 4380.

- أن الكياسة والفتنة سمّت المسلم، لا سيّما في جلائل الأمور،
ومن تمامها الإسرار بما يُقبَلُ عليه؛ لذلك لم يصرح النبي عليه
الصلاة والسلام بوجهته غداة خروجه منها؛ حتى لا تنطلق رسل
الإنذار إلى مكة، فيعدّوا العُدَدَ والعدَدَ لصدّه عليه الصلاة والسلام.

- أن الحِلْمَ والأناة من أحسن الأخلاق وأعظم الخلال، فهما
أمانة كمال العقل، تتزن بهما تصرفات المرء، فلا يكون عجلاً
تستزله الأهواء، ولا نزقاً تميل به رياح الخفة والسفاهة، بل يكون
متروياً في الأمور، ينظر في عواقبها قبل أن يكون منه إقدام عليها
أو إحجام عنها، وقد نص حديث أشج عبد القيس على أن هذين
الخُلُقَيْن يُكْرِمُ بهما الله تعالى من أحبّهم، فيجعلهما فيهم جيلةً
وطبعا؛ ولذلك كانتا مما يتواصى به أهل الفضل والخير؛ حملاً للتفوس
عليهما؛ حتى يصيرا لها في حكم الطبع؛ وفي ذلك قيل:

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ لِأَمْرٍ تُرِيدُهُ
وَكُن رَاحِمًا بِالْخَلْقِ تُبَلِّ بِرَاحِمٍ

ومما في حديث الأشج من الفوائد أن هذين الخُلُقَيْنِ اختصّه
الله بهما، فكانا له مزيةً، ثم كانوا لقومه وذريّاتهم سمةً، والله يختصُّ
بالفضائل من يشاء تكرّماً وإنعاماً.

- أنّ التّصرّ لا يكونُ بالإِثخان في الأرض، ولا بالإِسراف في إزهاق النفوس واستباحة الحُرْم، وإنّما يكون بسموّ النفوس وحُسن أخلاقها.

فذلك التزم محمد ﷺ بأخلاقه العلية، وصفاته المرضية، حتى ساعة انتصاره، فدخل مكة متواضعا شاكرا، معترفا بفضل الله ومستبشرا بنعمته عليه، جاعلا شمول العفو لأهل مكة عنوان انتصاره، وشعار دعوته، فما كان من الناس إلا أن أقبلوا عليه ورضوا بالتّخول في دينه.

- أنّ للنساء في دين الله مثل الذي للرجال من حقوقٍ ومثل ما عليهم من واجباتٍ، سواء في شؤون الدين والدنيا، فالنساء شقائق الرجال في الأحكام، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: 228).

ولذلك ساوى النبي عليه الصلاة والسلام بين الرجال والنساء في قبول البيعة، وكانت بنودها بالنسبة إليهم جميعا موحدة، لا تخرج عن مقتضى الإيمان والقيم.

- سماحة الإسلام وعدم الإكراه في الدين:

يقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256)، أي: لا تكرهوا ولا تجبروا أحدًا على اعتناق الإسلام، وسبب دعوة الإسلام إلى عدم إكراه أحد في الدين، أنه دين واضح جلي لا خفاء فيه، والإكراه لا يكون في الأشياء الخفية التي يخشى أصحابها إظهارها أو تعرّف الناس عليها.

وقد نهى القرآن الكريم عن سلوك سبل الإكراه في الدعوة إلى الإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)

وبعد، فلقد كان فتح مكة وما أعقبه من دخول الناس من أقطار الجزيرة العربيّة في دين الله أفواجًا تمهيدًا لأعظم لقاءٍ عقده نبيّ مع قومه، وهو لقاء الوداع والإيصال.

فكيف كان هذا اللقاء؟ وبمّ أوصى النبيّ عليه الصلّاة والسّلام أصحابه وأمّته؟

ذلك ما سنتناوله في المحور القادم بإذن الله.

حجة الوداع ووفاة النبي ﷺ

• مسرد الأحداث

في شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة، عزم رسول الله عليه الصلاة والسلام على الحج، وأمر الناس بالتجهز لذلك، فاجتمع بالمدينة بشر كثير ممن كان حولها يريدون الحج معه.⁽¹⁾

خرج عليه الصلاة والسلام لخميس بقين من ذي القعدة، واستخلف أبا دُجانة عاملاً على المدينة، وقدم مكة لخمس خلون من ذي الحجة، وصحبته جميع نساءه رضي الله عنهن، وأقبل عليه المسلمون من القبائل البعيدة، فكان منهم من لقيه في الطريق، ومن لحق به في مكة.⁽²⁾

اشتهرت حجة رسول الله عليه الصلاة والسلام بـ "حجة الوداع"؛ لأنه ودّع فيها الناس ولم يحج بعدها عليه الصلاة والسلام.⁽³⁾

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "وَقَفَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ التَّحْرِ

(1) - ابن سعد، الطبقات الكبير، 172/2.

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، 245/4.

(3) - خليفة بن خياط، تاريخه، ص 94.

بَيْنَ الْجَمْرَاتِ ...، وَقَالَ: «هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ:
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، وَوَدَّعَ النَّاسَ، فَقَالُوا: هَذِهِ حَجَّةُ الْوَدَاعِ.⁽¹⁾

وتسمى أيضا حَجَّةُ الْبَلَاغِ، لكثرة قوله عليه الصلاة والسلام
فيها: «اللَّهُمَّ هل بلغت».

ولكثرة ما تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَحْكَامِ تسمى حَجَّةُ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ؛
لأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَلَغَ فِيهَا آخَرَ شَرَايِعِ الْإِسْلَامِ قَوْلًا وَعَمَلًا،
فَنَزَلَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3).

كانت الغاية الكبرى من حجة الوداع تعليم الناس المناسك،
واللقاء بهم ليُملي عليهم النبي عليه الصلاة والسلام وصيته التي
ودَّعهم بها.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "رأيت النبي عليه
الصلاة والسلام يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «خُذُوا عَنِّي
مَنَاسِكَكُمْ، فَلَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَائِي هَذَا».⁽²⁾

(1) - أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم: 1742.

(2) - أخرجه الترمذي، أبواب الحج، باب ما جاء في الإفاضة من عرفات، رقم: 886.

بدأ عليه الصلاة والسلام حَجَّته بالإحرام من ميقات ذي الحليفة، بعد أن اغتسل وتجرَّد من المَخِيط والمُحِيط، وأَهْلَّ بالتوحيد: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ)، وتبعه النَّاسُ فَأَهْلَوْا.

ثم أتى البيت واستلم الركن،⁽¹⁾ فَرَمَلَ ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم تقدَّم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ (البقرة: 125)، فجعل المقامَ بينه وبين البيت، وصلى ركعتين، ثم رجع إلى الرُّكن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصِّفا، فلما دنا من الصِّفا قرأ: ﴿إِنَّ الصِّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 158)، وقال: «نَبَدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ».

فَبَدَأَ بِالصِّفا، وقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، ثم دعا بين ذلك، وقال مثل هذا ثلاث مرَّات.

(1) - استلم الركن: مسح بيده عليه، والمراد بالركن، الركن الذي به الحجر الأسود، وربما أريد به الركن اليماني الذي إليه منتهى الطواف.

ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبَّت قدماه⁽¹⁾ رَمَلَ في بطن الوادي وسعى، حتَّى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتَّى إذا كان في آخر طواف على المروة قال: «لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مَنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سَقْتُ الْهَدْيَ حَتَّى أَشْتَرِيَهُ، وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، وَلَا حَلَلْتُ كَمَا أَحَلَلْتُمْ، وَلَكِنِّي سَقْتُ الْهَدْيَ، فَلَا أَجُلُّ حَتَّى أَنْحَرَ الْهَدْيَ».

فَحَلَّ النَّاسُ كُلَّهُمْ إِلَّا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيً، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ⁽²⁾ تَوَجَّهُوا إِلَى مَنَى، فَأَهْلَوْا بِالْحَجِّ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَصَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ، وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ.

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعير تُضرب له بِنَمْرَةٍ⁽³⁾، فسار عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَا تَشَكُّ قَرِيشٍ إِلَّا أَنَّهُ واقف عند المشعر الحرام⁽⁴⁾، كما كانت تصنع، فأجاز عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى أتى عَرَفَةَ، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا

(1) - انصببت قدماه: انحدرت، فهو مجاز من انصباب الماء.

(2) - هو اليوم الثامن من ذي الحجة، وفيه يحرم من كان بمكة، وواضح أنه أحرم به من كانوا أحلوا.

(3) - نمرة: موضع بجانب عرفات.

(4) - المشعر الحرام: جبل بالمزدلفة.

زاغت الشمس أمر بالقصواء (ناقته)، فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس؛ ثم أذن، ثم أقام فصلي الظهر، ثم أقام فصلي العصر، ولم يُصلّ بينهما شيئاً.

ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته إلى الصخرات،⁽¹⁾ وجعل جبل المشاة⁽²⁾ بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حين غاب القرص.

وأردف أسامة بن زيد خلفه، ودفع وقد شتق القصواء،⁽³⁾ كلما أتى جبلا من الحبال أرخى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة،⁽⁴⁾ فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يُسبّح بينهما شيئا.

ثم اضطجع عليه الصلاة والسلام حتى طلع الفجر، وصلّى الفجر حين تبين له الصبح⁽⁵⁾ بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبرّه وهلله ووحدّه؛

(1) - هي صخرات مفترشات في أسفل جبل الرحمة بوسط أرض عرفات.

(2) - الحبل: التل من الرمل. وحبل المشاة: أي مجتمعهم.

(3) - شتق الناقة: كضها بزمامها، وفي مسلم: وقد شتق للقصواء زمامها..

(4) - أي في الليلة العاشرة من ذي الحجة.

(5) - هو صبح يوم النحر ويوم الأضحى ويوم العيد ويوم الحج الأكبر.

ولم يزل واقفا حتى أسفر⁽¹⁾ جدًّا، فدفَع قبل أن تطلع الشَّمس، حتى أتى مُحسَّرًا،⁽²⁾ فحرَّكَ ناقته قليلا ثم سلك الطَّرِيق الوسطى التي تخرج إلى ما يلي الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشَّجرة فرماها بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة منها، رماها من بطن الوادي.

ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثا وستين بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما بقي، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة بِبَضْعَةٍ، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلًا من لحمها وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وصلَّى بمكَّة الظَّهر وأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم، فقال: «انزعوا⁽³⁾ بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم النَّاس على سقائيتكم، لنزعتُ معكم».

وناوله دلوا فشرب منه عليه الصَّلَاة والسَّلَام.⁽⁴⁾

ومما جاء في خطبة الوداع التي خطب فيها رسول الله النَّاس

(1) - أي الصبح. ومعنى أسفر ظهر ضوءه.

(2) - بطن محسر، وهو واد بالمزدلفة وقيل: موضع بينها وبين منى.

(3) - انزعوا: استقوا بالدلاء.

(4) - رواه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: مسلم، كتاب الحج، باب حجة النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، رقم: 1218.

في حجة الإسلام: (1)

«الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله: أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد:

أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لَعَلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا وإنّ كلّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهليّة موضوعة وإنّ أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث،⁽²⁾ وربا الجاهلية موضوع،⁽³⁾ وأول ربا أضع ربا العباس بن

(1) - انظر رواياتها في: ابن هشام، السيرة النبوية، 246/4-251، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 17/264-265.

(2) - كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل.

(3) - أي: باطل.

عبد المطلب، فإنه موضوع كلّه.

أيها النَّاسُ، إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَيْتَسُ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ
أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يَطْعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ
أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوَصِّيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ؛ أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتِكَ
وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ.

اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ،
وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ.

إِنْ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا: لَكُمْ عَلَيْهِنَّ إِلَّا
يُوطِئْنَ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ،⁽¹⁾ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا
غَيْرَ مَبْرَحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَاعْقِلُوا أَيُّهَا
النَّاسُ قَوْلِي فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب
الله وسنة رسوله.

(1) - المقصود بذلك ألا يأذن لأحد ممن يكرهون دخوله عليهن، وليس وطء الفراش كناية عن الزنا كما قد يتوهم.

يا أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ
مجدّع،⁽¹⁾ ما أقام فيكم كتاب الله تعالى.

أرقّاءكم أرقّاءكم.. أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما
تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله
ولا تعدّبوهم.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلّم أنّ كلّ مسلم أخ
للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه
عن طيب نفس منه، فلا تظلمنّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟

وستلقون ربّكم فلا ترجعوا بعدي ضلّالاً يضرب بعضكم
رقاب بعض، ألا ليلبغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يبلّغه أن
يكون أوعى له من بعض من سمعه، وأنتم تُسألون عني فما أنتم
قائلون؟»

قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه
السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم
اشهد، اللهم اشهد».

(1) - مجدّع: بتشديد الدال المهملة، أي: مقطوع الأنف والأذن.

وفاة النبي ﷺ (1)

ولما بدأ مرض النبي ﷺ أصابه صداعٌ شديدٌ في رأسه وهو عائدٌ من جنازةٍ كانت في البقيع، حتى إنّه وضع عصابةً على رأسه من شدة الألم، وحينما اشتدّ به الألم استأذن أزواجه أن يقضي فترة مرضه عند عائشة، فأخذه الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب إلى حجرتها. (2)

وقبل خمسة أيام من وفاته ارتفعت حرارة جسمه، واشتدّ عليه المرض، ثمّ أحسّ بخقّة في جسمه؛ فدخل المسجد وعلى رأسه عصابة، وخطب بالناس وهو جالسٌ على منبره، وصلى بهم الظهر. (3)

وقد صلى النبي ﷺ بالمسلمين الصلوات جميعها حتى يوم الخميس قبل وفاته بأربعة أيام، ولما حضرت صلاة عشاء الخميس اشتدّ المرضُ عليه، فسأل عن صلاة الناس مراراً بعدما غمي عليه، فأخبروه أنّهم ينتظرونه، ثمّ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؛ قالت عائشة -رضي الله عنها-: "ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلي الناس؟» قلنا: لا، هم

(1) - انظر تفاصيل وفاته عليه الصلاة والسلام في: النويري، بلوغ الأرب، 18/252-241.

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، 4/305.

(3) - السابق.

يَنْتَظِرُونَكَ، قَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ»، قَالَتْ: فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ ﷺ: «أَصَلَى النَّاسُ؟» قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ»، قَالَتْ: فَفَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: «أَصَلَى النَّاسُ؟» قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ»، فَفَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَلَى النَّاسُ؟» قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ والنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ، يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بَأْنَ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَاتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -وكان رجلاً رقيقاً-: "يا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ"، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: "أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلِّ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الْأَيَّامَ".⁽¹⁾

وقبل يومين من وفاته كان النبي قد وجد تحسناً في جسمه، فخرج إلى المسجد، وكان أبو بكر -رضي الله عنه- يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر قدّمه للإمامة بالمسلمين، فأشار إليه النبي بالألا يتأخر، وقد صلى أبو بكر سبع عشرة صلاة في حياة النبي ﷺ.

توفي النبي عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين، الثاني عشر من

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، رقم: 687.

ربيع الأول، في العام الحادي عشرة للهجرة، أي: ما يوافق العام 633 ميلادي من شهر حزيران، وكان له -صلى الله عليه وسلم- من العمر ثلاثة وستون عاماً.⁽¹⁾

وكانت وفاته في حُجرة السيدة عائشة -رضي الله عنها؛⁽²⁾ فعَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: "سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَيَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَحْفِنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»."⁽³⁾

ولما عرف النَّاسُ أن رسول الله ﷺ قد تُوفِّيَ، خَلَوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، فَغَسَلُوهُ وَكَفَنُوهُ.⁽⁴⁾

فلَمَّا فرغوا من غسله وتكفينه وضعوه حيث تُوفِّيَ، فصلى النَّاسُ عليه يوم الاثنين ويوم الثلاثاء، ودفن يوم الأربعاء.⁽⁵⁾

● الفوائد والعبر

تشتمل حجة الوداع عموماً، وخطبتها على وجه الخصوص، على

(1) - النويري، نهاية الأرب، 259/18.

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، 306/4.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، رقم: 5671.

(4) - ابن هشام، السيرة النبوية، 313-316/4.

(5) - السابق.

جملة من الأحكام والدروس، نجملها فيما يأتي:

- أنّ الإيمان بالمبادئ والقيم سبب التّجّاح والظّفَر، ذلك أنّه عليه الصّلاة والسّلام لم يتخلّ قطّ عن مبادئه وقيمه التي آمن بها، طيلة السنين التي حُمّل فيها أمانة التّبوّة والرّسالة، قام يدعو إليها وحيداً، ثمّ ناله من الأذى ما لم يُضعف عزيمته ولم ينل من إصراره شيئاً، ولم تمض ثلاثٌ وعشرون سنةً حتّى كان له من الأتباع المؤمنين أكثر من مائة ألف، شهدوا في حجّة الوداع تنويح نجاحه عليه الصّلاة والسّلام.

ففي ذلك درسٌ بليغٌ في الإيمان بالمبادئ، والتّمسك بالقيم، والإصرار على بلوغ الغايات وتحقيق عظيم الإنجازات.

- أنّ غاية رسالته عليه الصّلاة والسّلام حفظ حقوق الإنسان، وصور كرامته، واستدامة استقرار الأوطان وحماية أمنها؛ ولذلك حتّى عليه الصّلاة والسّلام في خطبة حجّ الوداع على السّمع والطّاعة، والتزام الجماعة، وتعظيم الحرّم، ورعاية حقوق النّاس، لا سيّما المستضعفين منهم، وحدّر من الفرقة والشّقاق، ومن العدوان على الأرواح والأعراض والأموال، فكان ذلك أوضح بيانٍ لحقيقة دعوته،

و غاية بعثته، ومعالم نهجه وسنته، عليه الصلاة والسلام.

- أن الكرامة الإنسانية من أجل ما جاءت الرسالة الخاتمة
بالتأكيد عليه من المبادئ.

فقد أولى النبي عليه الصلاة والسلام الفئات الاجتماعية "الهشة"
عناية خاصة في خطبة حجة الوداع، وفي ذلك دلالة على عظيم الشأن
الاجتماعي في نظر الإسلام.

وليس ذلك بالأمر الغريب على من أعاد بناء المجتمع المدني
بعد الهجرة؛ إذ لا شك أنه عليه الصلاة والسلام واجهته تحديات
جمّة حال قيامه بمهمّة الإدماج الاجتماعي، عقب توالي الوفود المهاجرة
إلى المدينة، فرأى بفطنته وبُعد نظره أن الإخاء والمواطنة أعظم وسيلة
لذلك الإدماج؛ لما ينبني عليهما من عواطف المحبة والوئام، التي
تقتضي ممن تحقق بها أن يبذل عطاءه لكل من تربطه به أصرتا الإخاء
والمواطنة.

فهو خطابٌ دالٌّ على المسؤولية التي يتحمّلها كل عضو في المجتمع
تجاه قضاياها، ومنها قضايا المرأة والأرقاء؛ فلذلك أوصى بهم عليه
الصلاة والسلام خيرًا في خطبة الوداع.

- أن الإسلام رسالة كونية تدعو إلى قيم الخير والتضامن والعطاء، وإلى بناء المجتمع الإنساني على أساس الأخوة التابعة من وحدة الأصل، واتحاد المصير، وذلك سرّ توجيهه الخطاب إلى عامّة الناس في خطبة حجة الوداع، بما يتسق مضمونه مع جميع الناس، أيًا كانت أعراقهم أو أديانهم، فكان أبين خطابٍ يفصح عن غاية دينه، وخلاصة دعوته، وحصيلة حياته، عليه الصلاة والسلام.

وقد أكد ذلك تَكَرُّرُهُ الأمرَ بالبلاغ بين مختلف فقرات خطبته في حجة الوداع؛ إشارةً إلى المسؤولية المشتركة بين الناس جميعًا، في التداعي إلى الفضائل، والتحالف عليها، والإسهام في تفعيلها.

وبعد، فقد كانت هذه آخر محطة من حياة محمد النبي عليه الصلاة والسلام، ختمها بمثل ما بدأها به من دعوة العالمين إلى كلمة سواء؛ ألاّ ينبغي بعضهم على بعض، وأن يكونوا كأعضاء الجسد الواحد؛ تضامنًا وتعاونًا على الخير العام.

ولئن كانت حياة محمد الإنسان قد انتهت فصولها كسائر الأحياء بالموت، فسيرة محمد الرسول لا تزال حيّة باقية، يجد فيها الناس جميعًا ينبوعًا ثراءً، دائم التدفق بنفيس المعاني وجليل الحكم.

جهود المستشرقين في خدمة السيرة النبوية

لم تزل السيرة النبوية محلّ إجلالٍ وتقديرٍ من قبل المسلمين؛
إذ هي التبرّاسُ الهادي إلى أقوم السبيلِ في امتثال أحكام الله تعالى.

وقد اهتمت فئات من غير المسلمين بهذه السيرة العطرة،
خصوصاً في نطاق ما عُرف بحركة الاستشراق، فكانت لها آثارٌ في
دراساتها وتقويم مروياتها، تمثّلت في جملةٍ من المواقف والمؤلفات.

فما معنى الاستشراق؟

وما أبرزُ جهود المستشرقين في خدمة السيرة النبوية؟

ذلك ما سيبيّنُ في الفقرات الآتية.

• تعريف الاستشراق

لم ترد كلمة الاستشراق -لِحداثته- في المعاجم العربية المختلفة،
غير أنّ معناها اللغوي يمكن توضيحه بالاستناد إلى قواعد الصرف
والاشتقاق.

فهو مصدر فعل "استشرق" الذي هو طلب الشرق، كما يقال "استغفر": إذا طلب المغفرة، فزيادة السين والتاء للطلب.

وأما في الاصطلاح: فإن الاستشراق له تعريفات عديدة وضع بعضها المستشرقون أنفسهم ووضع بعضها بعض العلماء العرب،⁽¹⁾ يستخلص من جملتها أنه حركة علمية تُعنى بدراسة المدنيات الشرقية، من حيث ما خلّفته من آثار فكرية وأدبية وفتية، كما تعنى بكل ما يتصل بهذه الحضارات القديمة وبما فيها من شعوب وأجناس ومذاهب ومدارس، وما إلى ذلك كله من من أثر ظاهر خليق بأن نحياه نشرا وطباعة.⁽²⁾

• بدايات الاستشراق

نشأ الاستشراق بشكل عام في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، كأول تأريخ لبداياته من دون الجزم بذلك، يوم كانت بلاد المسلمين مركز المعرفة وقبلة طلابها، فكان يقصدها كل من يريد النهل من معارفهم وحضارتهم.

(1) - انظر: ادوار سعيد: الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، وألبرت حوراني، الإسلام في الفكر الأوربي، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1994م، ص 78 .

(2) - انظر: يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، المطبعة المخلصية، ط2، 1961م، 771 .

ويعد عام 1312م التاريخ الرسمي للاستشراق، حيث قرر المجلس الكنسي في فيينا الموافقة على تأسيس كراسي جامعيّة لدراسة اللّغات الشرقيّة، ومن أهمّها اللّغة العربيّة في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وغيرها من الجامعات الأوروبية.

• مؤتمرات الاستشراق

تشجيعاً لهذه الحركة التي تطورت واستقلت عن التبشير وعن الأهداف المباشرة للاستعمار، قامت الحكومات في الغرب بدعم الهيئات والجمعيات الاستشراقية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، موجّهةً إيّاها إلى تنظيم مؤتمرات عامّة يلتقي فيها مندوبو الدول والجامعات والمؤسسات العلمية لبحث الوسائل والنظم والخطط التي تساعد على المضي في هذه الحركة العلمية، وبناء أنشطتها البحثية والتدريبية على أصول ومناهج جديدة تؤوّل إلى تعزيزها والنهوض بها.

كانت تُلقى في تلك المؤتمرات الخطب والأبحاث العلمية، وتناقش الآراء والاقتراحات، في لجان خاصة بجزئية تامّة، مع كمال الاستقلال في الرأي كما يفهمه العلم الحديث، ويدلي كل مندوب بمعلومات

عما في بلاده من نوادر المخطوطات ونافع الموضوعات ممّا يتصل بسبب وثيق بأعمال هذه المؤتمرات.

وتُجمع هذه البحوث والدروس والاقتراحات وما أثارته من نقاش وجدال في مجاميع خاصة، تعرّف بأعمال المؤتمر، يكون مجموعها جملةً ثمينةً من الأصول والأمهات والأسانيد لمن يبغى الاستبحار في هذا المجال.⁽¹⁾

ويعدّ الكتاب الذي وضعه الأستاذ نجيب العقيقي، ونشرته دار المكشوف في بيروت عام 1937م بعنوان: "المستشرقون" من أهم المراجع العربيّة للتعريف بالحركة الاستشراقية وبِعظم الجهود العلميّة التي بذلتها أعلام هذه الحركة الأدبية ومشاهيرها.

يضمّ هذا المعجم زهاء ألفين من مشاهير علماء الاستشراق، فيتناول ترجمة كلّ منهم بتبيان تاريخ حياته، ورحلته في سبيل العلوم الاستشراقية، ومؤلفاته، ومراجع البحث فيه بين العربيّة والأعجمية.

ولابد ونحن نتحدّث عن الحركة الاستشراقية من الإشارة إلى أنّ المؤلّفات التي وضعها المستشرقون أو تلك التي أحيوها بالنشر

(1) - داغر، يوسف أسعد، دليل الأعراب إلى عالم الكتب وفن المكاتب، بيروت، 1947، ص 158.

العلمي من التراث العربي القديم سواء بلغاتهم، أو بإحياء الأصول مترجمةً إلى لغاتهم، وما إليها من تعقيبات وذيول وشروح وتفسيرات وتلخيصات، وما ألحقوا بها من أنواع الفهارس وشتى المسارد تعدّ اليوم وستعدّ دائماً من المصادر الأولى ومن الأمّهات الأساسيّة في البحث العلمي.

• السيرة النبويّة في أعمال المستشرقين

تناول المستشرقون بتوسع سيرة الرسول ﷺ وألقوا الضوء على كثير من جوانب حياته، فكان منهم من مدحه في بعض كتبه كالمستشرق الألماني كارل هينرش بيكر مؤسس مجلّة العالم الإسلامي، الذي اشتهر عنه محبته لعالمي العروبة والإسلام، فقد وقف موقفاً مشهوداً في الدفاع عن النبي محمد ﷺ مستغرباً من الذين اتهموه بالسحر والدجل، ورأى فيه رجلاً عظيماً، جديراً بكل محبة وإجلال وتعظيم للمبادئ السامية التي نشرها؛ يقول: "لقد أخطأ من قال إن نبي العرب دجال أو ساحر لأنّه لم يفهم مبدأه السامي، إنّ محمداً جدير بالتقدير، وخطابه حريّاً بالاتباع، وليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وإن محمداً خير رجل جاء إلى العالم بدين الهدى والكمال،

كما أننا لا نرى أن الديانة الإسلامية بعيدة عن الديانة المسيحية".⁽¹⁾
 وقريب من هذه الشهادة ما قاله المستشرق ديسون في كتابه
 "الحياة والشرائع": "وليس يزعم أحد اليوم أنّ محمداً راح يزور ديناً،
 وأنه كاذب في دعواه، أفك في دعوته إذا عرف محمداً ودرس سيرته،
 وأشرف على ما يتمتع به دينه من تشريعات تصلح أن تظلّ مع الزمن
 مهما طال، وكلّ من يكتب عن محمّد ودينه ما لا يجوز، فإنّما هو من
 قلة التدبّر وضعف الاطلاع".⁽²⁾

ويذكر المفكر الإنجليزي تومس كارلايل بكل صراحة أنّ
 محمداً ﷺ رجل صادق، ونبيّ مرسل، يقول: "ما محمد بالكاذب، ولا
 المُلقّق، وإنما هو قطعة من الحياة، قد تَقَطَّرَ عنها قلبُ الطبيعة، فإذا
 هي شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله وذلك فضل الله، يؤتية
 من يشاء، والله ذو الفضل العظيم".⁽³⁾

● أسباب إعجاب بعض المستشرقين بشخصية محمد ﷺ

(1) - ابن محمد، جمال، نخبة من أقوال علماء الغرب في فضل الإسلام ومدح نبيه، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 102.

(2) - المغناوي، سعيد بن علي، السيرة النبوية في الكتابات الألمانية، العبيكان للنشر، الرياض، ط1، 2018، ص 260.

(3) - كارليل، توماس، محمّد: المثل الأعلى، تعريب: محمّد السباعي، دراسة وتقديم وتعليق محمود النجيري، مكتبة النافذة، ط 1، 2008، ص 44.

حاول كثيرون أن يربطوا ما بين بعض الأحداث والشخصيات التي واجهت الرسول ﷺ في مسيرته وبين ما ورد في القرآن من نظم وتعاليم وتوجيهات وبطريقة تأويلية للبحث في مصدر القرآن الكريم، ومدى كونه وحياً ربانياً بكلّيته، وعليه يمكن تثبيت الحقائق الآتية:

- **أولاً:** أنّ حياة محمد ﷺ معروفة بتفاصيلها ودقائقها في تاريخ المسلمين، وأنه لم يعلمه بشر، وإنما نشأ وعاش في مضارب صحراء العرب، فلم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يُبصره بنفسه، أو يصل إلى سمعه، ولم يقتبس من نور أيّ إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره.

- **ثانياً:** أمانة وصدق الرسول محمد ﷺ، حتى أنه كان معروفاً بين أهل مكة بلقب الصادق الأمين، وعُرف بوفائه النادر وإخلاصه لأصحابه واتصافه بالمروءة والشرف.

- **ثالثاً:** إيثاره للصمت، وبعده عن التكلف، فإذا نطق أتى بالحكمة البالغة وفصل الخطاب بعيداً عن التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق.

- **رابعاً:** كان رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم، كريماً

براً، رؤوفاً تقيّاً، فاضلاً حراً، شديد الجِدِّ مخلصاً.

- خامساً: كان سهل العريكة، لئن الجانب جمَّ البشر والطلاقة حميد العشرة حُلُو الإيناس.⁽¹⁾

• كتابات المستشرقين حول الرسول ﷺ

للمستشرقين عدّة كتابات وبحوث كثيرة حول شخصية الرسول ﷺ وقد أثبتوا فيها كثيرا من الآراء حول السيرة النبوية، وجملة منها ضاربة في القدم ألفت خلال القرون الأولى؛ إذ يُعدُّ بعض الكتاب المسيحيين من القرنين الثامن والتاسع للميلاد بين أوائل من قدّروا الرسول ﷺ من غير العرب والمسلمين.

إن مقالات الغربيين في الرسول خلال القرن التاسع عشر وبدايات العشرين هي التي يمكن للكُتّاب العرب المحدثين أن يطلعوا عليها في لغاتها الأصلية، حيث ظهرت بأوربا كتب عديدة تبحث في حياة محمد ﷺ، مثل ما صنّفه المستشرق الأمريكي واشنطن إرفنج سيرة للرسول سنة 1849، وقد ردّ عليه محمد حسين هيكل في كتابه "حياة محمد".

(1) - تراجع بعض أقوال المستشرقين المعجبين بسيرة النبي عليه السلام في كتاب ابن محمد، جمال، نخبة من أقوال علماء الغرب في فضل الإسلام ومدح نبیه، دار الكتب العلمية، بيروت.

ونشر المستشرق والمبشر ويليام مويرت 1905 كتابه الشهير "حياة محمد" بلندن سنة 1861، واسم هذا المستشرق يتردد في كثير من كتب السيرة العربيّة الحديثة.⁽¹⁾

ويمثل كتاب "حوليات الإسلام" للمستشرق الإيطالي ليوني كيتاني معلماً هاماً في تاريخ الأعمال الغربيّة عن الإسلام، وقد أثرت الحوليات في الأعمال الأوروبية اللاحقة عن محمد كأعمال لامنس الذي كان مبشراً وما كانت آراؤه منصفة.⁽²⁾

• ومن الكتابات المهمّة للمستشرقين في السيرة النبويّة:

- كتاب "محمد المثل الأعلى"، الذي صدر عام 2008م، لمؤلفه توماس كارلايل، وهو مفكر واسع الاطلاع من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر وأحد أعظم فلاسفة الإنجليز، وقد دعاه إلى تأليفه ما لا حظه من الظلم الذي تعرضت له شخصيّة محمد ﷺ، فبحث في سيرته وتقصى الحقيقة حتى أدرك جوانب العظمة في السيرة النبوية فعرضها في هذا الكتاب.

(1) - بزائنية، حسن؛ كتابة السيرة النبوية لدى العرب المحدثين: اتجاهاتها ووظائفها، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2014، ص 324.

(2) - السابق.

- كتاب "حياة وعلم محمد": صدر هذا الكتاب عام 1829م لمؤلفه سبرينجر، وهو في جزأين، تحدث فيه صاحبه عن القرآن متطرقاً إلى التعريف به وبمضامين سوره وكذلك علاقة محمد ﷺ به.

- كتاب "القرآن حياة وتعاليم النبي"، صدر هذا الكتاب عام 1894م لمؤلفه بيرنهارد سبيك.

- كتاب الشاعر الفرنسي الشهير لامارتين "السفر إلى الشرق" يقول فيه عن شخصية محمد ﷺ: "أثرون أن محمداً كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟ كلا؛ بعدما وعينا تاريخه ودرسنا حياته وسيرته".

ومن مزايا المستشرقين في مجال السيرة النبوية أنهم جمعوا مخطوطاتها، واعتنوا بها وفهرسوها وعرفوا بها ونشروا أصولها، مثل تهذيب ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازي الواقدي، وأنساب الأشراف للبلاذري.

كما قاموا بترجمة كثير من نصوص السيرة إلى لغاتهم، وكتبوا دراسات نقدية جيدة حولها.

ومن أبرز النماذج في هذا المجال المستشرق الألماني هنريش

فستنفدت 1899م، الذي أربت أعماله في التاريخ والجغرافيا والآداب العربية والإسلامية على مائتي عمل، وقد قدّم خدمات جليلة للعلم بنشره العديد من الكتب محقّقةً مُقابِلةً، ومن أبرز ما نشره ممّا يتعلّق بالسيرة النبوية:

- سيرة ابن هشام مع تعليقات بالألمانية.
- الأخبار الموقّعيّات، للزبير بن بكار ت 256هـ.
- أخبار مكّة: نصوص عربيّة، جمع فيه مؤلّفات جملة من مؤرّخي العرب كالأزرقيّ ت 250هـ.
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لتقيّ الدّين الفاسيّ ت 823هـ.
- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشّريف، لابن ظهيرة المكيّ ت 986هـ.
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، لقطب الدّين النّهروانيّ ت 990هـ، مع مقدمة باللّغة الألمانية.
- بيد أن دراسات المستشرقين للسّيرة لم تكن كلّها على مثال واحدٍ في الموضوعيّة والإنصاف، ولا في التّأكيد على صدق نبوّ محمّد

عليه الصلاة والسلام، بل كان منها ما نحا منحى آخر، يستبطن تشكيكاتٍ في مصدر دعوته، بل وفي وجوده التاريخي أصلاً.

فمذ صدر كتاب أبراهام غايغر عام 1833م "ماذا أخذ محمد عن اليهودية؟"، وعلى مدى قرابة القرن من الزمان، كان الاهتمام الرئيس للمستشرقين بالنسبة إلى النبي والقرآن: ماذا أخذ محمد عن اليهودية إن كانوا يهوداً، أو ماذا أخذ محمد عن المسيحية إن كانوا مسيحيين! وهم يتجاهلون تماماً ما يقوله القرآن ويقوله الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه على دين إبراهيم، وأنه يريد استعادة الموروث الإبراهيمي.

ومن دراساتهم في ذلك كتاب ماكسيم رودنسون ت 1961م: "محمد" ذهب فيه إلى أنه "لا يوجد ما يمكن قوله بيقين ولا يقبل الجدل عما يعود إلى زمن النبي".⁽¹⁾ وهو بذلك لا يشكك في الوجود التاريخي لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، بقدر ما يحاول تفسير الرسالة المحمدية - من حيث كونها ظاهرة دينية - بالتّظّر في آثارها التي ترتبت عليها في مستوى حركة التاريخ البشري.

(1) - رودنسون، ماكسيم، محمد، ترجمة: أن كارتر، لندن، 1971، ص. 11.

ويلاحظ أنّ الدراسات الاستشراقية في مجال السيرة النبوية خلال القرن العشرين اتّجهت نحو البحث في أصالة القرآن الكريم، والتنقيب عن مصادر بديلة تثبت الوجود التاريخي للنبي عليه الصلاة والسلام. وقد اعتمدت جملةً من تلك الدراسات مقارنةً "إزائيةً" تنطلق من المقارنة بين مصادر سيرتي النبيين "يسوع" و"محمد" عليهما الصلاة والسلام⁽¹⁾.

وهي مقارنةً أفضت إلى نتائج مهمةٍ من الناحية النظرية، خلاصتها أنّ محمدًا عليه الصلاة والسلام أقرب إلى الوجود التاريخي من يسوع؛ نظرًا إلى أنّ مصادر سيرته مجمعة على بشريته، فقد وُلدَ لرجل وامرأة، كما يولد سائر البشر، وعاش في حيز زمني قابل للحساب الدقيق، وانتهت حياته بوفاته كما يموت سائر الناس؛ فلذلك يعدّ موضوعًا أنسب للتاريخ من يسوع الذي أثار الاختلاف في طبيعته البشرية والإلهية في صياغة العقيدة المسيحية من جهة، وفي كتابة سيرته من جهةٍ أخرى⁽²⁾.

(1) - انظر: بيترس، البحث عن محمد التاريخي، ضمن "صناعة التّقدّيس في الإسلام" ترجمة: عبد الستار الناشي، بيت الكتاب السومري، بغداد، ط. 1، 2021م، 17-15.

(2) - السابق، 17.

لكنه -وفي إطار المقاربات الإزائية نفسها- ظهر توجه استشراقي آخر، يرى أنّ الوجود التاريخي للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لا تكفي المصادر الأدبية (الروائية) في إثباته، بل لابدّ في ذلك من الاعتماد على مصادر ماديّة، تضيء مختلف الجوانب المحيطة بظهور النبي وبيئته التي عاش فيها، ولو خارج الحركة التي نشرها، كما صنع ستيفن نيل وتوم رايت في تفسيرهما للعهد الجديد، والذي أدى إلى فهم أفضل لحياة يسوع وديانته التي نشرها.

فبالنسبة إلى الإسلام لا توجد خلفيّة بيئية شاملة معاصرة لتنزل القرآن يمكن أن يستعان بها في قراءته وفهمه، ولا يوجد أثر تاريخي يرجع إلى تلك الفترة، يمكن أن يساعد في فهم الواقع التاريخي الذي ظهر فيه النبي، إنّما هنالك نصوص شعريّة مروية، لكنّها مشكوك في أصالتها، ولا تكاد تفيدنا إلا بالنزر اليسير فيما يتعلق بالظروف العامّة التي ظهر فيها نبي الإسلام.⁽¹⁾

ويرى أتباع هذا الاتجاه أنّ يسوع أثبت من نبي الإسلام من حيث الوجود التاريخي؛ إذ عُثر على بعض الأدلة الماديّة في الجليل

(1) - انظر: بيترس، البحث عن محمد التاريخي، 19.

والقدس عن يوم يسوع، في حين لم يوجد بعد مثل ذلك فيما يتعلق
بنبي الإسلام.⁽¹⁾

ويلاحظ أنّ أصحاب هذا الاتجاه يعلّقون آمالاً جساماً على
الكشوف الأثرية المأمولة في منطقة الجزيرة العربية،⁽²⁾ لكن ذلك
يبدو أنّه لن يكون ذا كبير جدوى؛ إذ لا يسع التّقوش أن تفيّد بأكثر
مما أفادت المصادر الأدبية من تفاصيل حياة النبي عليه الصّلاة
والسّلام.

وهناك دراسات أخرى اهتمّت بنقد المرويّات التي تشكّل المصادر
الأدبية للسيرة النبوية، بمناهج متنوّعة، منها: تحليل الأسانيد والمتون،
ومنها: تحليل الروايات المتعارضة مع الروايات المعتمدة في أخبار
السيرة، ومنها كذلك: تحليل مرويّات السيرة النبوية التي تعود إلى
راوٍ واحد، كعروة ابن الزبير، ومنها أيضاً: تحليل الخصائص اللسانية
للمرويّات المعتمدة في السيرة النبوية، وكلّها مناهج تتعامل مع "المدوّنة
السيرية" نقدًا لها، وتحليلاً لمشمولاتها، وتنقيحاً لطرق بنائها.⁽³⁾

(1) - السابق.

(2) - انظر: كرون، باتريشيا، ما الذي نعرفه حقاً عن محمّد؟ ضمن "صناعة التّقديس في الإسلام"، 64-63.

(3) - انظر: غورك، أندرياس، آفاق دراسة محمّد التاريخي، ضمن "صناعة التّقديس في الإسلام"، 78-70.

ولا تزال تصدر ودراساتٌ استشراقيةٌ أخرى لحياة النبي ﷺ،
منتهجةً مناهجَ مغايرةً لهذه المناهج، تقول أشياء جديدة انطلاقاً من
دراسة القرآن من جديد أو من دراسة السيرة، في إطار اتجاهات
تأويلية متنوعة. ومن تلك الدراسات:

• كتاب خوان كول: "محمد نبي السلام وسط صراع الإمبراطوريات"،
وهذه الدراسة اللافتة واستناداً إلى القرآن وعشرات الوقائع، تذهب
إلى أنّ رسالة النبي ﷺ كانت رسالة سلامٍ ومحبة.

• دراسةً لكريغ كونسيدايين عن حياة النبي عنوانها: "إنسانية محمد،
وجهة نظر مسيحية"، وهي تشرح التزام النبي صلى الله عليه وسلم
بالفقراء، وقوله بالتعددية الدينية وبحرية الاعتقاد.

وبالطبع فليس المطلوب من الذين يكتبون سيرة النبي من
الأجانب المستشرقين أن يكونوا مسلمين، إنما المطلوب قدرٌ من
الفهم والموضوعية.

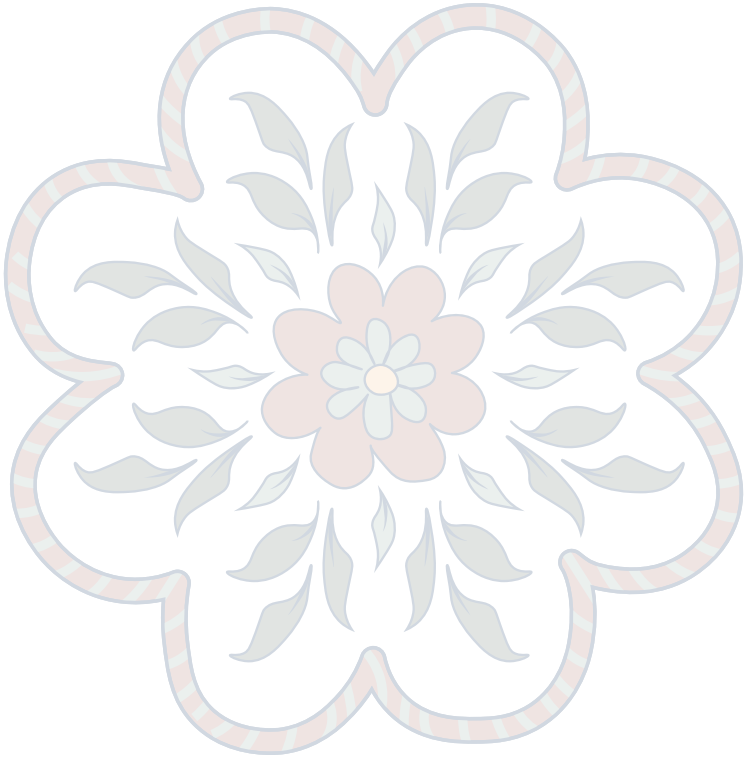
والخلاصة أنّ دراسة السيرة النبوية لم تقتصر على العلماء العرب،
بل درّسها أيضاً غيرهم من المستشرقين.

ذلك أنّها معين صافٍ لن ينضب، بما تكتنزه من الدلالات

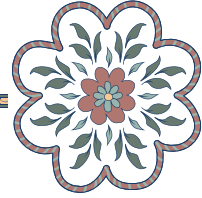


الهادية إلى ما به ارتقاء الإنسانيّة إلى أعلى مدارج الكمال.
فهي كشجرة طيبة أصلها ثابت وأكلها طيب في كل زمان وحال،
ولا يزال معدنها نفيسا إليه يرجع الباحثون عن الغنى المعرفي، والكمال
الأخلاقي، والقدوة الحسنة، والأسوة المستحسنة.





المصادر والمراجع



1. القرآن الكريم.
2. الأمدّي، أبو القاسم الحسن، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، ط. 1، 1991م.
3. ابن إسحاق، السيرة، تحقيق أحمد فريد الزبيدي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط. 1، 2004م.
4. ابن الأثير، التّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي بن حسن بن علي الأثيري، دار ابن الجوزي، الدّمّام، ط. 1، 1421هـ.
5. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 2، 1995م.
6. ابن الجوزي، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسّير، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت، ط. 1، 1997م.
7. ابن الصّمّة، الدّيوان، تحقيق د. عمر عبد الرّسول، دار المعارف،

- د ط، 1980م.
8. ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهرى وأيمن نصر الأزهرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 2004م.
9. ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق محمد الكاظم، ط. 1، 1996م.
10. ابن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق د. ناجي حسن، عالم الكتب، ط. 1، 1981م.
11. ابن الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، د ت.
12. ابن الملقن، غاية السؤل في خصائص الرسول، تحقيق عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، ط. 1، 1993م.
13. ابن ثابت، حسان، الديوان، تحقيق عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 2006م.
14. ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق محمد خفاجي عبد المنعم،

دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ت.

15. ابن حبيب، المحبّر، تحقيق د. إيلزه ليختن شتيتلر، دار الآفاق الجديدة، بيروت د.ت.

16. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالميّة، 1348هـ.

17. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي برفنصال، دار المعارف، مصر، د.ت.

18. ابن حزم، جوامع السيرة، تحقيق إحسان عبّاس وناصر الدّين الأسد، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت.

19. ابن خلّكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د.ط، 1972م.

20. ابن خليل، اختصار القدر المعلّى في التاريخ المحلّي لابن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959م.

21. ابن سعد، الطبقات الكبير، تحقيق عليّ محمّد عمر، مكتبة

- الخانجي، القاهرة، ط. 1، 2001م.
22. ابن سلام، القاسم أبو عبيد، كتاب الأمثال، تحقيق عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط 1، 1980م.
23. ابن سيّد التّاس، عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسير، مكتبة دار التّراث، المدينة المنورة، د ط، د ت.
24. ابن طولون، إعلام السّائلين عن كتب سيّد المرسلين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د ط، 1987م.
25. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1992م.
26. ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ط 2، 1403هـ..
27. ابن عبد البر، القصد والأهم في التّعريف بأصول أنساب العرب والعجم وأوّل من تكلم بالعربيّة من الأمم، مطبعة السّعادة، القاهرة، 1350هـ.
28. ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمّد قميحة، دار

- الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1983م.
29. ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر للطباعة والنّشر، د ط، 1979م.
30. ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1967م.
31. ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المصريّة، د ط، 1925م.
32. ابن كثير، البداية والتهاية، مكتبة المعارف، بيروت، د ط، 1991م.
33. ابن كثير، السّيرة النّبويّة، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، د ط، 1976م.
34. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط 1، 1997م.
35. ابن محمد، جمال، نخبة من أقوال علماء الغرب في فضل الإسلام ومدح نبيه، دار الكتب العلميّة، بيروت.
36. ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق عماد هلال، منشورات الجمل، بغداد، 2011م.
37. ابن منبّه، وهب، التّيجان في ملوك حمير، مركز الدّراسات

- والأبحاث اليمينية، ط. 1، 1347هـ.
38. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، د ط، د ت.
39. ابن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، مطبعة الباي الحلبي، د ط، د ت.
40. ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1990م.
41. الأزرق، أخبار مكة، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهب، مكتبة الأسد، ط. 1، 2004م.
42. الأزهرى، تهذيب اللغة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د ط، د ت.
43. الاصبهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، د ت.
44. الاصبهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الدار الشامية، دمشق، ط. 4، 2009م.
45. الألويسي، محمد شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،

- تحقيق محمّد بهجت الأثريّ، دار الكتاب العربيّ، ط. 2، ب ت.
46. الأنصاريّ، ابن حُدَيْدَة، المصباح المضي في كتاب النّبِيّ الأُمِّي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تحقيق محمد عظيم الدّين، دار الكتب ببيروت، 1985م.
47. البخاريّ، الأدب المفرد، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السّلفيّة، 1375هـ.
48. البخاريّ، الجامع الصّحيح، دار طوق التّجاة، بيروت، ط 1، 1422هـ.
49. بزايينية، حسن، كتابة السيرة النبوية لدى العرب المحدثين: اتجاهاتها ووظائفها، المركز الثقافي العربيّ، ط. 1، 2014م.
50. البغداديّ، الخطيب، الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع، مكتبة المعارف، الرّياض، 1983م.
51. البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السّقّا، عالم الكتب، بيروت، د ت.
52. البلاذري، أنسابُ الأشراف، تحقيق محمّد باقر المحمودي، دار المعارف، مصر، 1959م.

53. البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية،
54. DEUTSHE MORGENL. GESELLSCHAFT F. A. BROCKHAUS
.LEIPZIG. 1923
55. البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط 1، 1988م.
56. البيهقي، شُعبُ الإيمان، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول،
دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 2000م.
57. تاريخ خليفة بن خياط، دار طيبة، الرياض، ط. 2، 1985م.
58. تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي،
أبوظبي، 2001م.
59. التبريزي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلميّة،
بيروت، ط. 1، 2000م.
60. الترمذي، الشمائل المحمّديّة، تحقيق عزّت عبید الدّعّاس، دار
الحديث، بيروت، ط 3، 1988م.
61. التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم
الكتب، ط. 2، 1998م.

62. التّيميّ، سليمان بن طرخان، سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق د. رضوان الحصري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1443هـ.

63. الثّعالبيّ، لباب الآداب، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1997م.

64. الجاحظ، البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، ط 7، 1997م.

65. الجمحيّ، طبقات فحول الشّعراء، دار المدنيّ، جدّة، د ت.

66. الحلبي، إنسان العيون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 2 ، 1427هـ.

67. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، د ط، 1993م.

68. حوراني، ألبرت، الإسلام في الفكر الأوربي، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1994م.

69. الحشنيّ، الإملاء المختصر في شرح غريب السّير، تحقيق د. عبد الكريم خليفة، دار البشير، عمّان، ط 1، 1991م.

70. خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
71. داغر، يوسف أسعد، دليل الأعراب إلى عالم الكتب وفن المكاتب، بيروت، 1947م.
72. دي طرازي، فيليب، عصر السريان الذهبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014م.
73. الديار بكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، مؤسسة شعبان، بيروت، د ط، د ت.
74. الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتاب المصري، د ط، 1925م.
75. ديوان زهير، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1988م.
76. الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1984م.
77. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1982م.
78. الرّازي، فخر الدّين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط 1، 1981م.

79. الرّاعب، الذّريعة إلى مكارم الشّريعة، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ط، 1980م.
80. الرّاعب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق إبراهيم زيدان، مكتبة الهلال، د ط، 1902م.
81. الرّامهرمزي، المحدّث الفاصل بين الرّاوي والواعي، دار الفكر، ط. 3، 1984م.
82. الرّيزري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط. 3، د ت.
83. الرّزقاني، شرح المواهب اللدنيّة بالمنح المحمّديّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ت.
84. السّخاوي، الضّوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، د ت.
85. سعيد، إدوارد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.
86. السّلميّ، آداب الصحبة، تحقيق مجدي فتحي، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط 1، 1990م.

87. السَّهيلي، الرّوض الأُنْف، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، مكتبة الكليّات الأزهرية، القاهرة، 1391هـ.
88. السّوّاح، فراس، دين الإنسان، بحث في ماهية الدّين ومنشأ الدّافع الدّيني، دار علاء الدّين، دمشق، ط. 4، 2002م.
89. السيّوطي، الخصائص الكبرى، دار الكتب الحديثة، دط، دت.
90. الشّريثي، شرح مقامات الحريري، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، دط، 1992م.
91. الصّالحي، سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، تحقيق مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، وزارة الأوقاف، جمهوريّة مصر العربيّة، دط، 1997م.
92. صيام، محمّد الشّيخ، المعتقدات والقيم في الشعر، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربيّة، 1402م.
93. الطّبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 1967م.
94. الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط. 1، 2001م.

95. الطّروطشي، أبو بكر، سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة، ط 1، 1994م.
96. العامريّ، لبيد بن ربيعة، الدّيون، دار صادر، بيروت، د.ت.
97. العامريّ، يحيى بن أبي بكر الحرزي، بهجة المحافل وبغية الأمثال في تلخيص السّير والمعجزات والشّمائل، تحقيق أبو حمزة الدّاغستاني، دار المنهاج، 2009م.
98. عتر، نور الدّين، منهج النّقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ط. 3، 1997م.
99. العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، د ط، 1988م.
100. العلامة ابن بيّه، حلف الفضول الجديد فرصة للسلام العالميّ، منتدى تعزيز السّلم في المجتمعات المسلمة، أبوظبي، 2018م.
101. العلوي، ابن طباطبا، عيار الشّعور، تحقيق عباس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط. 2، 2005م.
102. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط 2، 1993م.
103. علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، 2009م.

104. العياشي، ماء الموائد، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشيح، دار السويدي بأبوظبي، ط.1، 2006م.
105. القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1982م.
106. القاضي، أبو يوسف، كتاب الخراج، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، 1420هـ.
107. القرطبي، التعريف بالأنساب والتنبؤ لذوي الأحساب، تحقيق سعد عبد المقصود ظلام، دار المنار، 1990م.
108. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق علي الخاقاني، مطبعة التّجّاح، بغداد، 1958م.
109. القيرواني، ابن رشيح، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق التّبويّ عبد الواحد شعبان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 2000م.
110. كارليل، توماس، محمّد: المثل الأعلى، تعريب محمّد السّباعي، دراسة وتقديم وتعليق محمود التّجيري، مكتبة النّافذة، ط 1، 2008م.
111. كرون، باتريشيا وآخرون، صناعة التّقدّيس في الإسلام إشكاليّة

التَّبَيُّ التَّارِيخِيَّ وَالتَّبَيُّ اللَّاهُوتِيَّ، ترجمة عبد السَّتَّار النَّاشِي، بيت
الكتاب السُّومَرِيَّ، بغداد، ط. 1، 2021م.

112. الكلاعي، الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله والثلاثة
الخلفاء، تحقيق محمد كمال الدِّين عزَّ الدِّين عليَّ، عالم الكتب، بيروت،
ط. 1، 1997م.

113. الكلبيَّ، نسب معدِّ واليمن الكبير، عالم الكتب، بيروت، 2004م.

114. اللامي، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب، تحقيق إبراهيم بن
محمَّد الزَّيد، ط 2، 1985م.

115. لوبون، غوستاف، مقدِّمة الحضارات الأولى، تعريب محمَّد صادق
رستم، المطبعة السَّلفِيَّة، القاهرة، 1341هـ.

116. لويس شيخو، مجاني الأدب في حقائق العرب، مطبعة الآباء
اليسوعيِّين، بيروت، 1913م.

117. الماتريدي، تأويلات أهل السنة، تحقيق مجدي باسلُّوم، دار
الكتب العلميَّة، بيروت، ط 1، 2005م.

118. الماوردي، أعلام النبوة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط 1،
1968م.

119. محفوظ، محمد، تراجم العلماء التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 2، 1994م.
120. المرتضى، الأمالي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط. 1، 1954م.
121. المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق فاروق السليم، دار صادر، بيروت، ط 1، 2005م.
122. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1991م.
123. المعري، اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت.
124. المغناوي، سعيد بن علي، السيرة النبوية في الكتابات الألمانية، العبيكان للنشر، الرياض، ط 1، 2018م.
125. المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 2003م.
126. المقرئ، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مطبعة المعارف، د ط، 1916م.

127. المقرزي، إمتاع الأسماع بما للنبّي صلى الله عليه وسلّم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1999م.

128. التّديم، محمّد بن إسحاق بن محمّد، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د ت.

129. نصّار، حسين، مقدّمة ترجمة كتاب "المغازي الأولى ومؤلّفوها" للمستشرق يوسف هوروفيتش، مصطفى البابي الحلبي، ط 1، 1949م.

130. التّميري، ابن شَبّة، أخبار المدينة التّبويّة، تحقيق عبد الله بن محمّد الدّويش، دار العليّان، ط 1، 1990م.

131. النّميري، ابن شَبّة، تاريخ المدينة المنوّرة، تحقيق فهمي محمّد شلتوت، طبع على نفقة السيّد حبيب محمّد أحمد، جدّة، 1399هـ.

132. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الدكتور يوسف الطّويل، وعلي محمّد هاشم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 2004م.

133. الونشريسي، المعيار المعرب، تحقيق د. محمد حجي وآخرين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، 1981م.

134. اليحصبي، عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، تحقيق عبده عليّ كوشك، جائزة دبي الدوليّة للقرآن الكريم، ط. 1، 2013م.
135. اليوسفي، القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلّم، مطبعة شالة، الرباط، ط. 1، 1998م.



فهرس الموضوعات

- 5.....تصدير
- 7.....العرب قبل الإسلام
- 7.....وحدة الأصل البشري
- 12.....مَن العربُ؟
- 16.....جذور العربية
- 19.....جغرافية الجزيرة العربية قديماً
- 22.....ديانات الجزيرة العربية قبل الإسلام
- 29.....صفات العرب وأخلاقها
- 31.....صفات العرب قبل الإسلام
- 38.....من القيم الخلقية عند العرب
- 39.....1. الحلم
- 40.....2. الشجاعة
- 44.....3. الحكمة
- 52.....4. الكرم
- 55.....5. الغيرة
- 61.....6. الإنصاف
- 65.....نبذة عن مكة قبل الإسلام
- 65.....نبذة عن تاريخ مكة
- 69.....بناء الكعبة شرفها الله

- 73.....حلف الفضول.....
- 79.....السيرة النبوية: مفهومها، أهميتها، مصادرها.....
- 81.....مفهوم السيرة النبوية وأهميتها.....
- 81.....السيرة لغةً.....
- 82.....السيرة اصطلاحًا.....
- 87.....أهمية السيرة النبوية:.....
- 89.....مصادر السيرة النبوية وفروعها: نماذج ومناهج.....
- 89.....القرآن الكريم.....
- 94.....الحديث الشريف.....
- 97.....كتب الشمائل:.....
- 102.....كتب «السيرة النبوية»:.....
- 104.....كتب الخصائص.....
- 107.....كتب دلائل النبوة، أو أعلام النبوة:.....
- 108.....كتب الطبقات وتراجم الصحابة:.....
- 112.....كتب التاريخ.....
- 113.....تصانيف مؤرّخي البلدان والأمصار، لاسيما كتب تاريخ الحرمين، ومنها:.....
- 114.....كتب الأدب.....
- 121.....حياة محمد الإنسان ﷺ.....
- 123.....المولد والمنشأ.....
- 123.....طفولة النبي ﷺ: التربية والرعاية.....
- 123.....-مسرد الأحداث.....

- 132.....الفوائد والعبر:-
- 138.....شباب النبي ﷺ: الإعداد والتأهيل
- 138.....مسردُ الأحداث:-
- 144.....الفوائد والعبر:-
- 151.....حياة محمد النبي ﷺ
- 153.....التبوة وبدء الوحي
- 153.....مسردُ الأحداث:-
- 163.....الفوائد والعبر:-
- 171.....الهجرة إلى الحبشة
- 171.....مسردُ الأحداث
- 182.....الفوائد والعبر:-
- 195.....الهجرة إلى المدينة المنورة
- 195.....مسردُ الأحداث
- 208.....الفوائد والعبر:-
- 216.....صحيفة المدينة وأسس العيش المشترك
- 216.....مسردُ الأحداث
- 226.....الفوائد والعبر:-
- 237.....نماذج من دفاع النبي ﷺ عن المدينة
- 241.....مسردُ الأحداث
- 256.....الفوائد والعبر:-
- 263.....رسائل النبي ﷺ إلى الملوك

- 263.....مسرد الأحداث.
- 277.....الفوائد والعبر.
- 283.....فتح مكة وعام الوفود.
- 283.....مسرد الأحداث.
- 294.....الفوائد والعبر.
- 298.....حجة الوداع ووفاة النبي ﷺ.
- 298.....مسرد الأحداث.
- 310.....الفوائد والعبر.
- 313.....جهود المستشرقين في خدمة السيرة النبوية.
- 313.....تعريف الاستشراق.
- 314.....بدايات الاستشراق.
- 315.....مؤتمرات الاستشراق.
- 317.....السيرة النبوية في أعمال المستشرقين.
- 319.....أسباب إعجاب بعض المستشرقين بشخصية محمد ﷺ.
- 320.....كتابات المستشرقين حول الرسول ﷺ.
- 331.....المصادر والمراجع.



ملخص الكتاب

كتاب "السيرة النبوية" قراءةً تقويميةً جديدةً لسيرة النبي عليه الصّلاة والسّلام، لمسار كتابة السّيرة وتفهمها؛ يهدفُ إلى بيانِ شخصية النبي الكريم، لتكون مجالاً خصباً للريادة والإبداع والتميز، ومنهجاً قويمًا في التّعامل مع سيرته العطرة، بالتركيز على جوانب من حياته التي تمثّل جوهر الرسالة السامية، وتنزيل منظومة القيم الإنسانية على المواقف والممارسات كما جاءت بها الآيات البيّنات ورسالات الأنبياء، المُحققة للسلام والمعزّزة للوئام بين الناس كافة. فهو كتاب يجمع بين الأصالة في المصادر، والجِدّة في طريقة التناول عرضاً وتحليلاً.

ISBN 978-9948-774-648



9 789948 774648